الفكر الإسلامي

مبادئه . مناهجه . قيمه . أخلاقياته

تأليف

الدكتور محمد الصادق عفيفي

أستاذ بجامعة البترول والمعادن
بالمملكة العربية السعودية

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على مصباح الهداية ، وعلم العدالة ، ورسول السلام ، سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه .

وبعد ، فان لى جملة من الأبحاث والمؤلفات ذات الطابع الديني ، تناولت (الإسلام والنظم التربوية) و (الإسلام والنظم المالية والاقتصادية) و(الإسلام والعلاقات الدولية) و(الإسلام والنظام القضائى) و(الإسلام والنظام الحربى) و(الإسلام والنظم الإدارية) و (الإسلام ونظم الحكم) و(معالم الحضارة الإسلامية) و(التربية الدينية) .. إلا أن موضوع هذا الكتاب ساقتنى اليه هذه المشاهدة والمتابعة (للمؤتمر الإسلامى) الذى انعقد بلندن فى الثالث من أبريل ١٩٧٦ ، لمدة عشرة أيام ، وكان افتتاح هذا المؤتمر فى نفس الوقت الذى انعقد فيه (مهرجان العالم الإسلامى) الذي امتد ثلاثة شهور كاملة (ابريل — مايو يونية) ، وللأسف لم ينعقد تحت اسم (مهرجان العالم الإسلامى — Festival of The Islamic world) حتى ينبىء عن شىء عالمى تتسع أبعاده الزمانية والمكانية ، وإذا كانوا قد قيدوه بهذه العبارة القاصرة (The World of Islam Festival) التى يمكن ترجمتها بـ (دنيا الإسلام) حتى يفهم القارىء غير العربى على حد تعبير الكاتب محمد قطب : (إن المهرجان يعرض للناس دنيا الإسلام ، ويدل على صغر حجم

ذلك الجزء المحدود ، حتى كأنه شاذ عن القاعدة العريضة من التدين بدين المسيحية)[1].

لقد أم المؤتمر بالذات جمهرة كبيرة من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وكبار الشخصيات الإسلامية ، ولا أغالى إذا قلت : إن جميع الأشخاص الذين حضروا إلى الندوات والمحاضرات من غير العرب ، كان يعنيهم شيء واحد — بطبيعة مستواهم العقلى والفكرى ، لأنهم من أوساط الناس ، كان يعنيهم الإجابة فى شيء من البساطة على سؤال واحد قد تلجلج فى صدورهم ، ألا وهو (ما الإسلام ؟) .

كانت نفوسهم تتطلع وتشرئب إلى هذا التعريف : الشامل فى حدوده ، البسيط فى مفهومه ، كانوا يتطلعون إلى هذه الشخصيات الإسلامية اللامعة بشوق وتلهف كى تعرفهم بماهية الإسلام ، ورغبة الناس — حتى كبار المثقفين والمتعلمين — إلى معرفة الإسلام معرفة شاملة ، تلح عليهم من وقت لآخر ، فمنهم « من يتطلع إلى معرفته بدافع التشوق إلى المعرفة ، ومنهم بحافز اختيار مذهب له فى الحياة ، ولاسيما وقد كثرت المذاهب ، فاضطربت النفوس الشابة ، ولم تعد تدرى أين تتجه ، ومنهم من يريد تحكيمه فى سلوكه وتطبيقه فى حياته ، وهؤلاء جميعا سواء أكانوا من أبنائه أم من غير أبنائه ، ومن المؤمنين به دينا إلهيا أم من غير المؤمنين به .. يتطلعون إلى معرفة حقيقته ، بل إن أبناءه أشد حاجة إلى معرفته .. لأن عندهم صورة ورثوها عنه تخالف حقيقته .. »[2].

ومع هذا التلهف والشوق إلى التعريف بالإسلام ، فان واحدا من

---

(١) انظر مقالا لمحمد بهاء قطب بعنوان (على هامش مهرجان عالم الإسلام) بمجلة البلاغ الكويتية ، العدد ٣٦٢ ، فى ٤ يوليو ١٩٧٦ ص ٥٤ .

(٢) انظر : نظام الإسلام (العقيدة والعبادة) لمحمد المبارك : ٨ بتصرف .

المتحدثين أوالمحاضرين لم يعرض لهذه الناحية ، إذا استثنيت كلمة الأمير محمد الفيصل التى دشن بها افتتاح المؤتمر ، فقد عرج فى إيجاز على حقيقة الإسلام ، حتى أنه عندما أنهى كلمته نادى أكثر من واحد ، بصوت شق أجواز قاعة ألبرت الشهير ، قائلا : (Not Yet, Please. Not Yet..).

بل إن هذه اللهفة الشديدة حول معرفة حقيقة الإسلام ، قد رددتها جميع أجهزة الإعلام كثيراً فى برامج الراديو ، والتليفزيون ، والصحافة ، وكانت تتطلع إلى أن تجد اجابة شافية تقنع النفوس والخواطر المسلمة وغير المسلمة ، ويعقب على هذا الكاتب محمد قطب بقوله : «كان الجواب : دائما ، إن كلمة الإسلام ذاتها فيها المعنى الكامل ، وهوأن يستسلم الإنسان ، ويسلم وجهه لله الواحد خالق الكون ، والمسيطر عليه ..»[1].

وكنت أحب أن يبتعدوا عن هذه الإجابة التقليدية ، ليقولوا شيئا جديداً ، شيئاً فيه أيديولوجية الإسلام ، ومناهجه ، وعقائده ، وعبادته ، وقيمه ، وأخلاقياته .

أو ليشرحوا الكلمة بعيدة عن معناها اللغوى ، فهذا المعنى اللغوى يقال لنا معشر العرب الدارسين لمضامين اللغة العربية وبلاغتها ومقاصدها ، أما المسلم غير العربى الأصل ، فكان يحتاج مزيداً من الإيضاح ، وما أجمل إجابة الباحث الإسلامى أبى الأعلى المودودى ، والدكتور الفيلسوف فؤاد الأهوانى فى هذه السبيل :

أما إجابة الأول فقد وردت فى صدر كتابه (مبادىء الإسلام) حيث يقول : من المعلوم أن كل شىء فى هذا الكون ، منقاد لقاعدة معينة ، وقانون

---

(١) انظر : المقال السابق : ٥٤ .

خاص ، فالشمس والقمر والنجوم مسخرات تحت قاعدة مطردة ، لاقبل لها بالحراك عنها ، والخروج عليها ، ولوقيد شعرة ، والأرض تدور حول قطبها ، ولايدب فيما قدر لها من الزمن والحركة والطريق ، وبيب التغير والتبدل .

والماء والهواء والنور والحرارة .. كلها مذعنة لهذا القانون الخاص ، وللجمادات والنباتات والحيوانات ضوابط ، لاتنمو ولاتنقص ولاتحيا ولاتموت إلا بموجبها ، حتى أن الإنسان نفسه إذا تدبرت أمره ، تبين لك أنه خاضع لهذا القانون ، فلايتنفس ولايمس حاجته إلى الماء والغذاء والنور والحرارة إلا وفقاً لقانون الله المنظم لحياته ، ولهذا القانون نفسه ينقاد قلب الإنسان فى حركته ودمه فى دوراته ، وتنفيسه فى شهيقه وزفيره ، وله تستسلم جميع أعضاء جسده كالدماغ والمعدة والرئة والأعصاب والعضلات واليدين والرجلين واللسان والعينين والأنفس والأذن ، فليست الوظائف التى تؤديها هذه الأعضاء كلها إلا ما قدره الله لها ، وهى لاتقوم بها إلا بحسب ما تقرر لها من الأداء .

فهذا القانون الشامل ، الذى يخضع له ، ولايخرج عن طاعته شىء فى هذا الكون.. هومن وضع خالق مقتدر ، فاذا كان كل شىء فى السموات والأرض وما بينهما منقاداً لهذا القانون ، فان العالم كله بما فيه الإنسان مطيع لذلك الخالق العظيم ، ومن هنا جاءت كلمة الإسلام ، لتعنى أن الإسلام دين الكون طرا(١) ».

وأما إجابة الثانى فقد جاءت فى خاتمة كتابه (القيم فى الإسلام) ، قال : لقد قيل فى تعريف الإسلام من الوجهة اللغوية : إنه من الانقياد والاستسلام لأوامر الله ونواهيه ، ولكن هذا المعنى تطرف به كثير من المسلمين ، حتى خرجوا به عن معناه الأصيل وعن قيمته الحقيقية ، وظنوا أن الإسلام هو

---

(١) مبادىء الإسلام : ٤ — ٥ .

الاستسلام ، أى هذا السلوك السلبى الذى يهدد معنى الإنسانية ، وأصبح الإسلام فى نظرهم مجرد خضوع وذلة .

وقيل : ان الإسلام من السلامة ، والخلوص من الشوائب والنقص وهذه القيمة هى التى ذهب اليها الإمام الغزالى فى أثناء تعريفه لاسم الله من أنه (السلام) .

وقيل : ان الإسلام من السلام الذى هو ضد العدوان ، سلام بين العبد ونفسه ، وبين العبد وخالقه ، وبين العبد ومجتمعه ، وبين العبد وبين الناس .. وهذا المعنى الأخير هو القريب من المفاهيم العصرية — وإليه يدعو الدكتور الأهوانى[1].

فاذا أخذنا بوجهة نظر هذين الباحثين استطعنا أن نقدم تعريفا فريداً للإسلام فى ثوب عصرى ، وفى روح جديدة ، لأن ميزة الإسلام أنه مع الاحتفاظ بحقائقه وجوهره يساير الزمان والمكان .

وإذا كان الكون كله منقاداً لقدرة هذا الخالق العظيم ، وإذا كانت الدعوة إلى السلام ، ومن ورائها الإسلام : هما الأساس فى فهمنا لهذا المدلول ، فلاشك أننا سنغزو العالم من جديد ، وسننتصر باذن الله ، فاذا جاءنا مستفهم أو باحث عن الدين الحق ، وهو مسلم ، مسلم ، فهوآمن ، وينبغى أن نشرح له حقيقة الدين بروح الدين نفسه ، وبمثل هذا الأسلوب الذى جاء به جبريل عليه السلام ، وسلكه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث جاء فى صورة رجل ، وجلس إلى النبى ، وهو بارز يوما للناس وسأله : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره .

---

(١) القيم فى الإسلام : ١٥٢ .

ثم قال : وما الإسلام : قال الإسلام أن تعبد الله، ولاتشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ..» ثم سأله عن الإحسان ، وعن الساعة ، ثم أدبر ، فقال عليه السلام : ردوه، فلم يروا شيئاً . فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم» .

بمثل هذا الوضوح ، وبمثل هذه الثقة ، وبمثل هذا التعاون تنتشر راية الإسلام عالية خفاقة ، ومسئوليتنا نحن العرب فى التعريف بهذا الدين ، لا أراها الآن فرض كفاية ، بل أراها فرض عين ، لأنه يكون الجزء الضخم من تاريخنا ، وهو ينبوع حضارتنا التى عرفنا بها ، وهو يكون مع اللغة الجزء الأكبر من وحدتنا ، ولأنه كذلك المنطلق لأداء رسالتنا ، وانتشار ثقافتنا ولغتنا ، وهو الصلة بيننا وبين شعوب كثيرة من العالم ، يمكن أن يصبغ حضارتها الحديثة بمقاييسه ومعاييره ، لو أجدنا فهمه وحسن تطبيقه ، لأن الداء فى المسلمين،وليس فى الإسلام، وهو الذى يحول دون ذوباننا فى تيارات المذاهب الحديثة ، والقوى العالمية المتصارعة .

وقد عقب على ذلك الأستاذ محمد المبارك فقال : « إنك لوأردت أن تعرف مستفهما أومستعلما عن الإسلام يرغب فى أن يأخذ صورة كاملة عنه ، فى معالمه الأساسية ، وخطوطه الكبرى ، حتى يستطيع أن يوازن بينه وبين الأديان الأخرى ، والمذاهب الاجتماعية المستحدثة ، أوليؤكد ماهو عليه من عقيدة ورثها ، لأعياك أن تجد كتابا موجزا جيداً يضم هذا الموضوع ويحافظ على جميع جوانب الإسلام ، ويراعى ما بينها من نسب ، دون الدخول فى الخلافات المذهبية ، ولا إقحام الآراء الشخصية بدر الإمكان .

على غرار تلك الكتب التى تزخر بها مكتبات الغرب فى عرض كل دين

---

(١) انظر : صحيح البخارى : ٢-٢٠ .

أو مذهب فى كتاب كبير أوصغير ، يعطيك صورة تامة شاملة عن ذلك الدين أو المذهب .

بل لوطلبت إلى عدد من العلماء أن يقدموا لك هذه الصورة الكاملة الموجزة لحار بعضهم من أين يبدأ ، ومن أين ينتهى ، وماذا يأخذ ، وماذا يدع ، وما هى المعالم المهمة التى يجب ابرازها، والتفصيلات الثانوية التى لاضير فى إغفالها ، وربما قدم بعضهم جانب العقيدة واقتصر عليه ، أواهتم بالشعائر وقواعد السلوك ، أو عنى بالقيم والنزعات» (١).

(لقد انتشرت الأزمات (أى تقليعة الإزم — ism بالعشرات ، وأصبحت أزمات الجانب الاجتماعى والرأسمالى تنافس أزمات الجانب العقائدى ، وحل تقديس الأشخاص محل تقديس الدين .

نعم ، لقد صمد الإسلام بمقوماته التى أودعها الله فيه ، وضمن حفظه أمام هذه الهجمات البربرية ، وأمام هذه التحديات والمفتريات ، لأنه من عند الله « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون (٢).

لقد تحركت جميع القوى الظاهرة والباطنة ، فهذه تحركات المذاهب، وهذه تحركات الأديان لتجديد نفسها ، وتحديث أساليبها .

ومن ثم فان هناك ضرورة ، لأن نفهم الإسلام على حقيقته ، وأن نتناوله باعتباره وحدة متماسكة، ينظم العقيدة ، والعبادة والسلوك الأخلاقى والاجتماعى والتشريع الحضارى ، وأن نبتعد عن تلك المتاهات ، وتلك المصادمات التى جرى وراءها علماء الكلام والتوحيد ، حتى كفر بعضهم بعضا ، وتلك الشطحات التى جرى وراءها بعض المتصوفة .

---

(١) انظر : مقدمة نظام الإسلام : ١٣ .

(٢) انظر : حديثا عن المؤتمر الإسلامى ، بمجلة اقرأ السعودية ، العدد ٦٩ ، فى ١٥ يابرل ١٩٦٧ ص : ١٢ .

وأن نبتعد عن هذه القوالب الجامدة التى ورثناها عن عصور الانحطاط، تلك القوالب وذلك السلوك الذى صور الإسلام بصورة غير محمودة فى أذهان المسلمين والأجانب ، وهى صورة — ولاشك — تختلف كلية عن الجوهر الأصيل للإسلام الذى يشع طهارة ، ويفيض نقاء ، يقول ابن القيم: « لقد جعلوا الشريعة قاصرة لاتقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على نفوسهم طرقاً صميمة من طرق معرفة الحق ، والتنفيذ له ، وعطلوها بتقصيرهم فى معرفة الشريعة والواقع ، ولما رأى ولاة الأمور ذلك أحدثوا من الأوضاع شرا مستطيرا ، فتفاقم الأمر ، وتعذر استدراكه ، وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس واستنقاذها من المهالك ».

ويقول الدكتور محمد العربى : ان الأجيال التى أعقبت الصدر الأول من الإسلام .. غفلت عن واجبها فى استخراج القواعد التنفيذية ،والإجراءات العملية التى تكفل نفاذ الصورة الإسلامية الصحيحة ، وتكفل التوفيق بين هذه الأصول العامة، وبين احتياجات كل عصر ، ولم تلبث هذه الأصول الصحيحة لطول الترك .. ، ان لحقها التشويه فى المعنى ، والعبث فى التفسير » وقد أدى هذا التشويه إلى ضعف المجتمع الإسلامى : فكريا واقتصاديا وعسكريا ، وجعلنا مطية ذلولا للغير.

كما كان ذلك مدعاة إلى اساءة الظن به من طرف كثير من الأجانب ، ولاسيما الباحثين منهم ، بل ان نفور شبابنا من أبناء العصر الحديث ، وابتعادهم عن محيط الإسلام ، وجريهم وراء هذه المذاهب المستحدثة الخادعة التى ظنوا أنها تحل مشكلاتهم يرجع إلى شىء من ذلك .

إن أجدر الناس بحمل لواء الإسلام ، وأجهدهم بالبحث عنه وتبسيطه للناس فى صورة مشرقة وضاءة هم أبناؤه ، ولا أعنى هذا النمط لمفرغ فى

---

(١) انظر : النظم الإسلامية : ٣٣ ، وقارن بمقال لحسن البنا بعنوان (الله فى العقيدة الإسلامية) مجلة الشهاب ، أول صفر ١٣٦٧ ص ٣ .

الدراسات التقليدية ، وإنما أعنى هذا النمط الذى وعى روح الإسلام وحقيقته، وتسلح بالمعارف الحديثة ، والثقافات الأجنبية ، وذلك حتى يستطيع أن يتصدى لرد الهجمات الخبيثة ، وأن يضطلع بتقديم الإسلام بالصورة الصحيحة ، ليعرف المواطنون من جانب ، وليعرف جيراننا الأجانب من جانب آخر ، حقيقة هذا الدين الكريم ، باعتباره : حياة ، وتاريخا ، وعلماً ، وعملا ، ومادة وروحا .

فالإنسانية اليوم ما أحوجها ، وهى غارقة فى الدماء والتمزق ، محتاجة إلى أن تعرف الإسلام والسلام والمحبة فى تفكيرها ، ونظم حياتها ، وطرائق سلوكها ومجتمعاتها ، فالإسلام كما يقول إميل درمنجم : « ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية ، لاصلة لها بالمادة ، ولا بالحياة ، وإنما الإسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، جسم ، وروح ، دين ، ودولة ، وحياة ، وغيب وشهادة ، والإسلام عقيدة، تقدمية لا بوصفه مؤيداً لنظريات الاجتماع الحديثة ، بل لأنه يدفع الإنسان دوما إلى الأمام » .

* * *

إن للفكر الإسلامى منهجا أصيلا لايحتاج فيه إلى تقليد ، وانما نحتاج أن نقارعهم بسلاحهم نفسه ، الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، بالتى هى أحسن ، نحتاج أن نقدم صورة صحيحة عن الإسلام فى معالمه الأساسية ، وخطوطه الكبرى ، ليستطيع أى فرد أن يوازن بينه وبين الأديان الأخرى ، والمذاهب الوافدة ، وأن يحافظ على جميع جوانبه ، دون الدخول فى هذه المزالق المذهبية ، والخلافات الفقهية ، كما أشرت من قبل .

فالفكر الإسلامى هو هذه الحصيلة من الموضوعات التى تخاطب العقل البشرى فيما يمس عالمنا الواقعى الموسوم بعالم الشهادة ، وتدفعه إلى التأمل

والملاحظة والنظر فيما يتعلق بقضايا العقيدة ، والعبادة ، والقيم ، والنزعات ، والأخلاقيات فى الإسلام .

وعملية التفكير تنحل إلى وحدات بسيطة — كما يقول علماء النفس ، تقوم الوحدة منها على سؤال يشرق فى الذهن أو مشكلة تعرض للإنسان ، فتستغرق شعوره ، ويتلمس السبل للاهتداء إلى جواب مقنع يرضاه ويسلم به عن اطمئنان نفسى ، واقتناع عقلى ، ويكون هذا الجواب بمثابة ولادة طبيعية لما يجيش فى النفس من مشاعر وخواطر وأحاسيس ، أو بمثابة الثمرة الناضجة إذا طابت تماماً فإنها تسقط من الشجرة ، قال ديكارت مخاطبا نفسه : هل أنا موجود ؟ فأجاب : أنا أفكر ، إذن أنا موجود » لأنه بواسطة التفكير يعى ذاته ، ويعى نفسه ، ومن ثم لابد أن يكون هذا الشخص الذى يعى ذاته موجودا ، لأنه لوكان معدوما لما استطاع ذلك .

وعلى هذا الأساس قامت جميع المعارك البشرية ، قامت من سؤال نشب فى الذهن ، وأول معركة فيما نعلم هى معركة أبينا آدم ، فلقد نشب فى ذهن إبليس خاطر ، ألا وهو : كيف يسجد لبشر مخلوق من طين ، وهو مخلوق من نار.

والمعركة الثانية نشبت فى ذهن آدم نفسه ، حين قال الله له هو وزوجه حواء : « لاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ، فنشب فى ذهنها سؤال : لماذا لاتقربا هذه الشجرة ؟

ثم يتبع التفكير عادة نوع من السلوك والتطبيق للمناهج الوضعية التى اهتدى اليها العقل ، أو للنظم الإلهية التى جاء بها الرسل ، ونزل بها الوحى ،

---

(١) انظر : اللغة والفكر ، وأسس علم النفس للدكتور عبد العزيز القوصى (ط النهضة المصرية ١٩٥٦) .

وهى تلك المناهج التى رسمها ذلك القلم الأعلى لسلوك الفرد ، وسلوك الجماعة، ليستقيم أمرها ، ولتؤدى رسالة الخلافة فى الأرض« ولايغير من صفة النظام الإلهى أن يجتهد البشر فى تفصيل الأحكام الكاية التى نزل بها الوحى ، فى سبيل تطبيقها على النحو الذى يحقق أهدافها فى عصر معين مادام التطبيق فى نطاق التشريع الدينى» .

لذلك كله رأيت أن أقدم هذه الصورة الكاملة عن الفكر الإسلامى، من حيث (مبادئه العقائدية) و(مناهجه السلوكية) و(قيمه الروحية) و(نزعاته الأخلاقية والعلمية) :

١-٧-١٩٧٦ محمد الصادق عفيفى

الباب الأول

العقيدة ومبادئها

مظـاهر العقيـدة :

للعقيدة مظهران : مظهر روحى ، ومظهر سلوكى ، وسنعرض ها هنا للمظهر الأول ، فالعقيدة فى مظهرها الروحى تعبر عن الإيمان الذى وقر فى القلب بمبادىء تعد محور ترابط وتواد بين معتنقيها ، وترتكز هذه المبادىء فى الحالات البدائية التى لم تتصل باثارة من علم ولا دليل ، أوقبس من رسول على تصورات توارثها الأجيال من عاداتها وتقاليدها عبر العصور والأزمان(١) ، حيث يعبدون ما خلق لأجلهم ، ولا يملك لنفسه نفعا ولاضراً ، ولايستطيع مجازاة الطائع ، ولا معاقبة العاصى .

ومن هنا تحمل هذه التصورات طابع القداسة والتسليم المطلق ، كما تحمل طابع الشعبية من ترديد صداها فى نفوس أتباعها ، وليس بصحيح ما ذهب إليه أبوالحسن الندوى من أن هذه الديانات « ليس لها سلطان على أرواح أتباعها ، ولاتأثير لها فى أخلاقهم ومجتمعهم(٢) » .

نعم ، قد تكون الديانات ديانات سطحية من حيث المبادىء والتصورات ولكن الذى لاشك فيه أنه كان لها سلطان على نفوس أتباعها .

وتقوم تلك المبادىء فى حالة بعثات الرسل على أصول وقواعد سماوية ارتضاها الخالق سبحانه لعباده ، وقام الرسل بتبليغها وغرسها فى النفوس ، وهذه العقيدة فى الديانة الإسلامية وغيرها من الديانات السماوية ، تنبثق أساسا من الإقرار القلبى بوحدانية الله ، ويبرز هذا الإقرار فى : (شهادة أن لاإله إلا الله) ، وصدق الله حيث قال : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا..(٣)»

---

(١) انظر : روح الاجتماع : ٨٤ ، وسر تطور الأمم : ٨١ ، والآراء والمعتقدات ، الفصل الأول ، وثلاثتها لجوستاف لوبون ، وقد ترجم الأول والثانى (أحمد فتحى زغلول باشا) وترجم الثالث (محمد عادل زعيتر) .

(٢) انظر : الفكر والدعوة : ٢٥

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .

وهذا العهد والميثاق ، أو بمعنى أدق : هذا الإقرار ينبض من حنايا النفس المؤمنة بالأفكار الحية ، والمبادىء السامية ، وقد طبع لها صورةبارزة المعالم ، واضحة الملامح عن المحور اللاى تدور من حوله ، ومن هذه الزاوية تدخل العقيدة فى صراع مع العقائد الأخرى ، بدائية كانت أم راقية ، ومع الأفكار والمذاهب الوضعية .

حريــة العقيــدة :

تعد الشريعة الإسلامية ، الشريعة السماوية الوحيدة التى نادت بحرية العقيدة ، حيث تركت لكل إنسان الحرية الكاملة فى اعتناق ما يشاء من العقائد السماوية ، وأن يقيم شعائرها ، ويدافع عنها ويجهر بها ويعمل لها ، ويدعو غيره للدخول فيها .

وليس لكائن من كان أن ينكر عليه ذلك أويكرهه على ترك عقيدته واعتناقه غيرها، أو منعه من إقامة شعائرها ، وإذاعتها بين الناس ، وإذا أصاب صاحب عقيدة اضطهاد ، أو أوذى بسببها ، فان الإسلام يطلب إليه أن يهاجر إلى بلد آخر تسود فيه حرية العقيدة ، ويتمتع أفرادها بالجهر من القول دون مواربة أو خوف .

ذلك لأن الإسلام لايرى صحة العقيدة إلا إذا جاءت وليدة تفكير حر ، وثمرة اقناع تام ، ولايعتبر المكره على اعتناق عقيدة ما مؤمنا بها ، مؤاخذا بأحكامها ، وصدق الله حيث قال : « لاإكراه فى الدين »(١) و « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »(٢).

وقد بلغ الإسلام من الروعة والإجلال ، حين منح غير المسلمين حرية العقيدة ، وتركهم لاعتناق ما يشاءون ، بعد مناقشتهم بالتى هى أحسن ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .
(٢) سورة يونس ، الآية : ٩٩

وبيان وجه الحق لهم، وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم وعبادتهم ، وتمكينهم من إقامة شعائرهم على الوجه الذى اختاروه ، وارتضوه لأنفسهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة[1] » ، وقال « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة[2] » .

وفى هذا المسلك الذى سلكه عمر بن الخطاب عندما عقد معاهدة صلح عام ١٥ هـ مع أهل (إيلياء) أروع صور حرية العقيدة فقد أعطاهم فيها حقوق الأمان التى تكفل لهم ممارسة دينهم بكل اطمئنان : « وقد جاء فيه : « هذا ما أعطى عمر ، أهل ايلياء — بيت المقدس — من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، أنه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ، ولا ينتقص منها ولامن غيرها ، ولامن صليبهم ، ولامن شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم » .

وهكذا وسع الإسلام أرباب الديانات الأخرى ومنحهم حرية العقيدة يجهرون بها أنى شاءوا وكيف شاءوا ، فلهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، ممتعين بالأمان على أنفسهم وأموالهم وعبادتهم دون أن يجدوا أية تضييق أو غدر أو اكراه .

عـرض العقيـدة :

وعرض العقيدة فى غير المجالات الدينية المتخصصة ينبغى أن يقتصر على الأسس الرئيسية دون الخوض فى التفصيلات والجزئيات التى تجرنا إلى

---

(١) انظر : سنن أبى داود : ٣٣

(٢) انظر : النسائى : ١٤ ، وابن حنبل : ١٨٦/٢

الخلافات المذهبية ، والمزالق الاجتهادية ، وذلك كالآيات(١) والأحاديث(٢) المتعلقة بصفات الله مثلا ، والموهمة فى ظاهرها مشابهة الله لخلقه فى بغض صفاتهم ، فما أحرانا أن نتجنب ما يكون سببا فى بلبلة الأفكار ، واضطراب العقول ، وفى الوقت نفسه ليس ثمة كبير فائدة من وراء الخوض فيها .

فالمقصود الأساسى الذى أكده القرآن الكريم فى الدرجة الأولى : إخلاص العقيدة ، والعبادة لله فاطر السموات والأرض ، وقد تنادت جميع الرسالات بذلك « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره (٣) » .

وقامت فى صف طويل من لدن آدم ، حتى محمد عليه السلام تدعو وتؤكد فى دعوتها بأنه ليس ثمة إله جدير بالعبادة ، وحقيق بالطاعة غير الله ، وصدق رب العزة حيث قال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون (٤) » وقال : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت(٥) » .

الأسس الرئيسية :

إن أساس العقيدة الإسلامية ، ومحورها الأساسى ، كما نستنتج من الآيات السابقة هو الإقرار بـ (لا إله حقيق بالعبادة ، وجدير بالطاعة ، إلا الله) ، ثم تأتى بقيمة الأسس العقائدية تابعة ومصلية ، لأنها تستمد كيانها وأصولها من هذا المنطلق .

---

(١) مثل قوله سبحانه : (الرحمن على العرش استوى) سورة طه ، الآية : ٥ ، وقوله : (ويبقى وجه ربك) سورة الرحمن ، الآية : ٢٣ ، وقوله ؛ (ولتصنع على عينى) سورة طه ، الآية : ٣٩ ، وقوله : (يد الله فوق أيديهم) سورة الفتح ، الآية ١٠ .

(٢) مثل قوله عليه السلام : (خلق الله آدم على صورته ..) وقال : (لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٥٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٢٥

(٥) سورة النمل : الآية : ٣٦

والأساس الثانى الذى يأتى بعد الإيمان بالله هو (الإيمان بوجود الملائكة) ، وهم أجسام نورانية ، متوارية عن الأنظار ، لهم القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، ويقومون بتدبير كثير من أمور الكون التى وكل الله إليهم مهمة القيام بها ، وهى من قبيل الأعمال المتصلة بعالم الغيب ، كتوفى الأرواح ، وتبليغ الرسالات ، وغير ذلك مما ورد فى القرآن ، قال تعالى : « حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لايفرطون[1] » ، « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم[2] » .

كما يقومون بالإشراف على الأناس فى بعض الأمور الغيبية كتسجيل أعمالهم ، قال سبحانه : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[3] » ومثل الحفظة : « وإن كل نفس لما عليها حافظ[4] » .

وقد تطاولت بعض الجماعات وضلت طريقها ، فقالوا كذبا وزورا : إنهم أبناء الله ، بل بناته وجعلوا منهم آلهة تعبد ، وقد كذبهم القرآن ، ورد عليهم اعتقادهم الباطل فى أكثر من موطن ، لأنهم والحق يقال : عباد مكرمون ، لايأكلون ولايشربون ، ولايتزوجون ، بل هم بعبادة ربهم مشغولون ، قال سبحانه : « وقالوا : اتخذ الله ولداً سبحانه ، بل هم عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون[5] » ، وقد أسجدهم ربنا جل وعلا لآدم حين خلقه « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر ، وكان من الكافرين[6] » ، وهم « لايعصون الله

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٦١ .
(٢) سورة السجدة الآية : ١١ .
(٣) سورة ن الآية : ١٧ .
(٤) سورة الطارق الآيه : ٤ .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٦ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٣٤ .

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (١) » ، كذلك سفه القرآن رأى الذين قالوا: أنهم بنات الله، فقال : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ..» (٢).

والأساس الثالث : (الإيمان بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله) إيمان اعتقاد لا إيمان تعداد بمعنى أن نؤمن بأن كل كتاب نزل من عند الله سبحانه فهو حق لاريب فيه ، وقد أشار القرآن إلى بعض هذه الكتب ، كالتوراة التى أوتيها موسى عليه السلام ، والأنجيل الذى جاء به عيسى ، وكصحف ابراهيم ، وزابور داود .

وثمة فارق بين القرآن الكريم الذى أنزله الله على قلب محمد ، وبين هذه الكتب ، منها : أن القرآن كان رسالة ومعجزة ، أما هذه الكتب فكانت من قبيل التعاليم ، ومنها : أن القرآن « كان دنيا ودولة ، روحا ومادة ، عملا وثقافة ، وشرعة وقانونا ، ونظاما كاملا دقيقاً للفرد والبيت والأمة والدولة والعالم(٣)». أما هذه الكتب فكانت تشريعا لبعض الشعوب خاصة بها ، ومنها: أن القرآن ما يزال كما هو منذنزل من السماء ، حتى اليوم وسيظل إلى يوم القيامة لم يطرأ عليه أدنى تغيير أو تبديل « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون (٤)» على حين أن هذه الكتب دخلها كثير من من التحريف والتبديل ، ومنها : أن تعاليم هذه الكتب كانت إقليمية مقصورة على فئة من الناس ، أما القرآن فهو للناس كافة ، وأنه موجه للبشرية من لدن محمد عليه السلام حتى يوم يبعثون .

والأساس الرابع : (الإيمان بالرسل) وهم هؤلاء الأشخاص الذين

---

(١) سورة التحريم ، الآية : ٦ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية : ١٩ .
(٣) انظر : أحاديث الجمعة للشهيد حسن البنا : ١٥٧ .
(٤) سورة الحجر ، الآيه : ٩ .

اصطفاهم الله(1) واجتباهم من بين أبناء البشر(2) ، وبعثهم إلى الناس فى مختلف بقاع الأرض ، ومختلف العصور ، ليأخذوا بيدهم إلى طريق الهدى ، وليوضحوا لهم مقاييس الخير ومعايير الشر التى قد تسود بينهم ، وتنشأ فى مجتمعهم ، والسلوك الأمثل فى حياة الإنسان ، وتحديد قواعده التى تأخذ بزمام النفس وتقودها إلى الحق والخير والعدل ، قال سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط(3). وهذا الوجه من تعاليم النبوات يختلف من نبوة إلى أخرى ، وذلك مراعاة لأحوال الشعوب والعصور.

وليبينوا لهم (الحقيقة الكبرى) ، ألا وهى أن هناك ربا وخالقا جديرا بالعبادة ، وليحرروا البشرية من عبادة الأصنام والأوثان وليوجهوها إلى الله وحده ، ومن ثم فهناك واجبات معينة ، وسلوك محدود ، وهذا الوجه من تعاليم النبوات لا يختلف من نبوة إلى أخرى، قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت(4) » .

ثم جاء محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتما للنبيين والمرسلين ومتمماً لهذه الرسالات جميعا دون تفرق بينها ، ويمكن أن نفترض الآتى : لو أن لديك عشرة كتب لعشرة مؤلفين فى الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات وأجمعوا فى عبارتهم وفكرتهم على تحديد نظرية بعينها ، كأن يقولوا : (إن الزاوية القائمة فى المثلث المتساوى الساقين تساوى تسعين درجة) .

فالمنطق والعقل يقول : إنك إذا صدقت واحدا ، وأخذت برأيه لزمك تصديق التسعة الأخرين ، وإذا كذبت واحدا ورفضت كلامه فكأنك

---

(1) قال سبحانه : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) الحج الآية ٧٥ .

(2) قال سبحانه (قالت لهم رسلهم ان نحن إلا بشر مثلكم) . ابراهيم ، الآية : ١١ .

(3) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .

(4) سورة النحل الآية ٣٦ .

كذبت التسعة الآخرين ، والا فلامعنى ولامبرر لأن تصدق واحدا وتكذب الآخر .

وكذلك الحال فيمن يفرق بين كتب الله ورسله ، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وصدق الله حيث قال : « لانفرق بين أحد من رسله (١)» من حيث الإيمان بأنهم أنبياء الله .

إن طريق الوصول إلى حقائق هذا الكون ، والإيمان بخالقه تبارك وتعالى – يمكن أن يكون العقل رائدا اليها ، ولكن العقل قد يضل ، والنفس أمارة بالسوء ، والشهوات تحيط بالإنسان من كل جانب ، ومن ثم فقد اقتضت حكمته سبحانه إرسال (الرسل) و(الوحى) الإلهى إلى الأشخاص الذين اصطفاهم ، ليبلغوا رسالاته ، ولقد عنى القرآن الكريم بعرض هذا الجانب من نواح أربع :

الناحية الحضارية : ونقرأ مثل ذلك فى سورة سبأ ، قال سبحانه : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور(٢) » . وفى سورة النمل ، قال تعالى : « قيل لها ادخلى الصرح..(٣) » .

والناحية العلمية : إن القرآن الكريم يذكر حقائق العلم باعتبارها قضايا كلية صالحة لكل زمان ومكان ، ومن ثم فهو يتناولها تناولا سريعاً للعبرة والتأمل ، فهو يعرض أية نظرية علمية عرضا مفصلا ، من حيث : حقيقتها وظواهرها وتطورها وآثارها ، ولكنه يترك للعقول الواعية ، وللنظر الثاقب وسائل الدراسة ، وفق كل عصر وكل مجتمع .

---

(١) سورة التوبه ، الآية : ٢٨٥ .
(٢) سورة سبأ ، الآية : ١٥.
(٣) سورة النمل ، الآية : ٤٤.

وهو فى هذا العرض يشد العقل الإنسانى اليها بأدوات : الطلب ، والتحضيض ، والترجى ، والاستفهام الإنكارى ، فيقول : (فلينظر — انظروا — أفلا تبصرون — لعلهم يعقلون — أفلا يتدبرون — لعلهم يتفكرون) ولايخفى على المثقفين أن النظرة التى كانت سائدة فى أوربا فى العصور الوسطى ، كانت تقول : بأن الأرض منبسطة ، وكانت الكنيسة فى مطلع عصر النهضة تحاكم كل من يقول بكرويتها .

ولقد قرر القرآن كروية الأرض التى أصبحت الآن حقيقة علمية لاريب فيها ، فقال سبحانه : « يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل »(١) ، وقرر أن السموات والأرض كانتا سديما واحدا ، ثم انفصلتا ، قال سبحانه « أولم يرالذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي »(٢).

والناحية الاجتماعية : فقد جاء بكل مقومات المجتمع المتكامل ، فوضح علاقة الفرد بأسرته ، وبمجتمعه ، وبأمته ، فعرض لقضية المرأة باعتبارها انسانا ، وباعتبارها زوجة ، وباعتبارها أما ، قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٣) ، وجعل من بعد ذلك القوامة للرجل « الرجال قوامون على النساء »(٤).

ووضع قواعد المعاملات بين أفراد المجتمع ، وأوصى باحترامها : «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود »(٥) وقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه (٦) » .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٠ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٠ .
(٣) سورة الروم ، الآية : ٢١ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ٣٣ .
(٥) سورة المائدة ، الآية : ١ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

والناحية القصصية التاريخية : ونلمس هذا فى قوله سبحانه : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك [1]» ومن هذا نفهم أن الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن وعددهم خمسة وعشرون ، ليسوا كل أنبياء الله ، وإنما هم بعض أنبياء الله .

كما نطالع ذلك فى كثير من القصص التى وردت فى القرآن ، كقصة أهل الكهف ، وقصة موسى ، وكقصة يوسف ، فان الجانب التاريخى يقفنا على كثير من الحقائق لاغنى للباحث لها .

والناحية الدينية التشريعية : ونقرأ فى هذا أروع قصص الصراع بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلال ، وأبطال هذا الصراع هم أنبياء الله ورسله وأتباعهم .

والأساس الخامس : الإيمان باليوم الآخر : وهو اليوم الذى سيبعث فيه[2] الناس من رقادهم ويحشرون إلى ربهم ، ثم توضع فيه موازين الحق[3] وليجزىء كل امرىء بما كسبت يداه ، وما اجترفت نفسه الأمارة بالسوء ، ومن بعد ذلك اما إلى جنة ، واما إلى نار ، قال سبحانه : « إن الأبرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم[4] » وقال : « ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لاتكلم نفس إلا باذنه ، فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ [5]» .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٦٤ .
(٢) قال تعالى : « وأن الله يبعث من فى القبور (سورة الحج ، الآية : ٧) .
(٣) قال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » (سورة الأنبيا ، الآية : ٤٧) .
(٤) سورة الانفطار ، الآية : ١٣ ، ١٤ .
(٥) سورة هود ، الآية : ١٠٣ — ١٠٧ .

ولامعنى للإيمان بالله ما لم يكن هناك حساب وعقاب« فاذا طلب منك شخص ما أن تفعل شيئا ، فأول سؤال يرد إلى ذهنك هو : ما الفائدة التى سوف أجنيها من وراء ذلك ؟ وأى ضرر سوف يصلك إذا لم تفعله » ومن ثم فأنت تنشط إلى العمل الذى فيه نفع لك، وتعزف عن العمل الذى فيه ضرر عليك .

ومن هنا يجب على الإنسان أن يكون على علم بمآل أمره إذا اختار معصية الله على طاعته ، أو إذا واظب على الخير ، وسلك طريق الهدى ، وإذا كان الإنسان موقناً بالحياة الأخرى ، وبقيامه بين يدى الله سبحانه يوم الحساب ، وأنه سوف يجزى على أعماله : إن خيراً فخير ، وان شرا فشر ، فانه ولاشك سوف يحدد طريقه ، والذى لايقين ولا إيمان له بالحياة الآخرة ، وتستوى فى نظره المعصية والطاعة ، ولايكاد يعنى بالتفرقة بين النتائج المختلفة ، ويظن أن الذى يطيع الله والذى يعصيه سواء وأن مصيرهما واحد بعد الممات — فهو واهم — ولاشك ، ولايستوى الطريقان أبدا « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا ، لايستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون(١)». وصدق الله حيث قال : « أفنجعل المسلمون كالمجرمين ؟ مالكم كيف تحكمون ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار(٢)» .

وكيف يرجى من مثل هذا الصنف ، ومن أصحاب هذا الفهم أن يكفوا عن اقتراف الذنوب ، ماداموا لايخافون العواقب ، وكيف يصبرون نفوسهم على طاعة الله وشدائدها ومقتضياتها ، لايمكن أن يواظب هؤلاء على طاعة الله

(١) سورة السجدة ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة ص ، الآية : ٢٧ ، ٢٨ .

وتطبيق قوانينه إلا أناس صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأقروا بالحياة الآخرة ، وآمنوا بقيامهم بين يدى الله سبحانه يوم القيامة[1].

لقد حدد الإسلام مستويات المسئولية بالنسبة للإنسان ، فهو مسئول بين يدى نفسه ، وبين يدى الله يوم القيامة ، قال تعالى : « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لوأن بينها وبينه أمداً بعيدا ، ويحذركم الله نفسه .. [2] . وقال : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »[3]، وقال : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ماعملوا حاضراً ، ولايظلم ربك أحدا[4]» .

الناس والآخـرة :

ان عقائد الناس بالنسبة ليوم البعث والنشور اتجهت ثلاثة اتجاهات : اتجاه يرى أن الحياة الدنيا لعب ولهو ، نحيا ونموت ، وما هى إلا بطون تدفع وأرض تبلع ، وما يهلكها إلا الدهر ، يقولون : « أنت أيها الإنسان حفنة من تراب ، ونطفة من أصلاب ، قذفت بك الأرحام ، وأفنتك الأيام ، وابتلعتك الآكام ، ثم لاشيء من بعد ذلك » .

وقال المحدثون منهم : أنت أثر من تفاعل العناصر المادية والتطورات الفزيولوجية ، فالشعور والوجدان والفكر والإدراك والعزم والإرادة كل أولئك من آثار المادة الصماء ، ونتائج اختلاط التراب بالماء وما الحياة إلا هذه الأيام المعدودات تقضى فيها اللبانات ، وتنتهز الفرص واللذات [5].

---

(١) مبادىء الإسلام للمودودى : ٢٧ (بتصرف) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠
(٣) سورة الزلزلة ، الآية : ٦ — ٩ .
(٤) سورة الكهف ، الآية : ٥٠ .
(٥) انظر : أحاديث الجمعة لحسن البنا : ١٨ .

وتلك عقيدة الدهريين أو الطبيعيين الماديين الذين لايرون بعثا ولانشورا ، قال سبحانه : ردا عليهم ، وتسفيها لزعمهم : « وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام ، وهي رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم(١) » . وقال : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم من مضغة، مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور(٢) » .

واتجاه ثان تزعمه طبقة من الفلاسفة ، ويقولون بالتناسخ نحيا ونموت ، ولكن لتحل أرواحنا فى أجساد أخرى لنحيا حياة ثانية ، ثم تموت ثانية لتحيا فى جسد ثالث ، وهكذا تتتابع عملية الحياة والموت مرة بعد أخرى ، ويقوم هؤلاء الفلاسفة عملية التناسخ بمقاييس عجيبة ، فيقولون إذا كانت أعمال الإنسان سيئة حلت روحه بعد موته فى جسد آخر ، ولكنه جسد حيوان مثل: الكلب أو القط ، لتكفر بذلك عن شرورها ، وإذا كانت أعماله حسنة حلت فى أجسام صالحة ، ويبدو أنهم تأثروا فى هذه الفلسفة ببعض مشاهد الطبيعة حيث أن لها دورات متعاقبة من الحياة ، فالنبات يظهر وينمو ويزدهر ثم يأفل ويذبل وينتهي ولكن ليعود سيرته مرة ثانية فى موسم آخر من مواسم

(١) سورة يس ، الآية : ٧٨ — ٨١ .
(٢) سورة الحج ، الآية : ٥ — ٨ .

الزرع والحصاد ، وإذا كان هذا شأن النبات فلماذا لايكون شأن البشر كذلك !

واتجاه ثالث تزعمه المؤمنون المقرون بيوم البعث ، المدركون بأنه لابد أن يكون للإنسانية حياة أخرى غير هذه الحياة ، وهذه الحياة الأخرى هى الحياة الحقيقية « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » تلك الحياة التى يعمل لها المؤمن مقيدا بحوافز الإيمان ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، حيث يقيم الإله موازين العدالة ، « لتجزى كل نفس بما كسبت » ولا أدل على ذلك من تصوير القرآن للآخرة ووصفه لها وربطه بينها وبين هذه الحياة الدنيا » .

حقيقة : ان فى الجنة مالاعين رأت ولا إذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر(١) ، ولكن الله يقربه للأذهان بربطه بنواميس ومقاييس الدنيا ، وإلا فهى من نوع آخر أسمى وأكمل ، والإنسان متطور على الرغبة والميل إلى ما يجد فيه نوعا من اللذة والتشويق ، والخوف والابتعاد عما يشعر بأن فيه عذابا أو ألما .

وليست هذه الفئة من الناس التى تتأثر بحوافز العواطف والشعور والخوف والرهبة ، والطمع والرغبة هى كل شىء ، كلا بل ثمة من يعمل بدافع الإجلال والاكبار لذات الإله ، فيعمل ابتغاء مرضاته ، وصدق الله حيث قال : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله (٢) » ، وقال : « وماآتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (٣) » .

ثبات العقيدة :

ان القلق والحيرة من الأمراض الاجتماعية والنفسية التى تراود بعض الناس

---

(١) رواه البخارى فى باب بدء الخلق : ٨ ، ورواه مسلم فى باب الإيمان : ٣١٢ ، والترمذى ، وابن ماجه ، وابن حنبل .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٧ .
(٣) سورة الروم ، الآية : ٣٩ .

عند ما يعزمون على أمر من الأمور ، كما أن العقيدة والثبات على المبدأ صفتان من الصفات الحميدة ، فاذا ساور الاضطراب والقلق الإنسان لظل محجما يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، كما يدفعه ذلك إلى الخور والضعف الذى يتسرب إلى جهات نفسه ، ومن ثم لايستقر الإيمان فى قلبه ، ويضل طريقه ، فان أصابه الخير فرح ، وإن أصابه الشر جزع ، ورجع إلى باطله ، فلاذ بآلهة لاتضر ولاتنفع ، بل إن ضررها أقرب من نفعها . قال سبحانه : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين »(١) .

ويؤثر لنا أن جماعة من أعراب البادية قدموا المدينة على النبى صلى الله عليه وسلم مهاجرين فكان الواحد منهم إذا صح بدنه ، ونتجت فرسه مهراً حسنا ، وولدت امرأته غلاما جميلا ، وكثرت أمواله وما شيته رضى عن دينه ودنياه ، واطمأنت نفسه ، وقال : ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيرا .

وان كان الأمر بخلاف ذلك من مرض أو فقد عزيز تشاءم بالإسلام ، وقال : ما أصبت إلا شراً ، وانقلب عن دينه ، فلاثبات لعقيدته ، ولاقرار لقلبه ، فان غنم قر ، وان هزم فر . فنزلت الآيات تندد بهؤلاء ومن على شاكلتهم .

ومن ثم أن بعض الناس يؤمنون إيمانا سطحيا زائفاً لم تتمكن العقيدة الإسلامية من نفوسهم ، ومن علامات ذلك أنهم إن نزل عليهم الخير وفيراً اطمأنت نفوسهم إلى الدين ، ان منوا بالخسائر والهزيمة فى مال أوغيره من ولد ومتاع ارتدوا عن دينهم ، ولحقهم التشاؤم ، ونفروا من الدين ، وهو بهذا الارتداد عن دينه يخسر دينه ودنياه ، وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) سورة الحج ، الآية : ١١ .

وإلى جانب هذا الصنف من الناس نجد صنفا ثانيا آمن بالله ، واعتنق مبدأه عن عقيدة لايزعزعها أى طارق ، والقرآن الكريم وأحاديث الرسول حافلة ببيان ثبات المؤمنين الصادقى الإيمان على مبادئهم لايتزحزحون عنه قيد أنملة ، فهؤلاء أصحاب الأخدود ، وهذا فرعون والسحرة ، وهؤلاء أصحاب الرسول الذين عذبوا فى عقيدتهم ، فلم يرتدوا عنها ولاتركوها : كبلال ، وحبيب وآل ياسر .

وفرق كبير بين الشاكين المترددين ، وبين الثابتين على العقيدةوالإيمان، المتحلين بالأعمال الفاضلة ، فان الله يجزى هؤلاء المؤمنين الصالحين بالجنة ، ويجزى هؤلاء الضالين المترددين بالنار ، وإن الله هو القادر فوق عباده يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء .

ومن روائع القصص التى قصها الرسول عليه السلام لأصحابه مثبتا لهم على الحق قصة (الراهب والساحر والغلام ، فعن صهيب ان رسول الله قال : « كان ملك فيمن قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر ، قال للملك : انى كبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر ، فبعث اليه غلاما يعلمه ، فكان فى طريقه — إذا سلك — راهب ، فقعد اليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فاذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك ، فقل حبسنى الساحر .

فبينما هو كذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم : الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجرا ، فقال : اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ، ومضى الناس .

فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضل منى ،

قد بلغ أمرك ما أرى ، وانك ستبتلى ، فان ابتليت فلا تبل على ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : هذا لك أجمع إن أنت شفيتنى ، فقال : انى لا أشفى أحداً ، وإنما يشفى الله ، فان أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله ، فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد بصرك ؟ قال : ربى ، قال : ألك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام .

فجىء بالغلام ، فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ؟ فقال : إنى لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب .

فجىء بالراهب ، فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه ، حتى وقع شقاه

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه ، حتى وقع شقاه .

ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فاذا بلغتم ذروته ، فان رجع عن دينه وإلا فاطرحوه .

فذهبوا به فصعدوا به الجبل : فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله .

فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور (أى زورق) فتوسطوا به البحر ، فان رجع عن دينه ، وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به ،

فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك : ماذا فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله .

فقال للملك : انك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال : ماهو؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جذع شجرة ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى ، فانك إذا فعلت ذلك قتلتنى .

فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه موضع السهم فمات. فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام .

فأتى الملك ، فقيل له : أرأيت ماكنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك : قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود فى أفواه السكك ، فخدت ، وأضرم فيها النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها ، أوقيل له اقتحم ، ففعلوا : حتى جاءت امرأة ، ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها .فقال لها الغلام : يا أمه ، اصبرى فانك على الحق (١).

اخلاص العقيدة :

وكان الدين الإسلامي خاتمة المطاف فى سلسلة الأديان السماوية التى تنادى باخلاص العقيدة لله وحده ، تلك العقيدة التى « وصى بها ابراهيم بنيه » ، ثم أكد ذلك يعقوب « إذا قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ نعبد إلهك وإله آبائك : ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ، ونحن له مسلمون(٢) » .

---

(١) رواه مسلم فى باب الزهد : ٧٣ ، وابن حنبل ، والترمذى فى تفسير البروج : ٨٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣٢ — ١٣٣.

ونسج على هذا المنوال جميع الرسل : كموسى وعيسى .. ولكن اليهودية الباغية، انزلقت بالموسوية إلى عبادة (العجل[١] (كما انزلقت الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية إلى (الإشراك بالله)[٢]، وقد دعا الإسلام هؤلاء وأولئك إلى التوحيد ، قال سبحانه : « قل ، يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة ، سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئا ، وألا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا ، فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون[٣]».

وكانت أساس هذه الدعوة أن الجميع : من الأناس والملائكة ، والجان، مأمور باخلاص العبادة لله وحده ، لافرق فى ذلك بين موسى وأتباعه ، وعيسى وحوارييه ، ومحمد وأمته ، قال سبحانه موجها نظر موسى إلى الأسلوب الذى يجب أن يعتنقه ، ويتخلق به ، يا موسى إنه : « لاإله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى[٤] » .

وقال متحدثا عن عيسى وعن الملائكة : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون[٥]» ، ويسارع عيسى فى أحد مشاهد يوم القيامة ، لينفى عن نفسه وزر ما نسب اليه أتباعه الذين ألهوه ، وألهوا أمه ظلما عدوانا ، فيقول : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم مافى نفسك ، انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى ، كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد[٦] » .

---

(١) اقرأ الآية : ٩٢ ، ٩٣ من سورة البقرة، والآية ١٤٧ من سورة الأعراف .
(٢) اقرأ من سورة المائدة ، الآية : ٧٢ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .
(٤) سورة طه ، الآية : ١٤ .
(٥) سورة النساء ، الآية : ١٧٣ .
(٦) سورة المائدة ، الآية : ١١٦ .

وقال سبحانه في مخاطبة محمد عليه السلام : « واعبد ربك ، حتى يأتيك اليقين »[1] ، وقالت الجن : « .. إنا سمعنا قرآنا عجباً ، يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا[2] » .

أبعـاد العقيـدة :

ان أسلوب القرآن في تقرير أبعاد العقيدة اسلامية ، يتسم بالوضوح والترابط ، وتبديد ماقد يسبق إلى الأذهان من وهم أو شبهات ، فيقرر عقيدة التوحيد ، وعقيدة العلم ، وعقيدة الإيجاد والتدبر.

١ ـ البعد العقائدى : وهو ذو شقين : الشق الأول هو الإدراك[3] القائم على الإقرار بوجود الله ربا ، وخالقا ومعبودا ، لأن نظر الإنسان وفكره يتجه أول ما يتجه إلى التساؤل : من خلق هذا الكون العجيب ، بهذا النظام الدقيق البديع ، وهذه الحركة الدائبة ، وذلك التقدير الفريد ، على تلك الكيفية المحكمة ، كيفية الألوان والأشكال ، والدوران والسكون ، والإنبات والتوالد ، والإضاءة والظلام .. ، وهكذا : « وكل شيء عنده بمقدار[4] » .

فأنت إذا رأيت قصراً منيفاً ، يشهد بناؤه بروعة التنسيق ، وجمال البناء ، أيقنت أن ذلك من عمل مهندس ماهر ، قد تولاه بالعناية وأشرف على بنائه ، واتقان صنعته ، حتى بدا في تلك الصورة الرائعة والهندسة العالية .

وأنت إذا قلبت النظر في النباتات والأزهار أبصرت عجباً ، وتساءلت

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩٩ .
(٢) سورة الجن ، الآية : ٢٢١ .
(٣) انظر : العقائد النسفية : ٢٣ ، والفصل لابن حزم : ١-٤ ، وتفسير الآلوسى : ١١٧-٨ .
(٤) سورة الرعد ، الآية : ٨ .

من منحها هذا الاتقان وهذا الإبداع ، وهذه الألوان الزاهية ، والروائح العطرة .

وتلك النحلة ، انظر كيف تعيش فى مملكة منسقة تمتاز بالدقة والإبداع ، فهى تبنى وتحكم بناءها على هيئات سداسية دقيقة ، فمن ألهمها هذا الصنع البديع ، وعلمها ذلك الاتقان الرائع ؟

ان العقل البشرى سرعان ما يدرك بفطرته أن هذا الكون محتاج إلى موجد ومنشىء ، وأن قدرة خارقة لاتماثلها قدرة أخرى ، هى التى أبرزته على هذه الصورة الفريدة التى لاعيب فيها ولانقص ، وأن هذا الخالق متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، قائم بذاته غير محتاج إلى سواه ، وأن غيره محتاج اليه ، ومفتقر له ، ومغلوب على أمره ، لايستطيع أن يأتى بعمل من تلقاء نفسه ، ولاقبل له بالخروج على ناموس هذا الكون ، وقانون هذا الوجود الجارى عليه من فوقه « يا معشر الجن والانس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فانفذوا ، لاتنفذون إلا بسلطان[1] » .

وإذا تناولت علما من العلوم التى تبحث فى حقائق هذا الكون ،كالطبيعيات والرياضيات ، والكيمياء ، والهيئة ، والفلك ، والحيوانات ، والإنسانيات ، وسبرت غور التحقيق العلمى فى ميدانه ، ازددت ايمانا وتصديقا بأن لاخالق لهذا الكون إلا الله ، وانكشفت لك عند كل خطوة من خطواتك فى ميدان البحث العلمى ، ألا معنى لشىء فى هذا الكون إذا تجرأت وأنكرت هذه الحقيقة الناصعة[2] ».

وإذا كنا نسأل مرة بعد أخرى ، فان القرآن الكريم قد سبقنا إلى التساؤل ، وكفانا عناء الإجابة بذلك نكون معاندين مكابرين ، نرى آثاره ، وننكر

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٣٣ .
(٢) مبادىء الإسلام للمودودى : ٩١ .

وجوده ، وهذا غاية الحمق وفساد الرأى ، ولوأنكرنا وجوده لحرمنا خيراً كثيراً ، فقد ثبت لك أن قدرته أعظم من كل قدرة ، وأن أعماله أكمل الأعمال . قال سبحانه : « قل لمن الأرض ، ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون الله ، قل فأنى تسحرون [1] » .

هذا الإقرار اليقيني الذى نعبر عنه بكلمة (الإيمان) هو الحافز للإنسان على الطاعة لأوامر الله ، والخضوع لأحكامه ونواهيه ، فاذا لم يكن ثمة إحساس قلبى ، وإدراك يقينى فكيف يتيسر لمخلوق أن يطرق عوالم المعرفة ، أو يتذوق حلاوة الإيمان ، أو يعتصم بحبل الله ويسلك سبيله ؟

إذا تمكن هذا اليقين من القلب ، وخالطت أشعته شغاف الفؤاد ، واطمأنت اليه النفس ، فانها تنبذ الوساوس وتطرد الشكوك ، فلا تكون للأوهام والخرافات اليها منفذا ، وتسير على طريق الهدى فى فكرها ، وسلوكها ، فى قولها وعملها « فطرة الله التى فطر الناس عليها [2] » .

الشق الثانى : هو الإدراك القائم على الإقرار بوحدانية الله ، فهوسبحانه : واحد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأنه ليس ثمة إله إلا هو « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم [3] » .

نعم ، إذا استقر فى نفوسنا أن لهذا الكون خالقا ، فلابد أن يدرك العقل أن وجود مثل هذا الخالق يقتضى الوحدانية ، لأن التعداد أو وجود

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٨٤ – ٨٩ .(هناك قراءة : سيقولون الله ، وفى القراءة التى معنا بلام الجر فى جميع المواطن نظراً إلى أن المعنى : من له ما ذكر ؟

(٢) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٦٣ .

الشريك يدعو إلى الاستغنـــاء بوجود أحدهما عن شريكه ، فلم يعد وجوده — الذى اقتضاه العقل — لازما ، والتعدد فى الآلهة ، سواء فى استقلالها ، أوفى توزع الصفات بينهما — كأن يكون هذا عالماً ، وهذا سميعا ، وهذا بصيرا ، وهذا رازقا .. يقتضى فساد الكون ، لأن هذا يريد ، وذلك لا يريد ، وهذا التضارب وعدم التعاون فيما بينهم يؤدى إلى الدمار والهلاك وفساد الحياة بالمنازعات والخرافات ، وصدق الله حيث قال : « لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(١) » .

وإذاً وجب أن تكون هناك ذات واحدة بعينها مستوفية لصفات الألوهية ، هذه الذات هى « الإلة الواحد » المتفرد ولاشك بالربوبية ، فالله لايشبهه شىء فى الوجود ، بل هو منزه عن الشبيه والمثيل ، فليس ثمة شريك ، ولاولد « ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون (٢) » .

٢ — البعد العلمى : فهو سبحانه عليم ، سميع ، بصير ، قد تفرد بالإحاطة التامة — التى لايأتيها الباطل من بين يديها ولامن خلفها — بشئون خلقه ، ما ظهر منها وما بطن ، سبحانه « عالم الغيب والشهادة ، فتعالى الله عما يشركون (٣) » ، « وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر »(٤) ، وهذا العلم بلغ الغاية والدقة المتناهية وقد صوره سبحانه فى قوله : « وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا ، إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولافى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا فى كتاب

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٩١ .
(٣) سورة المؤمنو، الآية : ٩٢ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩ .

مبين[1]» ، وفى قوله : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق ، والذين يدعون من دونه لايضون بشىء ، إن الله هو السميع البصير [2] » .

وإذا أيقن الإنسان أن الله مطلع على سرائره سميع بصير بها ، فانه سوف يمسك نفسه عن معصيته ، ويقف عند حدود الله ، فلايخرج عليها ولايتعداها .

٣ ــ البعد التدبيرى : فهو سبحانه قد « أعطى كل شىء خلقه ، ثم هدى » ، فقد خلق وأعطى ودبر الأمر « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ، وصدق حيث قال : « الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل[3] » هذا الإدراك بأن الله هو الخالق المدبر سوف يردع الإنسان عن طأطأة رأسه ، وإذلال نفسه ، ومد يده لغير الله ، وصدق الرسول حيث قال : « اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس ، فان الأمور تجرى بالمقادير » تجرى وفقاً لما دبرالله ، وقدره ، « ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشىء ، فلن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، ولواجتمعت... على أن ينفعوك بشىء ، لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ..[4] » .

ان معرفة الإنسان بأن الله قد خلق ودبر الأمر يجعله يسلك الطريق القويم فى الحياة ، فما أمر به الله أتبعه ، وما نهى عنه اجتنبه ، من أجل ذلك أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، موضحين طريق والحق والخير ، وطريق الباطل والشر ، معرفين بالحلال ومعرفين بالحرام : ومرغبين فى الأول ، ومحذرين من الثانى .

---

(١) سورة يونس الآية : ٦١ .
(٢) سورة غافر ، الآية : ٢٠ .
(٣) سورة الزمر الآية : ٦٢ .
(٤) رواه الترمذى ، باب القيامة : ٥٩ ، وابن حنبل : ٢٩٣ .

٥ ــ البعد المآلى : أو بمعنى أدق (عقيدة الجزاء) فاذا علم الإنسان أن مآله إلى الله، وأنه سوف يحاسب على كل ماقدمت يداه، ان خيراً فخير، وان شراً فشر، فان ذلك سوف يدفعه إلى الإيمان بالحياة الآخرة ، وأن ثمة حسابا وعقابا، وقياما بين يدى الرب سبحانه ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثا [1] » .

درجات المؤمنين :

١ ــ فئة عرفت الله فى نفسها وفى الكون فأيقنت بالله ربا وآمنت به خالقاً معبودا ، وأسلمت له نفسها وجوارحها وأعمالها ، وانقادت اليه طائعة تبتغى رحمته وتخشى عذابه ، تأمر بالمعروف وتعمله ، وتنهى عن المنكر وتتجنبه ، وهؤلاء هم المؤمنون حقا .

٢ ــ وفئة آمنت بالله وعرفته حق معرفته ، وآمنت به خالقا ومعبودا ، ولكن ايمانها لم يخالط منها شغاف القلب، ويجرى منها مجرى الدم، فانحرفت قليلا أوكثيراً عن ابتغاء رحمته واتباع أوامره ففسقت بذلك عن أمر ربها ، ومثل هذه الطائفة لم تبلغ فى ايمانها ، ووازع يقينها مرتبة الفئة السابقة ، ولكنهم مسلمون على أية حال ، وسوف يعاقبون على معصيتهم ، فاذا تطهروا منها فان الله غفور رحيم ، يقبل التوبة من عباده ، ويغفر الذنب ، ويفتح أبواب رحمته لطلابها .

٣ ــ وفئة آمنت ظاهراً ، وفسقت باطنا ، أى أنها نافقت تعطيك من طرف اللسان والمظهر حلاوة ، اذا جد الجد فهى خارجة عن أمر ربها ، مثبطة لأعمال المؤمنين المتقين تتربص الدوائر بهم .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٨٧ .

٤ ـ وفئة غير مؤمنة ، وقد أعرضت عن الحقائق والنذر ، وطمس الله على قلوبهم وسمعهم وبصرهم أولئك كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا.

العقيدة والتقليد :

إن عمق العقيدة فى صدور الناس ، وأخذهم بها فى حياتهم ، واعتصامهم بها فى مواقفهم تختلف من شخص إلى آخر ، أشبه ما تكون بدرجة الحرارة اليومية إذا كانت الشمس على وشك الإشراق والبزوغ كان الجو سجسجاً لطيفاً ، والحرارة ضعيفة تشوبها البرودة ، لأن عامل الإشعاع والحرارة غير متوافر.

فاذا طلعت الشمس ارتفعت درجة الحرارة هوناً ما ، وأشاعت فى الوجود الدفء والنور ، فاذا كان وقت الضحى ارتفعت نسبة الحرارة عن ذى قبل ، فاذا كان وقت الظهيرة ، بلغت الحرارة مبلغا عظيما ، لأن مصدر الحرارة ، أو عامل الإشعاع قد توافر بقوة ، وملأ جوانب الحياة.

وكذلك العقيدة تختلف قوة وضعفا من شخص إلى آخر ، بحسب مدى قربه أو بعده من الله وتعلقه بالمعرفة والعلم ، ووضوح الأدلة فى نفسه، بحيث لايبقى ثمة شك أو شبهة فى تفكيره ، من هنا يصل إلى اليقين والإيمان .

يولد الإنسان على الفطرة ، ثم يتلقى العقيدة عن طريق العادة والتقاليد، أو عن طريق التلقين ، ومثل هذا المقلد أو المبتدىء لايؤمن عليه الشك والحيرة ، إذا عرضت عليه شبهة أو خفى عليه الاهتداء بنفسه إلى حقيقة قضية من قضايا الدين.

فاذا تيسر للشخص نوع من الثقافة الدينية والنظر والفكر ، ازداد إيمانه ، وقوى يقينه ، فاذا أدام النظر وتعمق الفكر ، وأحسن العبادة ، وأخذ

بأسبابها ، واعتمد الأدلة العلمية ، أشرقت بصيرته ، وأضاء عقله ، وكمل إيمانه « والذين اهتدوا زادهم هدى ، وآتاهم تقواهم[1] » .

وما أجدر الشباب المسلم الذى يتلقى العقيدة عن طريق التقليد والمحاكاة لأنه وجد فى بيت مسلم ، ثم أطلقوا عليه فى ورقة ميلاده أنه (مسلم) — ما أجدر هذا الصنف أن يخلع نفسه من ربقة التقليد ، وأن يعتمد الفهم والسؤال والعلم الذى يصل به إلى مدارج الحقيقة ، وأن يتساءل عن حقيقة نفسه ، هذا السؤال (من أنا ؟) وأن يتساءل عن حقيقة وجوده (لماذا وجد ؟ وما رسالته فى الحياة ؟) وأن يتساءل عن مصيره (إلى أين ؟) .

وهنا نعرض لنقطة مهمة قد تتشعب فى الأذهان ، وهى : أن الإيمان يزيد وينقص من حيث (الشخص الذى اعتنقه) ، وعمل به ، ومدى عمق هذا الاعتناق للإيمان أو الابتعاد عنه ، ولم يتحققه ، وهذا ينطق على كل حقيقة من الحقائق أيا كان لونها ؛ (رياضية — علمية — أدبية — فلسفية — دينية) تزيد بالمعرفة ، وتنقص بالجهل .

ولكن الإيمان فى حقيقته ثابت لايزيد ولاينقص ، فلايستطيع العقل البشرى أن يضيف إلى حقيقته شيئاً أو أن ينقص من جوهره شيئا ، ولكن يستطيع أن يجلو عنه الصدأ ، وأن يكشف عنه الغطاء ، والضباب الذى يلفه ، وأن يصحح فهمه ، وأن يحسن عرضه ، وهذا هو ما نفتقده فى أوساطنا الإسلامية اليوم .

الصراع الفكرى :

ان الصراع الفكرى على أشده بين المبادىء والنظريات ، وبين الحقائق ، والبقاء للأصلح والأنفع .

---

(١) سورة محمد ، الآية : ١٧ .

حقيقة قد تكون لنا عيون ، ولكن لانبصر بها ، ولنا آذان ، ولكن لانسمع بها ، ولنا عقول ولكن لانفقه بها ، لأننا عطلناها عن العمل وعن التفكير ، فغدونا كما يقول الله سبحانه : « أولئك كالأنعام ، بل هم أضل[1]»

نعم ، ان كل جهل قد يغتفر ، إلا أن يجهل الإنسان حقيقة نفسه ، وسر وجوده ، ولماذا يعيش خاملا ؟ يأكل ويتمتع كالأنعام : فتلك جريمة ما بعدها جريمة، ولقد وجه الله النظر اليها فقال : «وفى أنفسكم أفلاتبصرون[2]» وقال الشاعر :

قد رشحوك لأمر ، لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فاذا أحسسنا مسئولين ومتعلمين بالمسئولية الكبرى أمام الله ، وأمام ضمائرنا ، فلاشك أننا سوف ننطلق من هذه الأغلال التى تشل تفكيرنا ، وهذه الشهوات التى تقيدنا ، ونعمل على تبيان خصائص (القصور الإسلامى) الصحيح لكل المجالات .

والتصور الإسلامى يبدأ من العقيدة ، فاذا صلحت انطلق الإنسان إلى بقية المتطلبات ، لاليأتى من عند نفسه بجديد ، ولكن ليصحح ما زيفته الأهواء والشهوات ، وطمست معالمه عوارض من الظلمات ، فنحسن الأسلوب فى : الطريقة ، والعرض ، والتعبير ، حتى نستطيع أن نقف أمام التحديات العقائدية الشرسة ، والتحديات العلمية الخطيرة .

بذلك نستطيع أن نخلص من موجة المادية الجارفة ، وموجة الإلحاد الحادة التى تؤله الغرائز ، أو تحط من أنماط السلوك الاجتماعى ، أو التعايش السلمى ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

أو ضرب من الطبقات ، فتلك هى وثنيات القرن العشرين ، وهى أشد ضراوة من وثنية الأصنام والأحجار.

الزحف الحضارى :

ان الزحف الحضارى فى صولته المادية العارمة ، قد لوى عنق الإنسان عن الله ، وعن رسالته الحقيقية فى الحياة ، نعم ، لقد علم الله الإنسان ما لم يعلم ، فاكتشف كثيراً من سنن الكون والطبيعة وأسرارها ، ولكن هذا الاكتشاف أدى به إلى تأليه نفسه ، وقد بلغ فى ذلك مبلغا يخشى منه على المعمورة ، وصدق الله حيث قال : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس[1] » .

لقد وصل التقدم الحضارى إلى درجة كبيرة فى سبيل الترفيه عن الإنسان ، وتخفيف ويلات الحياة ومشقاتها ، ولكن ذلك لم يزده إلا عتوا ونفورا ، ومن قبل قال فرعون : « أنا ربكم الأعلى » فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وقال قارون : « إنما أوتيته على علم عندى » فخسف الله به وبداره الأرض .

ومن ثم لا يزال الصراع دائرا بين التحكم فى مصائر الناس وبين السيادة والسلطان ، أما الطمأنينة النفسية والروحية ، أما الاعتراف بفضل هذا الخالق العظيم ، فقليلا ما يحدث . وصدق الله حيث قال : « ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

لقد استغنت الحضارة فى جميع المظاهر المادية ، ولكنها لم تستطع أن ترقى بطبيعة الإنسان : من غرائزه السفلية ، ومن شهواته الدنيوية ، إلى مجاله الإنسانى ، ليطهر ما بداخله ونقرأ خواطره الشريفة ، ونزعاته السامية ،

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٢٤ .

فما أحوج الإنسان إلى انسانية الإنسان ، ما أحوجه إلى الكلمة الصادقة التى تنبع من عالم الأديان ومبادئها النظيفة المطهرة ، إلى هذه المملكة الحقيقية النابعة من الذات ، لأنها من ذات الله .

أين الأمن ، أين الطمأنينة ، أين السيادة الحقيقية ، أين الضمير الإنسانى ، أين روح التعاون بين البشرية ؟ لم تستطع المذاهب العقائدية المصطنعة المؤلهة للبشر أن تصل إلى شيء من ذلك ، أو تعالج شيئا من ذلك ، فلا الماركسية العرجاء ، ولا اللينينية البتراء ، ولا الوجودية الشوهاء ، ولا الديمقراطية مستطيعة أن تخفف شيئا من ذلك .

إذن فلنفسح المجال للإسلامية ، للدين المحمدى ليسهم فى حل الأزمات ، وتخفيف القلق الإنسانى ، وليربط الإنسان بالله ، وبأخيه الإنسان ، واشعاره بموقعه ورسالته ، بدلا من أن يصطنع من نفسه إلهاً تحكمه الشهوات ، وتدفعه إلى إزهاق الأرواح ، ويغدو أسير غرائزه .

المواقف البشرية :

ان الركيزة الأساسية التى يسير الإنسان على هدى منها فى حياته ، هى هى تلك النظرة العامة التى يخلعها على العوالم والأشياء المحيطة به كبرت أو صغرت ، وبمعنى أدق أن يحدد موقفه منها ، سواء قصد إلى ذلك عن وعى وتفكير ، أم جاءته عفوا عن طريق العادة والتقليد والسلوك اليومى.

ولما كان الله سبحانه قد أعد الإنسان ليكون خليفته فى الأرض : بالحق ، والعدل ، وقوة السلطان ، فقد زوده بالسمع والبصر والعقل ، وهداه النجدين ، وفتح أمامه مجالات العمل والفكر ، ثم اقتضت حكمته ألا يترك هذا الإنسان لنفسه ، بل لا بد أن يرسل اليه الرسل لتوجيهه إلى مصلحته فى الدنيا والآخرة ، حتى لاتتعبده شهواته وغرائزه التى ركبت فى طبعه ، وحتى لاتسيطر عليه الخرافات والتقاليد المعوجة ، فيقدس مالا يستحق التقديس ، ويعبد مالا

يستأهل العبادة ، ويغتصب حقوق الآخرين ، ويعتدى القوى على الضعيف ، وليوضحوا له أن بين يديه طريقين لاثالث لهما :

« طرية ممهدة ظليلة » ، مشرقة جميلة ، يحف بها الروح والريحان ، ويحيط بها الجمال من كل مكان ، أولها : اليقين والإيمان ، ومراحلها العمل وطاعة الرحمن ، ونهايتها : الجنة والرضوان ، فى مقعد صدق عند مليك منان .

و « طريق مقفرة موحشة » ، مظلمة مهلكة ، أولها : الفسوق والنكران ، ومراحلها الإثم والعصيان ، ونهايتها : الجحيم والنيران ، مع الذين غضب الله عليهم وأعد لهم سعيرا (١) .

العقل والتكييف النظرى :

إن الإسلام لايقبل التحجر والتعفن ، ولايقبل الانقياد الأعمى ، حتى يجرد الإنسان نفسه من أهم خاصة زوده الله بها ، وهى نعمة العقل ، حتى أنه سبحانه جعله أساس التكليف : « أفلا ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج (٢) » .

والإسلام لم يحجر على الأفكار ، بل دعاها مثنى وثلاث ورباع (٣) إلى النظر ، وذم المعرضين ( ) وطالب العقول الإنسانية أن تستزيد من المعرفة

---

(١) أحاديث الجمعة لحسن البنا : ٥٢ (ط — الدار السعودية للنشر بجدة ١٩٧٢ م).
(٢) سورة ق ، الآية ١١ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ ، وسورة يونس ، الآية ١٠١ .
(٤) سورة يوسف ، الآية : ١٠٥ .

والعلم ، فهو يربأ بالإنسان أن يتقاعس ، وأن يخلد إلى الأرض، وأن يرضى بالقليل ، بل خاطبه بفعل الأمر: « وقل ربي زدني علما[1]» .

استمع إلى (هنرى لنك — H.Lenk)،وهو يعرض لنظرية (التصور الاجتماعى) الذى على أساسها يتكيف الإنسان مع الواقع ويتجاوب معه ، ولايبقى عضواً شاذاً تغلب عليه صفات الرومانسيين الذين يفرون من الواقع ، ويخلدون إلى الطبيعة ، لعدم قدرتهم على الانسجام معه ، والتكيف بمقاييسه ، حتى أصابهم نوع من من الشذوذ نعتوه (بمرض العصر[2]) ، يقول : « الناس لايولدون فى هذه الدنيا بمحض اختيارهم ، أولسبب يعرفونه ويقدرونه . فاذا جاءوا فهم يعيشون بمزيج من الغرائز والمسببات غير المعقولة أو الثابتة ، وهم يعلمون أنهم سيموتون يوما ، لكن دون أن يعى منطقهم المحدود سبب هذا الموت[3] .

ذلك أن العقل يعجز عن ايجاد حل لهذه المشكلات ، بالإضافة إلى أنه لم يخلق لهذا الضرب من التفكير ، والفكر فى حد ذاته ليس غاية، بل هو أداة يستخدمها الإنسان ليكيف نفسه مع قيم الحياة وأغراضها ، وليتجاوب مع كثير من القضايا التى لايمكن إدراك كنهها .

وكما أن الأسنان خلقت لتؤدى وظيفة المضغ ، لا أن تمضغ نفسها ، كذلك العقل ، وهبنا الله إياه ، كى نفكر به فى أشياء أخرى ، لالنفكر به فى استكناه أمر العقل ، وحقيقة كنهه والعقل آلة ربانية نعيش بها لامن أجلها ، ولكنها تضع حداً فاصلا بين الإنسان والحيوان .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١٤ .

(٢) انظر : الأدب ومذاهبه لمحمد مندور : ٦٢ (ط – دار نهضة مصر) .

(٣) انظر مقالا للأستاذ حسن البنا بعنوان (حقيقة الإنسان) فى أحاديث الجمعة : ١٦ . وقارن بالآراء والمعتقدات : ١٤٠ ، وسر تطور الأمم : ١٦٥ ، وروح الاجتماع : ٧٦ لجوستاف لوبون .

لقد سوى الله الذات البشرية ، وجعل لها قطبان : الفردية ، والجماعية[1].
ومن ثم عندما اتجه القرآن الكريم فى خطابه إلى البشرية اتجه اليها باعتبارين : الاعتبار الأول قصد فيه إلى (الجماعة) . لأن لها الاعتبار الأول فى الرعاية والمسئولية ، من حيث التشريع ، ومن حيث ارتباطها بالمجتمع ، فناداها بوصف الإنسانية تارة ، فقال : « يا أيها الناس » ، وبوصف الآدمية تارة أخرى ، فقال : « يا بنى آدم » ، وبوصف الإيمان تارة ثالثة ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا » . وخاطبها باطلاق تارة رابعة ، حيث قال : « افعلوا الخير » ..

والاعتبار الثانى اتجه فيه إلى (الإنسان) بوجه عام ، وذلك لتكميله ، وتعديل أوده . على أساس فلسفة حية متماسكة لم تغادر صغيرة . ولاكبيرة ، لأن واضعها هو الحكيم العليم . بذلك القلم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه . وكل منا جىء به ليؤدى رسالته فى الحياة ، تلك الرسالة التى نيطت به منذ الأزل : إن سعيدا أو شقيا ، موفقا أوفاشلا.

وهذا الخطاب اتجه فيه القرآن منذ أول سورة[2] نزلت إلى الإنسان باعتباره انساناً لا إلى قبيلة ، ولاإلى قوم ، فقال سبحانه : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك[3] » .

وكل هذه الصور دارت حول أمر أساسى يقوم على مطالبة الإنسان فى صورته الفردية والجماعية بتحديد (موقف) لنفسه ، يلوب من حوله ، ويسعى لتحقيقه ، وهذا الموقف أساسه العقيدة . وأساسه التصور الواعى لفكرة (الإسلامية) عقيدة وسلوكا . بحيث يؤدى المسلم رسالته المنوطة

(١) انظر : بحثا لنا بعنوان (التربية الإسلامية) بمجلة صوت المربى الليبية ، فى سبتمبر ١٩٥٤ م ص ١١ .
(٢) هى سورة العلق .
(٣) سورة الانفطار ، الآية : ٦ .

به ، باعتباره شهيدا على الناس[1]. موضحا موقع (العقيدة الإسلامية) بين العقائد السماوية الأخرى ، والمذاهب الوضعية المصطنعة التى أخذت تصارع الإسلام وغيره .

ونلاحظ أن الخطاب القرآنى حين دعا الإنسان إلى الإيمان فقد انطلق به من(الكون) الذى يعيش فيه باعتباره مستعمراً له ، وخليفة لله فيه ، وانطلق به من(ذاته وانسانيته) باعتباره مخلوقاً فذاً زوده الله بالسمع والبصر والفؤاد والذوق . نعم . لقد انطلق به الله من نفسه إلى عالم السموات والأرض وخالقهما ، ليعود به إلى حقيقة جوهره مرة ثانية ، وصدق الله حيث قال : « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون[2]» ، وحيث قال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق[3]»

ازدواج الطبيعة البشرية :

إن الله سبحانه خلق الإنسان من سلالة من طين ، ثم « نفخ فيه من روحه » ، فهو من حيث (الطين) يشارك النبات فى تبادل الغذاء « والله أنبتكم من الأرض نباتا[4]» ، ويشارك الحيوان فى الغرائز والشهوات» وما من دابة فى الأرض . ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم[5]» ، ثم هو من بعد ذلك قد خلقه الله « فى أحسن تقويم » . ومن حق هذا الطين على صاحبه أن يأكل ويشرب ويلبس وينعم .. « وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض

---

(١) اقرأ قوله سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » سورة البقرة ، الآية : ١٤٣ ، واقرأ قوله : « وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس » سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢٠ ، ٢١ .
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .
(٤) سورة نوح ، الآية : ١٧ .
(٥) سورة الأنعام ، الآية : ٣٨ .

جميعها[١] » . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ..»(٢) .

ومن حيث (الروح) أناط به رسالة . جعلها فى عنقه . وعليه أداؤها . وصدق حيث قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (٣)» ، وقال : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٤) » .

هنا يجىء موقع الإنسان فى هذه الأرض ، وتجىء رسالته . وصدق رسول الله حيث قال : « ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » . وفى الحديث القدسى : « عبادى ، انى ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ، ولالأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ، ولا لجلب منفعة ، ولالدفع مضرة ، وإنما خلقتكم لتعبدونى طويلا ، وتذكرونى كثيراً ، وتسبحونى بكرة وأصيلا» .

إذا كان الله سبحانه قد سخر مافى الأرض جميعا من نبات وحيوان وماء للإنسان ، فانسان لمن ؟ الجواب : أن الإنسان لله ، ومن واجبه عليه أن يقوم بحق هذا الإله ، فيعبده ويشكره على نعمائه ، فاذا انحرف الإنسان عن هذا الهدف فقد ضل سواء السبيل . والعقل إذا ترك وشأنه فانه يعترف بقانون السببية ، أى لايوجد ثمة فعل بغير فاعل ، ولاصنعة من غير صانع . وقد وضح ذلك فى قولة هذا الأعرابى ، وقد سئل : أتعلم خالقا لهذا الكون ؟ قال : ياسبحان الله ، البعرة تدل على البعير ، والقدم يدل على

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ١٣ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .
(٣) سورة الذاريات الآية : ٥٦ .
(٤) سورة النحل ، الآية : ٧٨ .

المسير : أفأرض ذات فجاج : وسماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على اللطيف الخبير؟

والفطرة السليمة تهدى إلى الله ، كهذا الفيلسوف الفرنسى ديكارت يقرر ذلك فى كتابة مقالة الطريقة : إنى مع شعورى بنقص فى ذاتى ، أحس فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة : وأرانى مضطرا إلى الاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته فى ذاتى ، تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع الصفات الكاملة ، وهى الله » .

طبيعة الإيمان :

هل العقيدة أو بمعنى أدق الإقرار القلبى ، الذى يعنى (الإيمان) هل هو كائن فى مجرد الامتثال والطاعة القائمة على معرفة وتوحيد هذا الإله العظيم ، والايقان بوجوده ، وما يلحق ذلك من المعرفة التامة بالنبوات والروحانيات والغيبيات . فالإنسان إذا أراد أن يسلك طريقا من الطرق فى حياته العلمية ، أو العملية ، فانه يدرس مسبقاً الغاية والنتائج التى سينتهى بها هذا الطريق أو تلك البيا ، وهى معرفة لابد أن تكون بالغة اليقين والاطمئنان ، وكذلك الحال فى حياته الدينية .

ومن بعد هذا الإيمان والإقرار تأتى النتائج ، ونتائج الإيمان : الخضوع والطاعة ، والاتباع لقوانين الله « والإنسان لايمكن أن يكون مسلما إلا إذا كان مؤمناً ، فصلة الإيمان بالإسلام كصلة البذرة بالشجرة ، فانه لاتنبت الشجرة إلا بالبذرة ، وان كان من الممكن أن يلقى البذر فى الأرض فلاتنبت الشجرة ، أوتنبت ولكن يصيبها شىء من النقص ، إما لفساد فى التربة ، وإما لفساد فى الجو المحيط بها(١) »

(١) مبادىء الاسلام لأبى الأعلى المودودى : ٢٩٪ .

فكذلك لايمكن أن يكون الإنسان مسلما اسلاما صحيحاً إذا لم يستقر الإيمان فى قلبه ، ويخالط روحه وشغاف نفسه ، نعم ، من الممكن أن يوجد الإيمان فى القلب ، ثم لايكون الإسلام كاملا لأن الجوارح لاتصدقه ، ولاتنبىء بمظاهره ، لضعف فى العزيمة والنية ، ونقص فى المعرفة والعلم ، وفساد فى البيئة والبيت ، وصدق الرسول حيث قال : « الإيمان ماوقر فى القلب وصدقته الجوارح » .

ان مجال الطاعة ، والاتباع لحدود الله أوسع وأعمق من مجرد : الصلاة ، والزكاة ، والحج وماأروع ما أجاب عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال : الطاعة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء والذكر وقراءة القرآن .

وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة اليه ، واخلاص الدين له . والصبر لحكمه . والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه .. كل ذلك من صميم الطاعة ، والعبادة (١) .

وليس ثمة ألذ وأحلى من الإيمان والإقرار المتضمن عبودية لله ، ومحبته واخلاص الدين له ، وذلك يقتضى انجذاب القلب اليه ، فيصير القلب منيبا إلى الله خائفاً منه(٢) ، وصدق الله حيث قال : « من خشى الرحمن بالغيب ، وجاء بقلب منيب .(٣) » إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه ، أوعدم حصوله

---

(١) العبودية : ٣٨ (ط - المكتب الإسلامى ، بيروت ١٩٦٤ م) .
(٢) المصدر السابق : ١٤٠ (بتصرف) .
(٣) سورة ق ، الآية : ٣٣ .

على مرغوبه ، فهو واقع بين الخوف والرجاء . قال سبحانه : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، أيهم أقرب . ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه[1] » .

الغاية من حياتنا :

ما أجمل هذا الفهم الذى وعاه هذا المستشرق المسلم الدانماركى الأصل محمد أسد فى قوله : « يختلف إدراك العبادة فى الإسلام عما هو فى كل دين آخر . ان العبادة فى الإسلام ليست محصورة فى أعمال من الخشوع الخالص ، كالصلاة والصيام مثلا ، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية[2] » ، والمراد هنا التوجه بكل عمل من الأعمال كبر أو صغر إلى الله . فالمأكل والمشرب والملبس فى متناول يد الإنسان . ولكن المهم الوجهة والموقف الذى سيقفه الإنسان منهما ، ومدى تصوره لها وهو يمارسها ؛ ويقوم بأدائها ، هل سيقوم بها كالحيوانات لإشباع الغرائز ، وتربية العضلات ، والمتعة ، أم سيأخذها باسم الله ، ويستعملها باسم الله . ذاكرا أن هذا الإله العظيم ، هو الذى أنبت وخلق وقدر ورزق . فهو يبدأ باسمه ؛ ويختم بحمده وشكره ، بهذا التصور ، وبهذا المسلك سينتقل من مجال الحيوانية إلى مجال الإنسانية ، وحين يجعلها باسم الله . فهى ليست مجرد كلمة تقال ، وطقوس ترتل على طريقة المسيحيين ، وإنما هى حقائق ونعم وآلاء ؛ تجعل الارتباط كاملا فى حياة الإنسان بين نشاط الجسم وتلبية رغباته ؛ وبين نشاط الروح وتلبية حقها فالانسان يكدح لينال رزقه من حلال ، وكسبه من عرق جبينه ، وطعامه من مصدر مشروع : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا[3] » .

فاذا امتدت يده إلى هذا الطعام أو الشراب ، امتدت وهى ذاكرة لاسم الله ، حامدة لأنعمه « فكل عمل لا يبدأ فيه باسم الله ، فهو أبتر وأقطع » .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٥٧ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق : ٢١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٦٨ .

ثم ليذكر اسم الله فى أثناء ذبح الحيوان ، أو بذر البذور أو صيد الطائر ، « ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . وانه لفسق(١)» .

فاذا أكل أكل بقدر ، حتى لايصاب بالتخمة والمرض . وحتى يستشعر حاجة الفقراء والمحتاجين « وكلوا واشربوا لا تسرفوا ..(٢)» . وصدق رسول الله حيث قال : نحن قوم لانأكل حتى نجوع . وإذا أكلنا لانشبع.. » .

وإذا أكل جعل نصب عينيه حق البائس والفقير ، حق المعوز والمحتاج ، فلاتدفعه الأثرة وحب الذات إلى نسيان الغير ، ممن فرض الله لهم حقا فى عنقه : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير(٣) » .

فاذا يسر الله للإنسان الرزق ، ومد له فى النعمة ، فلايبخل على نفسه وعلى أهله ، ولايقتر عليهم ، وأن يظهر بالمظهر اللائق بنعمة الله عليه ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة(٤)» ، وقال : « وأما بنعمة ربك فحدث(٥)» .

ومن جانب آخر لايبخل ولايجعل همه الشاغل وهدفه فى الحياة ، لأن المأكل والمشرب والملبس ليس غاية فى ذاته وإنما هذه الأمور وغيرها وسيلة لأهداف أساسية : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان ولابد ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه(٦) » .

بل أكثر من ذلك فان الإيمان يصبغ حياة المؤمن كلها وأعماله بالصبغة

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٣١ .
(٣) سورة الحج ، الآية : ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٣١ .
(٥) سورة الضحى ، الآية : ١١ .
(٦) رواه ابن حنبل ، والترمذى ، وابن ماجه .

الربانية ، ويجعله مشدوداً إلى الله برباط وثيق ، حتى فى الأمور الجنسية التى هى مظنة الشبهات والحرج ، فمن أول واجبات المسلم ، إذا أراد أن يفضى إلى الجنس الآخر ، فقد فتح الله أمامه الباب ، وذلك عن الطريق المشروع ، الحلال ، المباح ، لاعن طريق الفاحشة والاثم ، والفسوق والعصيان : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات .. ، إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين . ولامتخذى أخدان ..(١) » .

فاذا تم العقد ، ووقع الزواج ، فقد أصبحت الزوجة حلا بكلمة الله ، له أن يفضى إليها ، ولها أن تفضى اليه ، وفى أحرج المواطن التى قد تتراءى لبعض الناس أنها من العيوب التى يجب أن ينأى وأن ينزه اسم الله عليها ، فان الإسلام يأبى إلا أن يذكر الإنسان اسم الله ، ويجعل ذلك من السنة المشروطة قبيل العمل الجنسى ، ليربط العمل بالعبادة ، وحتى لايسبق الشيطان إلى هذا المخلوق الذى قد يكون ثمرة هذا اللقاء ، وما أكثر أحاديث الرسول فى هذا المجال(٢) .

وإذا تم اللقاء بين الرجل والمرأة فالدين الإسلامى يشترط النظافة . لأنها شعبة من شعب الإيمان(٣) ، وأعنى هنا النظافة الجسدية ، بعد النظافة الروحية ، فالنظافة الروحية قد وقعت بعد التسمية باسم الله الرحمن الرحيم ، والنظافة الجسدية ، تتعدى السنة والجواز إلى مرحلة (الوجوب) حتى ان الخطاب قد وقع بصيغة الأمر والنهى فقال سبحانه : « ويسألونك عن المحيض ، قل : هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض . ولاتقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦ .
(٢) انظر الترمذى باب الطهارة : ١٠٧ ، ومسلم : ١٣٨ .
(٣) انظر : الترمذى باب الأدب : ٤١ .

ثم شفع الله ذلك الأسلوب . وهذا السلوك بأنه من أحب الأعمال إلى الله فضلا عن اجتناب الضرر البشع المؤدى اليه ، والأمراض الخبيثة التى قد يكون أهونها (البرص) . فقال : « ان الله يحب التوابين . ويحب المتطهرين(١) ».

وما أجمل أدب الإسلام حين أدب الإنسان بهذه التربية العالية . فالعمل الجنسي ليس مجرد ممارسة شهوة على طريقة الحيوان . بل جعل من معالم الإيمان الحقيقى عدة إدراكات :

الإدراك الأول : أن يكون ذلك العمل مسبوقا ومصحوبا بأقوال ناعمة ، ومداعبات لطيفة ومناجيات عن طريق إثارة المشاعر والعواطف والحب لتسمو به إلى مرتبة الإحساس بالسعادة الروحية والنفسية ، وتكسر شوكة الحواجز القائمة بين المرء وزوجه ، والتى قد يكون مردها العادات البالية ، والخرافات الباطلة ، وما أكثر ماروت السيدة عائشة — رضى الله عنها — صورا من معاملة الرسول لها فى هذا الشأن من المداعبة ، والكلمات الرقيقة(٢).

وذلك ولاشك خير من أن يتلقف أبناؤنا وهم فى سن الزواج كتباً غير مشروعة توغل فى ذكر الجنس ، وتتكىء على اثارة الشهوات ، وقد أثبتت كتب (الطب النفسى — السيكولوجى) و (الطب البشرى — الجسدى) ان هذه المداعبات تفتح مجال السعادة ، والحياة السوية ، وتقضى على كثير من الأمراض النفسية ، والانحرافات ، وعلى كثير من الأمراض الجسدية(٣).

الإدراك الثانى : توليد العلاقة الروحية التى تعد أساس قيام الأسر ، وبناء البيوت على دعائم قوية من المحبة والترابط ، فالأمر أبعد من مجرد العلاقة الجسدية ، ولكنها تذكر الإنسان بأصله « ولقد خلقنا الإنسان من ماء

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٢) انظر : احياء علوم الدين للغزالى .

(٣) انظر : فى هذا السعادة الزوجية للدكتور محمد فتحى ، وكتاب أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصى .

مهين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين(١) » ، ولنذكر الإنسان بحقوق الأسرة عليه « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة(٢) » .

الإدراك الثالث : استعمار الأرض . وبناء الحياة . وأداء رسالتها فيها، فليس الأمر كما يقول الدهريون : « بطون تدفع . وأرض تبلغ ، بل هناك الغاية التى جئنا من أجلها ، عمارة الأرض وعبادة الله « نساؤكم حرث لكم . حرثكم أنى شئتم »(٣).

الإدراك الرابع : ان الإسلام يجعل فى الاستجابة لهذا الدافع الفطرى ، وفى إشباع هذه الغريزة ، ليس مجرد سد لهذه الرغبة ، بل يرتفع بها إلى درجة المثوبة والأجر ، ويحدد لها الاهداف الفاضلة ، قال عليه السلام : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ، فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء»(٤)، وقال : « تناكحوا تناسلوا ، فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة(٥) » وقال : « إن لكم فى بضع نسائكم صدقة . قالوا يارسول الله : إن أحدنا ليأتى شهوته ، ثم يكون له عليها أجر؟

قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم . قال : فان وضعها فى حلال فله عليها أجر(٦) » .

الشهوات والإدراك :

لاشك أن الشهوات المرذولة هى الشهوات التى تطغى على العقل والإدراك

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ١٣.
(٢) سورة الروم ، الآية : ٢١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٣ .
(٤) رواه البخارى فى باب الصوم : ١٠ ، والنكاح: ٢ ، ورواه مسلم فى النكاح : ١ ، والنسائى فى الصيام : ٤٣ .
(٥) انظر: ابن حنبل : ٥/١٦٣ ، وابن ماجه باب النكاح : ١ .
(٦) رواه أبو داود فى باب الأدب : ١٦٠ .

وتؤدى بصاحبها إلى الفساد ، وتلك هى التى حاربها الإسلام ، وحاربها المصلحون ، ولكن إذا كانت هذه الشهوات والملذات اشباعا لحاجات الجسم الطبيعية ، وقد أخضعها الإنسان للعقل المدرك ، وللإرادة العاقلة ، فتلك هى الفطرة الإنسانية .

والإسلام لم يقطع الشهوات والأهواء ولكن أرادها منطلقة قائمة على أن تكون خاضعة للعقل ، ولذلك قال رسول الله : « لايؤمن أحدكم ، حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » أى تكون مقاصده ومطالبه ورغباته تابعة لمايدعو إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، ويكون خاضعا للادراكات الأربعة التى ذكرناها .

وقد قرر علماء الأخلاق أن الآفة التى تدخل إلى النفوس فتفسدها هى سيطرة الهوى ، وضياع الإدراك العقلى للعواقب الوخيمة ، والخضوع للشهوة . ولقد قال فى ذلك العلامة بتنام فى كتابه أصول الشرائع : « وإنا لنعجب كل العجب من قوم سخفاء العقول يريدون أن يجعلوا من احساسهم قانونا للناس ، ويدعون أنهم عن الخطأ معصومون ، لأن أصلهم الذى ركنوا إليه ، وسموه الوجدانى ، ليس عقليا ، بل العقل يأباه كل الاباء ، والذى تراه أنه لايصح مطلقاً الاعتماد على الميول والشهوات ، لأن المسترشد بها مخطىء فى كثير من الأحوال ، لأنه قد يكون مبطلا فى ميله ونفوره ، كما يقع ذلك من المتشددين والمتعصبين لطائفة من الطوائف ، فتكون أعمالهم هذه لا أساس لها »(١) .

الإنسان والكون :

ان الله سبحانه قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لانعلم شيئا(٢) ، ولكنه

---

(١) اقتبسه محمد أبوزهرة فى كتابه المجتمع الإنسانى : ٢٦٠ (ط جمعية الدراسات الاسلامية) .

(٢) انظر قوله : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » من سورة النحل ، الآية : ٧٨ .

زودنا بأدوات العلم والمعرفة – لماذا؟ لننظر ونفكر ونتدبر ونعمل، وجعل العقل مهيمنا ورقيبا : فثمة حواس تريد أن تستمتع ، ولكنها يجب أن تستمتع بالحلال الطيب . وثمة غرائز وشهوات تريد أن تمارس نشاطها الذى فطرها الله عليه . ولكنها يجب أن تمارس نشاطها عن طريق مشروع .

ومن هنا جعل الله العقل رقيبا وقيما عليها ليسلك بها طريق الرشاد . وجعل المعرفة والعلم والرسل ، أدوات صقل وتهذيب لها . وسموها عن دركات الحيوانية والطين إلى درجات الفضيلة والخير ونسوق بين يدى حديثنا أنماطا من صلة الإنسان بهذا الكون ، فهى صلة (منفعة) وصلة (انظر وفكر) وصلة (عبادة وطاعة) .

أولا : (أ) أما عن صلة المنفعة ، فالله عز وجل قد خلق هذه الأنعام من (إبل وبقر وغنم) لماذا ؟ استمع اليه يعد المنافع فيقول :

« لكم فيها دفء ، ومنافع .
.. ومنها تأكلون ،
ولكم فيها .. جمال :
حين تريحون ، وحين تسرحون ،
وتحمل أثقالكم إلى بلد ،
لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس(١) »
وقال : « وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم »
ومنها يأكلون(٢) .. »

(ب) وهذا البحر قد سخره الله للإنسان ، لماذا ؟ استمع اليه يسرد الفوائد :
« لتأكلوا منه لحما طريا ،

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٥ – ٧ .
(٢) سورة ياسين ، الآية : ٧٣ .

وتستخرجوا منـه حليـة تلبسونها ،
وتـرى الفلك مواخـر فيـــه ،
ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون (١) »

(جـ) وهذا هو الماء ، لماذا أنزله الله ؟ استمع اليه يذكر آلاءه ، ونعماءه :

« لكم منـه شـــراب ،
ومنـه شجر فيـه تسـيمون :
ينبت لكم بـه الـــزرع :
والزيتـون والنخيـل والأعنـاب :
ومن كل الثمـرات(٢) » .

د) وهذه هي الأرض ، لماذا خلقها ، وذللها ؟ أعر سمعك للآية الكريمة ، مثنى وثلاث ورباع :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ،
فامشـوا في مناكبهـا ،
وكلوا من رزقـه ،
واليـه النشـور(٣) . »

وهذه هي الكواكب والشمس والقمر والنجوم ، لماذا أوجدها ؟ إنه سبحانه يضع قرين كل نعمة من هذه النعم صلة المنفعة المرجوة من ورائها .

وبعد هذا التعداد والسرد .. جاء سبحانه بالنظرة الشاملة ، فكل مافي السموات بحسب رؤية الإنسان ، وكل مافي الأرض بحسب احتكاكه ، فالله

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٤
(٢) سورة النحل ، الآية : ١
(٣) سورة الملك ، الآية : ١٥

قد سخره للإنسان : « ألم تروا أن الله قد سخر لكم ما في السموات وفي الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة(١) ».

ثانيا : أما عن صلة الإنسان بالكون ، باعتباره مسرحا لتفكيره ، ومجالا لعلمه ومعرفته ، فهو يفتح جميع حواسه الخمس ، ويحضها على الإدراك ، كما يوجه عقله ، ويحضه على التفكير والتأمل والتعقل في جميع مجالات السماء ، والأرض ، وجميع المخلوقات والظواهر.

(أ) فمن الدعوة إلى استخدام حاسة (الرؤية والنظر) قوله جل وعلا : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر.(٢)) وقوله : « فلينظر الإنسان إلى طعامه إنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض رشقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم(٣)» وقد وردت الدعوة إلى النظا ومشتقاته في القرآن الكريم أربعين مرة.

(ب) ومن الدعوة إلى استخدام نعمة (العقل والفكر) وما أكثر الآيات التي وردت في هذه السبيل ، ابتداء ونهاية ، أي التي بدأ بها الله الآيات تارة ، والتي ختم بها الآيات تارة أخرى ، فمن الآيات التي بدأ بها قوله تبارك وتعالى : « أولم يتفكروا في أنفسهم ..(٤) » ، وقوله : « قل أرأيتم أن جعل الله..(٥)».

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة الطارق ، الآية : ٦ – ٩ .
(٣) سورة عبس ، الآية : ٢٥ – ٣٢ .
(٤) سورة الروم ، الآية : ٨.
(٥) سورة القصص ، الآية : ٧١ ، ٧٢ .

ومن النماذج التى ختم بها الآيات قوله : «وهو الذى مد الأرض . وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١) » .

وكقوله : «وفى الأرض قطع متجاورات » ، وجنات من أعناب وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(٢) » .

أما عن صلة الطاعة والعبادة فسوف نعرض لها فى الباب الثانى بتفصيل واف :

الله والعقل البشرى :

إن العقل البشرى مهما بلغ من التفوق والقوة فهو قاصر عن إدراك ذات الله ، وقد ورد فى التوجيهات النبوية : « تفكروا فى المخلوقات ، ولاتفكروا فى الخالق ، فان الله لاتحيط به الفكرة »(٣).

فلو جئنا لطفل فى السادسة من عمره ، وأخذنا نشرح له نظرية رياضية أو حسابية ، أوجئنا لشخص ضرير لايرى . وشرعنا نصف له ألوان الطيف من : أحمر وأخضر وأزرق . فان هذا أوذاك ان يدرك شيئا لأن مستوى عقليهما لايستطيع أن يحيط بذلك لقصوره ، ولو جئت إلى كتلة خشبية ، وأردت أن تقصها بيدك لما استطعت ، لأن قوة يدك غير متعادلة مع قوة الخشب وصلابته . ولكنك لوجئت إلى آلة حديدية لها قوة أعلى من قوة

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ٤.
(٣) روى هذا الحديث بعدة روايات ، انظر : الحلية لأبى نعيم ، والترغيب والترهيب للأصبهانى ، والأوسط للطبرانى ، والسقب للبيهقى ، والمقاصد للسخاوى .

الخشب لاستطاعت أن تقصها إلى نصفين . ومن ثم ورد فى الأثر : « لا يعرف حقيقة الله إلا الله » .

نعم إن عقل الإنسان من الضعف المتناهى بحيث لايستطيع أن يحيط بذات الله مهما بلغ الوصف ، ومهما بلغ الشرح ، لأنه ليست ثمة نسبة متعادلة بين الاثنين ، ولايعرف الله إلا الله لأن النسبة قائمة بين الله وذاته .

« إن ذات الله تبارك وتعالى أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلو والإدراك فهى محدودة القوة ، محصورة القدرة .

ويكفى أن أذكرك بما نلمسه الآن من أن عقولنا ، من أكبرها إلى أصغرها ، تنتفع بكثير من الأشياء ، ولاتعلم حقائقها ، فالكهرباء والمغناطيس وغيرهما ، قوى نستخدمها وننتفع بها ، ولا نعلم شيئا من حقيقتها ، ولايستطيع أكبر عالم الآن أن يفيدك عنها بشيء ، على أن معرفة حقائق الأشياء وذواتها لايفيدنا بشيء ، ويكفينا أن نعرف من خواصها وقدراتها ما يعود علينا بالفائدة .. »(١).

لذلك كان مفهوم (الإله) فى الإسلام : أنه هو القوة الخالقة المبدعة ، وأنه القوة الخالقة للأشياء والأسباب ، والمقدرة لهذه الأسباب ، أو لهذه السنن المطردة ، والقوانين المنتظمة ، فالسبب أو القانون نفسه ليس قوة عاقلة مدركة خالقة مبدعة ، بل هو نفسه جزء من نظام شامل لعدد لايحصى من الأسباب والسنن والقوانين ، وهى بمجموعها مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج إلى من يوجدها ويقدرها(٢) » .

---

(١) العقائد لحسن البنا : ١٣ .
(٢) نظام الإسلام لمحمد المبارك .

ومفهوم (الإله) عند الفلاسفة أنه (علة نهائية) أو (قوة كامنة) ، حيث يذهب أرسطو فى فلسفته إلى أن الله : هو المحرك الأول الذى لايتحرك ، وهو عقل دائم التفكير . وتفكيره منصب على ذاته ..

ويأتى ابن سينا ليقول : ان الوجود عبارة عن (ممكن وواجب) أما الممكن فهو المحتاج إلى علة خارجة عنه تخرجه من القوة إلى الفعل ، وتوجده ، ومن ثم نستنتج ان كل ما فى الكون ممكن ، وأن بعض الموجودات المادية لاتصلح أن تكون علة لأخرى إلى مالانهاية ، إذ لابد من بلوغ علة واجبة الوجود بذاتها غير محتاجة إلى موجود خارج عنها .

وأما الواجب الوجود فهو العلة الأخيرة التى أفضت إلى الممكنات ، وهى ضرورية الوجود وواجبة . وهذه العلة الواجبة يجب أن تكون مفارقة للعالم واحدة بالضرورة ، لأنه لايجوز أن يكون واجب الوجود اثنين ، فلوكانت هناك علتان لاحتاجت كل منهما إلى الأخرى ، وافتقرت كلتاهما إلى علة كاملة واحدة واجبة . وقد صور ذلك فى نظرية (العقول العشرة) أونظرية (الفيض) (١).

ومفهوم (الإلة) عند المتصوفة يقوم أحيانا على نظرية (الاشراق) كما ذهب إلى ذلك السهروردى ، فالله نور الأنوار . وهناك فيض من اشعاعه يتجه نحو كل موجود ، ويقوم أحيانا على نظرية (وحدة الوجود) كما ذهب إلى ذلك ابن عربى ، فهو يرى أن الوجود بأسره حقيقة واحدة ليس فيها ثنائية ، ولاتعدد على الرغم مما يبدو لحواسنا ، وقد ثبت عند المحققين :(إن مافى الوجود إلا الله) ونحن وان كنا موجودين ، فانما كان وجودنا به .

ونسوق بين يدى حديثنا تلك الحقيقة التى وقعت للطيار الروسى تيتوف ،

---

(١) انظر : الفلسفة الإسلامية لأبى العلاء عفيفى ، وقارن بأعلام الفلسفة العربية ليازجى وكرم .

وذلك عندما صعد فى صاروخه من المحيط الأرضى إلى الأجواء القمرية ، فقال : « ما أروع مارأيت ، لقد رأيت الأرض وهى معلقة فى الفضاء أنه منظر لايستطيع الإنسان أن ينساه أبد الدهر ، ولا أن ينمحى من خياله ، انها كانت عبارة عن كرة تشبه تلك الصور المرسومة فى كراسات الخرائط »..

انها كانت معلقة فى الفضاء ليس هناك من يحملها أو يمسكها ، كل ما حولها فراغ .. فراغ .. وقد أصبت بالذهول وسيطرت على الدهشة ، وساءلت نفسى فى احساس غامر : ترى ما الذى يبقيها معلقة هكذا هناك .. » .

وإذا كان تيتوف الروسى اللاديني قد عجز عن الجواب ، مع رؤيته الواقعية لهذه الحقيقية ، فنحن معشر المؤمنين لانعجز ، وهاهى ذى الإجابة التى توحى بها الفطرة ، ويوحى بها العلم والمعرفة ، ويوحى بها الفكر والنظر : ان الذى يبقى الأرض معلقة ، ويمسكها ، بل يمسك السموات والأقمار وغيرها هو (الله جل وعلا) ، ولا أدل على ذلك من قوله سبحانه : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »(١).

استمع إلى هذا العالم الإنجليزى (هنرى لنك) وهو يقول : ان هناك قوة تسير هذا الكون .. ، ولكن ما هى هذه القوة ؟

طبيعى أنك تسكن منزلا يضاء بالكهرباء وتركب قطارا ، أو تسمع إذاعة ، أو ترى تليفزيونا يعمل بالكهرباء ، وتلمس الدفء بجانب مدفأة ، أو آلة تدار بالكهرباء ، فهل تعرف : ما هى الكهرباء ؟

إنها قوة تعرف أثرها ولا تدرك كنهها ، هذا مثل أسوقه إليك أيها القارىء لتدرك أن هناك قوى معروفة كالكهربائية والآلية والمغناطيسية .. هذه القوى

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤١ .

تتولد ونحس أثرها . وندرك تفاعلها منطقيا بعقلنا الذى هيأه الله لمجالات التثقيف والتزود بالمعرفة فى الأبواب المختصة المحدودة ، فعرف كيف يستخدم هذه القوى ، ويسخرها لمصلحته وسعادته ، وينتفع بها فى حياته ، إذاً فهناك قوى غير معلومة ، نعرفها بصفاتها وخصائصها . أما حقيقتها ، أما جوهرها . فذلك شيء لم تصل إليه قدرات العقل البشرى . لسبب بسيط ، لأنها لها قدرا وكما معينا تقف طاقتها عنده ، مثل القدرات العقلية فى هذه السبيل ، مثل القدرات الجسدية ، مهما بلغ من تدريبها وتمرينها على أن تتحمل أثقالا ما ؛ فان قدرتها تقف عند حد محدود .

فالطبيب بطبه ، والمهندس بهندسته ، والفنان بفنه ، والعالم بمعرفته ، كل أولئك يجيدون مهنهم ولايتعدونها إلى سواها ، الطبيب لايدرى الهندسة ، والمهندس لايستطيع اجراء جراحة ، والفنان لايستطيع اجراء معادلة كيمائية . والكيميائى ، لاتستطيع نحت تمثال ، كل فى أفقه وتخصصه لايتجاوزه ، ولو قيض لمخلوق ما أن يعرف (الكل) ، فان هذا الكل جزء الكل الأصلى الجامع لأسرار هذا الكون العظيم .

وإذاً فنحن نسلم بأن العقل الجبار المثقف ، العارف بكل شيء يفرض وجود هذا الشخص الجاهل حتما بجزء من أسرار الكون ، فكيف يستطيع هذا الجاهل معرفة حقيقية خالق الكون ، أو طبيعة القدرة التى اعترفنا بوجودها فى وجود هذا الكون الغامض ، نحن لانفهم طبيعة الحياة ، فكيف يمكننا تصور كنه الله » .

الإنسان والمجال التكوينى :

إن صلة الإنسان بأهله وعشيرته صلة (سكن وعصبية) مبعثها الدم والقرابة ، قال تعالى : « وهو الذى جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا

إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »(١).

وصل الإنسان بالرسل (صلة اهتداء) بهديهم ، واقتداء بكتبهم وتعاليمهم . قال سبحانه : « ولكم فى رسول الله أسوة حسنة »

وصلة الإنسان بالمجتمع والوطن (صلة عاطفة) ، فالوطنية هى حب هذا الوطن ، والشعور نحوه بارتباط روحى ؛ وهى نزعة اجتماعية تربط الفرد بالجماعة . وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها(٢) .

صلة الإنسان بالله صلة مباشرة ، فقد وهبه الحياة والوجود ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما أحرانا أن نخضع لخالقنا ، وأن نسجد لبارئنا ، وأن نمتثل لربنا ، فندعوه ونعبده ونستعين به ونسجد له ونؤمن به لتصح أرواحنا فى الدنيا ، ولنجزى بالخير يوم القيامة . هذه الصلة العليا يجب أن تكون دونها كل الصلات .

إن الإنسان مملوك لخالقه وخاضع له . فهو تحت هيمنته ، وفى قبضة يده ، وفى متسع ملكه ، فالصلة قائمة على (المستوى التكوينى) الخلقى ، وقانونه هو ارتباط المسبب بالسبب . وعلاقة أى سبب بمسببه فى هذا الكون ليست أكثر من اجراء التجربة أى الحياة . ولكن من الذى يضع فى التجربة خاصة العمل والانفعال ، وبمعنى أدق : الحياة .

إن القرآن يدعونا إلى التفكير والإجابة عن كثير من الأسئلة فى هذا المجال التكوينى ، أو بمعنى أوضح حالة الخلق . أى حالة الإيجاد من العدم ، إن هذه المادة بقوانينها ونظمها ، وكل ما فى الوجود من أنواع الطاقات والقدرات يرتكز على آساس القوانين ، واقتران الأسباب بالمسببات .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٢ .

(٢) الاتجاهات الوطنية للمؤلف : ٩ .

فاذا أدرت مفتاح الكهرباء أضاء ، فماذا حدث ؟ حدث تغير نتيجة لارتباط شيء بآخر ، ولكن من الذى أودع فيه قوة الإضاءة ؟ هنا تأتى سطوة الله وسيطرته التامة على جميع العوالم ، والذلك فهو يسأل : « أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون (١) » .

ونحن نعلم ان الفلاح يضع الحبوب فى باطن الأرض ، ثم يجرى عليها الماء ، فتنبت وتهتز وتربو وتأتى بأبرك الثمرات ، فثمة (حبة — وأرض — وماء) ، فهل يستطيع أى عنصر من هذه العناصر على حدة أن يودع فى نفسه ، أو فى العنصر الآخر خاصة الإثبات ؟

فاذا جاء الفلاح وأجرى هذا الترابط بين هذه الأشياء الثلاثة ، فان أثره لايزيد عن كونه سبباً ، لاأكثر ولا أقل ، فى تهيئة هذه الظروف ، وتوفير عوامل الترابط بينها .

وإذا أطلقت الرصاصة من البندقية على طير من الطيور ، فانه يقع صريعا ، فان ضغطك على الزناد لايعدو كونه سببا ، أما نمو النبات وظهوره واستوائه ، وأما انطلاق الرصاصة وقتلها للطائر ، فتلك هى قدرة الله ، فثمة زارع حقيقى ، وثمة مطلق ، وخالق ومقدر وموجد ، قال سبحانه « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٢)» .

فالإنسان لايعدو أثره عن أن يكون استثمارا لخاصة من خواص الطبيعة ، أولسر من أسرار الوجود فليس هو الموجد ، ولاباعث الحياة ، ولا واهب القدرة ، وقل مثل هذا فى قوله جل وعز : « أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلنا تذكرة ، ومتاعا للمقوين(٣) » .

---

(١) سورة الطور ، الآية : ٣٥ .
(٢) سورة الواقعة ، الآية : ٦٣.
(٣) سورة الواقعة ، الآية : ٧١ .

وقد أكثر علماؤنا القدامى من تقديم هذه الأدلة التكوينية التى تقوم على السبب والمسبب ، للمعاندين ، فهذا الإمام أبو حنيفة كان متحاملا على الدهريين . فأتمروا به ليقتلوه . وأغاروا عليه فى المسجد بالسيوف ، فقال : أجيبونى عن مسألة ، ثم افعلوا بى ما تريدون ،

قالوا : هات .

قال : ما تقولون فى سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة بالأثقال ، فى لجة البحر ، وقد احتوشتها أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهى تجرى بينها على الاستقامة ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا دافع يدفعها ؟

قالوا : هذا شىء لايقبله العقل .

قال : يا سبحان الله ، إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى من غير ملاح ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أعمالها ، وتغاير أحوالها ، وسعة أكنافها ، وتباعد أطرافها ، من غير صانع وحافظ ؟

وروى أن جماعة من الدهريين سألوا الإمام الشافعى عن الدليل على أن لهذا الكون خالقا وصانعا ، فقال : ورقة التوت ، تأكلها دودة القز فيخرج منها الأبريسم (الحرير) ويأكلها النحل فيكون منها العسل ، وتأكلها الظباء فينعقد فى نوافجها المسك ، وتأكلها الشاة فيكون منها البعر .. فمن صنع هذا ؟ وصدق الله حيث قال : وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ،يسقى بماء واحد ، وتفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »(١).

وسأل هارون الرشيد الإمام مالك عن دليل بأن لهذا الكون صانعا ،

(١) سورة الرعد ، الآية : ٤ .

فاستدل باختلاف الأصوات وترديد النغمات ، وتباين اللغات ، وصدق الله حيث قال : « ومن آياته أن خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين(١) » .

الإنسان والمجال التوجيهى :

١ — لقد وجه الله النظر إلى السماء طالبا اعماق النظرة ، قال جل وعلا :

« قل انظروا : ماذا فى السموات والأرض » وقال : « الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر ، هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئا ، وهو حسير .. ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رُجوما للشياطين »(٢)، وقال : « والسماء بنيناها بأيدٍ ، وإنا لموسعون »(٣) .

لقد قرر علماء الهيئة أن الأجرام السماوية عبارة عن طوائف عدة ، وأن لكل طائفة منها نظاما محكما لا يختل به نظام الطوائف الأخرى ، لأن للمجموع نظاما عاما يوفر لكل مجموعة مالابد منه لبقائها(٤)، وقد أثبتت الأبحاث العلمية الأخيرة أن حجم الكون آخذ فى الزيادة شيئا فشيئاً ، وكلما ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه ، وصدق الله حيث قال : « وإنا لموسعون »(٥).

وقال تعالى : « والشمسُ تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ،

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٢ .
(٢) سورة الملك ، الآية : ٣ — ٥ .
(٣) سورة الذاريات ، الآية : ٤٧ .
(٤) انظر مذكرات فى دروس التوحيد لعلى حسب الله : ٣٥ .
(٥) انظر : الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل : ١٧٧ .

والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر . ولاالليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون »(١) ان الشمس تدور حول نفسها .. بسرعة قدرها الفلكيون باثنى عشر ميلا فى الثانية . والقمر يعود فى لياليه الأخيرة محمراً شاحبا كلون العرجون القديم ، ولكل نجم أو كوكب مدار لايتجاوزه فى جريانه ، وقد قدر الله خالق هذا الكون أن تقوم هذه الكواكب بدورانها دون أدنى اختلال ، فلايسبق أحدهما الآخر أو يزحمه فى الجريان(٢).

٢ — ووجه الأذهان إلى النظر فى الأرض . وما فيها من عجائب قال سبحانه : « فى الأرض آيات للموقنين »(٣). وقال : « قل : سيروا فى الأرض . فانظروا ، كيف بدأ الخلق »(٤) تعد هذه الآية دليلا على سبق الإسلام فى الحث على قيام البعثات الكشفية التى يجب أن تنطلق فى الآفاق لتقوم بالتنقيب والحفريات للكشف عن الآثار . وعن أصل الخلق . وعن منابع الثروات المدفونة فى باطن الأرض .

وقال تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم ، أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لايعلمون »(٥) ، وقال : « وجعل فيها رواسى من فوقها . وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين »(٦) ان هذه القشرة الأرضية فى حركة دائبة ، وفى تغيير دائم ،

---

(١) سورة ياسين ، الآية : ٣٧ — ٤٠ .
(٢) انظر : فى ظلال القرآن لسيد قطب : ٢٣ - ٢٥ .
(٣) سورة الذاريات الآية : ٢٠ .
(٤) سورة العنكبوت الآية : ٢٠ .
(٥) سورة يس ، الآية ٣٣ .
(٦) سورة فصلت ، الآية : ١٠ ، وانظر : الآية ١٠ من سورة النمل ، والآية ٧١ من سورة الأنبياء .

يهتز البحر بالموج فتوثر فيها ، ويتبخر ماء البحر ، تبخره الشمس فيصعد إلى السماء فيكون سحبا تمطر الماء عذبا ، فينزل على الأرض متدفقاً فيوثر فيها . فى صخرها وفى تربتها ، ويتبدل وجه الأرض على مر القرون .. وتفعل الشمس بوجه الأرض ما يفعله الماء والريح[1].

٣ — ووجه الأبصار إلى الرياح والأمطار . قال سبحانه : « وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ، فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين »[2] وقال : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون ، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، ان ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شىء قدير »[3] ، وقال : « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يوءلف بينه ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد . فيصيب به من يشاء . ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنابرقه يذهب بالأبصار »[4] .

لقد رتب الله على إرسال الرياح اللواقح انزال الماء من السماء يسقاه الناس . فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك — من ناحية — شبيها بلقاح الأحياء من زروع وحيوان . ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء . ما بين العلة والمعلول . أو السبب والمسبب ، والآية الأولى تعد مظهراً من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن ملامح السحاب ، وأثره فى نزول المطر . أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث [illegible] ١١٨٢ .

---

(١) انظر : كتاب مع الله فى السماء لأحمد زكى : ٢٥ ، وفى ظلال القرآن لسيد قطب ٢٤-١١٧ .

(٢) سورة الحجر . الآيه : ٢٢.

(٣) سورة الروم . الآية : ٤٨ — ٥٠.

(٤) سورة النور . الآية : ٤٣ .

أما الآية الثالثة فهى تدل بوضوح على الحقيقة الكهربية التى تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها ، فان التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحب المختلفة فى كهربتها ، وذلك حتى يتجاذب ويتعبأ فى الجو كتعبئة الجيوش ، وحينئذ يتولد البرق ، والصواعق ، والمطر[1] .

٤ — ووجه التفكير إلى تعاقب الليل والنهار واختلافهما ، قال سبحانه « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون»[2] ، وقال : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب»[3]، ويعقب الجاحظ على هذا بقوله : « فكر فى مقادير الليل والنهار كيف وقعت على ما فيه صلاح الخلق ، فصار منتهى كل واحد منهما إذا امتد خمس عشرة ساعة لايجاوز ذلك ، أرأيت لوكان النهار مائة ساعة أومائتين ، ألم يكن فى ذلك بوار ما على الأرض من حيوان أو نبات ؟ أما الحيوان فكان لايهدأ ولايقر طول هذه المدة من العمل ، فلا البهائم كانت تمسك عن الرعى لودام لها ضوء النهار ، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة ، فكان ذلك ينهكها أجمع ، ويؤديها إلى التلف.

وأما النبات فكان يدوم عليه حر النهار ، ووهج الشمس حتى يجف ويحترق ، وكذلك الليل لوامتد مقدار هذه المدة لعاق أصناف الحيوان عن الحركة ، والتصرف ، وطلب المعاش ، حتى تموت جوعا ، وتخمد الحرارة الطبعية من النبات حتى يعفن ويفسد ، كالذى نراه يحدث على النبات إذا كان فى موضع لاتقع عليه الشمس »[4] وإلى هذا أشار الله بقوله : « قل

---

(١) انظر : سنن الله فى الكون لمحمد أحمد الغمراوى ، وفى ظلال القرآن : ١٨-١٠٩

(٢) سورة يس ، الآية : ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٠ .

(٤) الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير : ٢٥ .

أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكل الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون »[1] .

٥ — ووجه الأذهان إلى خلق الإنسان ، وطلب اليه أن ينظر فى نفسه ، قال سبحانه : « « وفى أنفسكم أفلا تبصرون»[2] ، وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين»[3].

هذه الآية وكثير غيرها تشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ، ولاتحددها ، فتفيد أن الإنسان مر بأطوار مسلسلة ، من الطين إلى الإنسان ، فالطين بمائه وترابه هو المصدر الأول ، أو الطور الأول ، والإنسان هو الطور الأخير ، وتلك حقيقة نعرفها من القرآن ، ولانطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التى تبحث فى نشأة الإنسان أو نشأة الأحياء[4].

ان الجنين الإنسانى مزود بخصائص معينة هى التى تسلك به طريقه الإنسانى ، فما أن يوشك الشهر الثانى للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية ، وذلك قوله سبحانه (خلقاً آخر) ، بينما يقف الجنين الحيوانى

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧١ — ٧٣ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية : ١٢ — ١٤ .

(٤) انظر فى ظلال القرآن : ١٨ - ١٤ ، وقارن بـ : الله والعلم الحديث لنوفل : ١٨٨ ، وروح الدين الإسلامى لطبارة : ٤٦ .

عند التطور الحيوانى . لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فانه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية ، فيتطور إلى الإنسان تطورا آليا — كما تقول النظريات المادية — فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفخة الإلهية التى بها صارت سلالة الطين انسانا ، واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة . والتى ينشأ بها الجنين الإنسانى (خلقا آخر) .

إنما الإنسان والحيوان يتشابهان فى التكوين الحيوانى ، ومن هنا يشارك الإنسان الحيوان فى كثير من صفاته وغرائزه فى طعامه وشرابه وفى توالده وتناسله ، فهو من هذه الناحية نوع من أنواعه ، ولكن من بعد ذلك يبقى الحيوان حيوانا فى مكانه لايتعداه . ويتحول الإنسان خلقاً آخر ، قابلا لما هو مهيأ له من الكمال ، بواسطة خصائص مميزة ، وهبها الله له عن تدبير مقصود . لاعن طريق آلى « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وإن من يدرس تشريح الرحم . وموضعه المكين . ويرى هذه الأربطة العريضة والأربطة المستديرة التى تحفظ توازن الرحم . وتشد أزره . وتحميه من الميل أو السقوط ، تطول معه إذا ارتفع تقدم الحمل ، وتقصر إلى طولها الطبيعى تدريجيا بعد الولادة ، إن من يدرس كل ذلك يعرف جيدا صدق قوله تعالى « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين(١) . وان من يقرأ قوله سبحانه : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك »(٢) يدرك عظمة الله التى تشف عنها الطب الحديث وما يزال يكشف جديداً كل يوم ، فالجنين ينمو فى رحم المرأة داخل أغشية ثلاثة هى : الغشاء المنباوى ، والخوريون . والغشاء اللفائفى .. وهى لاتظهر هكذا إلا بالتشريح الدقيق . أما بالنسبة للعين المجردة فتظهر وكأنها غشاء واحد (٣) » .

---

(١) انظر : الله والعلم الحديث : ١٨٩ .
(٢) سورة الزمر ، الآية : ٦ .
(٣) الإسلام والطب الحديث لخالدكنجو : ١١٩ .

٦ — ووجه العقول إلى النظر مما فى ملكوت الله من حيوان وطيور ونبات، وما إلى ذلك من مخلوقات وعجائب لاتنفد ، قال سبحانه : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شى »(١) وقال : « وان لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون ، وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »(٢) .

فالذى يرجع إلى تركيب العسل من الناحية الكيميائية سوف يتحقق من هذه المعجزة « فاذا علمنا أن (الجلوكوز) يستعمل مع (الأنسيولين) ، حتى فى حالة التسمم الناشىء عن مرض البول السكرى ، علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل ممن خلق الإنسان والنحل ، وعلم علاقة كل منهما بالآخر »(٣).

وهذا اللبن الذى تدره ضروع الأنعام مم هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم ، والفرث ما يتبقى فى الكرش بعد الهضم ، وامتصاص الأمعاء للعصارة التى تتحول إلى دم ، هذا الدم الذى يذهب إلى كل خلية فى الجسم، فاذا صار إلى غدد اللبن فى الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العالى فقد وصل العلم الحديث إلى تأكيد جميع اشارات القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وأكد أن جميع خصائص الأشياء التى أشار إليها القرآن لم يك مجرد سبك بيانى أو إعجاز لفظى ، بل أشارت فوق ذلك إلى أنها وضعت

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ٦٦ — ٦٩ .
(٣) الإسلام والطب الحديث : ١٩٩ ، وقارن بـ (الله والعلم الحديث : ١٩٥) .

من لدن حكيم خبير . بحيث تنبىء عن قوانين دقيقة كان يجهلها العلم ، وما يزال يكشف بعض نواحيها على أيدى العلماء سواء فى المجال الإنسانى أو الحيوانى أو النباتى أو الكونى ، وصدق الله حيث قال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق . وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(١) .

والفكر السليم والمنطق القويم يرفض أن تكون هذه الأسرار ، وهذه القوانين وهذه الخواص قد وجدت مصادفة واعتباطا ، وحاشا لله الحكيم العليم أن يخلو علمه من آثار بالغة ، كما أن الاعتباط والمصادفة لا يمكن أن تكون ينبوعا ومصدرا لهذا الإعجاز العلمى ، ولهذا النظام المحكم . وفى ذلك يقول الجاحظ وهو يناقش ويحاجج الدهريين : « فان قلت : ان هذا شىء اتفق أن يكون هكذا — فما يمنعك أن تقول هذا فى دولاب تراه يدور لسقى حديقة فيها شجر ونبات ، فترى كل شىء من آلته مقدرا بعضها تلقاء بعض مع ما فيه صلاح تلك الحديقة وما فيها ؟

وبماذا كنت تثبت هذا القول لوقلته ؟ وما ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك وتضليل عقلك ؟ أفتنكر أن تقول هذا فى دولاب خسيس مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الأرض : إنه كان بلا صانع ومقدر . وتقدم على أن تقول فى الدولاب الأعظم المخلوق بحكمة تقتصر عنها أذهان البشر لصلاح جميع الأرض وما عليها : انه شىء اتفق أن يكون بلاصنعة ولاتقدير ؟ ولو اعتل هذا الفلك كما تعتل هذه الآلات التى تتخذ لرفع الماء وغيرها — ماكان عند الناس من الحيلة فى صلاحه ؟ ولو تخلف عنهم مقدار عام أو بعض عام — كيف تكون حالهم ؟ بل كيف يكون لهم مع ذلك بقاء ؟

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .

الباب الثاني

العبادة ومناهجها

عبادة الله :

المظهر الثانى من مظاهر العقيدة : المظهر السلوكى بجميع مفاهيمه ، وهو الذى نعنى به العبادة ، فالله سبحانه غنى عن العالمين ، وليس فى حاجة إلى عبادة صنف أو مخلوق من مخلوقاته ، ليزداد شرفا أوعلوا أوقدرا ، كما لن يضيره انصراف فئة ، أو جحود قوم ونكرانهم ، وصدق الله حيث قال : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين »(١) ، وقال فى الحديث القدسى : « يا عبادى انكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لوأن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لوأن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا(٢)» .

وإذا كان الله جلا وعلا غنياً عن العالمين هذا الغناء المطلق ، فلماذا كلفهم بعبادته وطاعته والانقياد لأوامره ونواهيه .

ان ذلك لسبب بسيط ، وهو أن هذه العبادة ، وان هذا الانقياد يعود بالنفع على هذا الإنسان . ففيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، وفيه تصحيح حياته فى المثوى والمآت ، ولهذا العبادة ــ كما أشرت ــ مستويات فالإنسان مزدوج الطبيعة ، أى ذو طبيعتين . طبيعة الطين ، وطبيعة الروح ، والعربة الإنسانية يجرها جوادان ، أحدهما جامح يريد أن يهبط بها إلى الأرض وسفلياتها ، والآخر يريد أن يصعد بها إلى عالم الطهر والخير والجمال ، فالطين يطلب الشهوات الجسدية ، ويميل إليها بحكم خلقته ، وهو فيها يستوى مع الحيوانات

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٧.
(٢) رواه مسلم فى باب الظلم : ١٠ - ٨ .

تماما ، والروح تطلب الصفاء والجمال ، ونحن بحكم خلقتها إلى بارئها ، فهى محتاجة إلى صلتها بالله . فالوجدان الإنسانى يشعر دائما أبداً أنه فى حنين إلى أصله .

ويقوم محمد أسد : ان موقف الإسلام فى هذا الصدد لايحتمل التأويل . إنه يعلمنا أولا : أن عبادة الله الدائمة . والمتمثلة فى أعمال الحياة الإنسانية المتعددة جميعها ، هى معنى الحياة نفسها .

ويعلمنا ثانيا : أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلا مادمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين : حياتنا الروحية ، وحياتنا المادية .. يجب أن تقترن هاتان الحياتان فى وعينا وفى أعمالنا لتكون كلا واحداً متسقا ، أن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى فى سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة فى حياتنا .

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه ، هى فريق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة ، ذلك أن الإسلام لايكتفى بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط ، ولكنه يعرض — أيضاً — بمثل هذا التوكيد على الأقل — للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية .

إن الحياة الدنيا لاينظر إليها على أنها مصادفة عادية فارغة ، ولاعلى أنها طيف خيالى للآخرة ، التى هى آتية لاريب فيها ، من غير أن تكون منطوية على معنى ما ، ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة فى نفسها ، والله تعالى (وحدة) لافى جوهره فحسب ، بل فى الغاية اليه أيضاً ، من أجل ذلك كان خلقه وحده ، ربما فى جوهره ، إلا أنه وحدة فى الغاية منه بكل تأكيد(١) .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق : ٢١ .

ويقول ابن تيمية : « ان القلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة ، ومن جهة الاستعانة والتوكل ، فالقلب لايصلح ولايفلح ولاينعم ولايسر ، ولايلتذ ولايطيب ، ولايسكن ولايطمئن ، إلا بعبادة ربه وحده ، وحبه والإنابة إليه . ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هومعبوده ومحبوبه ومطلوبه . وبذلك يحصل له الفرح والسرور ، واللذة والنعمة ، والسكون والطمأنينة .

وهذا لايحصل له إلا باعانة الله له ، فانه لايقدر على تحصيل ذلك الا الله. فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة « إياك نعبد ، وإياك نستعين» فانه لوأعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم يحصل له عبادة لله فان يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا باخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ، ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحب لأجله. لايحب شيئاً لذاته إلا الله »(١).

وقال ابن القيم الجوزية . « إنه لاشيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ومعبودها ، ووليها ومولاها ، وربها ومدبرهاورازقها. ومميتها ومحييها ، فمحبته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرالنفوس ، وقوت القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون ، وعمارة الباطن .

فليس عند القلوب السليمة ، والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية ، أحلى ولا ألذ ، ولا أطيب ، ولا آسر ، ولا أنعم من محبته ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والحلاوة التي يجدها المؤمن فى قلبه بذلك فوق كل حلاوة ،

---

(١) العبودية . ١٠٨ .

والنعيم الذى يحصل له بذلك أتم من كل نعيم ، واللذة التى تناله أعلى من كل لذة .. » .

ووجد أن هذه الأمور وذوقها هو بحسب قوة المحبة وضعفها ، بحسب إدراك الجمال والقرب من الله ، وكلما كانت المحبة أكمل ، وإدراك المحبوب أتم ، والقرب منه أوفر ، كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحب ، وإليه أقرب ، وجد من هذه الحلاوة فى قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد ، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حبا لغيره ، ولا أنسابه ، وكلما ازداد له حبا إزداد له عبودية وذلا ، وخضوعا ورقا له ، وحرية عن رق غيره ؛

فالقلب لايفلح ولايصلح ولاينعم ولايبتهج ولايلتذ ولايطمئن ولايسكن إلا بعبادة ربه وحبه ، والإنابة إليه ، وكلما تمكنت محبة الله من القلب ، وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له :

فأصبح حرا عزة وصيانة
على وجهه أنواره وضياؤه »(١)

ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذى لايعبد إلا إياه ، ولايستعين إلا به ، ولايتوكل إلا عليه ، ولايفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولايكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ، ولايوالى إلا من ولاه ، ولايعادى إلا من عاداه الله ، ولايحب إلا لله ، ولايبغض شيئا إلا لله ، ولايعطى إلا لله ، ولايمنع إلا لله .

---

(١) اغاثة اللهفان : ٢ / ١٩٧ .

فكلما قوى اخلاص دينه لله ، كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات . وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك(١).

العبادة والتربية :

ان العبادة تعد جانبا مهما من الجوانب التربوية ، والتهذيبية التى بسطها الإسلام ليستظل بها الإنسان فهى تهذيب للخلق ، وتربية للنفس لتواجه مصاعب الحياة وتفتح أبواب الآخرة ، فهى من أحد جوانبها أمانة حملها الإنسان وعليه أن يؤديها لصاحبها على الوجه الأكمل« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان »(٢).

وقد أورد الرازى فى أثناء تفسير هذه الآية واقعة حدثت على عهد الصحابة ، حيث قال بعضهم : رأيت اعرابيا أتى المسجد فنزل عن ناقته وتركها ودخل المسجد ، وصلى بالسكينة والوقار ، ودعا الله بما شاء ، فلما خرج لم يجد ناقته . فقال : أديت أمانتك فأين أمانتى؟ فلم يمكث غير قليل حتى جاءه رجل وهو آخذ بزمامها ، وسلمها إليه(٣).

وهى من جانب آخر بلاء واختبار ، ليشكر أم يكفر ، ليطيع أم يتمرد ، ولكنها فى الوقت نفسه تكريم ، ورفع لما سواه من المخلوقات ، وتفضيل له عليها ، ليحوز من هذه الحياة الدنيا الفانية إلى الحياة الأخرى الباقية : « انا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا.(٤)» فحق الله على الإنسان أن يعبده ولايشرك به شيئا .

---

(١) العبودية : ١١٤ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .
(٣) انظر : تفسير الرازى:
(٤) سورة الكهف ، الآية : ٧ .

وهى من وجه ثالث حق للربوبية ، فهو سبحانه مربى العوالم كلها ، ومتعهدها من حال الطفولة إلى حال النهاية ، ولذلك تعجب الله من جحود الإنسان ونكرانه وفقد ورد فى الحديث المقدس ما معناه : أنا والانس والجن فى نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيرى . وأرزق ويشكر غيرى . خيرى اليهم من السماء نازل ، وشرهم إلى من الأرض صاعد ، أتقرب إليهم بالنعم وأنا الغنى عنهم ، ويتبغضون إلى بالمعاصى ، وهم أحوج شىء إلى ، رحمتى سبقت غضبى ، ومغفرتى سبقت مؤاخذتى ، فوعزتى وجلالى لأنا أبر وأشفق عليكم من الوالدة على ولدها » .

وهى من وجه رابع تؤلف : « فى الإسلام معنى الحياة الإنسانية ، هذا الإدراك وحده يرينا امكان بلوغ الإنسان الكمال — فى اطار حياته الدنيوية الفردية — ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردى ممكن فى الحياة الدنيا .. ان الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد أمانة الشهوات الجسدية ، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة — كما هى الحال عند الهندوكية — ولا هو يوافق البوذية التى تقول : بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية ، وانقسام علاقاتها الشعورية من العالم . كلا ، ان الإسلام يؤكد فى اعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال فى حياته الدنيا الفردية . وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوى فى حياته »(١) .

العبادة والنية :

ان العبادة فى الإسلام سواء أكانت سلوكا اجتماعيا أخلاقيا أم فرائض ومناهج ، أم أذكارا ودعاء مرتبطة بالمجتمع الإنسانى وبجميع نشاطات الإنسان فى الحياة ، فما عليه إلا النية ، وحسن القصد ، ومرضاة ربه ،

(١) الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد : ٢٣ .

فلا رهبانية ، ولاصوفية متوغلة ، وإنما هي تأخذ من الدنيا بقدر ، وتأخذ من الآخرة بقدر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

فكل ذي حرفة في الحياة ، عظمت أو صغرت تعد عبادة ، إذا أخلصها العبد لله ، وقصد من ورائها منفعة نفسه ، ومنفعة الناس ، والاستغناء عن المسألة ، وتربية الأسر ، وتكوينها والانفاق عليها .

« فمادام الإنسان يخدم الأمة في ناحية من نواحيها الضرورية ، ومادام يؤدى عملا لازما للجماعة ، بحيث ينشأ عن تعطيله فساد وضرر ، سواء بالنسبة لنفسه أولغيره ، كان ذلك العمل عبادة ومشروعا ، وكان القائم به مثابا عند الله ، وكان الأجر عليه حلالا طيبا .

فالوزير يدير سياسة الدولة ، والطبيب يداوى المرضى ، والمدرس يربي الناشئة ، والمهندس يقيم المشروعات ، والقاضي يقيم العدالة ، والشرطي يضرب على أيدى المفسدين ، والزارع والتاجر والصانع والعامل .. هؤلاء وأمثالهم لهم مكانة عند الله ، وعند الناس »[1].

وان نظرة واعية إلى بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام سوف تقفنا على أن العبادة ليست مقصورة على الفرائض أو الجهاد في سبيل الله أو في سبيل الخير والعقيدة فقط ، بل هي مصروفة إلى كل عمل صغير أوكبير من الأعمال الفاضلة ، قال سبحانه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله[2] » .

وقال : « ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولانصب ، ولامخمصة في سبيل

---

(١) التربية الدينية للمؤلف : ٢/ ١٠٩ .
(٢) سورة الجمعة ، الآية : ١٠ .

الله ، ولايطأون موطناً يغيظ الكفار ، ولاينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لايضيع أجر المحسنين ، ولاينفقون نفقة صغيرة ولاكبيرة ، ولايقطعون وادياً إلاكتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون » (١) .

وقد شجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل هذا الشخص الذى طلق الحياة ، وتفرغ للعبادة ، وأراد أن ينجع نفسه شططا ، وذلك عندما قدم عليه بعض الصحابة ، وقالوا له : يارسول الله : « ان فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر . فقال : أيكم كان يكفى(٢) طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا ، فقال : كلكم خير منه »(٣) .

ان الرسول الكريم ، والمشرع العظيم عندما أراد أن يفصل أمر العبادة التى تلقاها عن ربه نظر إلى الدين والدنيا ، ونظر إلى مقدرة الطاقة البشرية ، فلايكون الإنسان كالمنبت لاظهراً أبقى ، ولا أرضا قطع » ، ونلمس ذلك فى حديث الرسول عندما نهى بعض الصحابة الذين استغلوا عبادتهم ، فأوغاوا فى الانقطاع لها ، فقال رسول : فوالله انى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصلى وأرقد ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فن رغب عن سنتى فليس منى (٤) » .

وكان النبى جالسا مع أصحابه يوما ، فروا شابا ذا جلد وقوة ، وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لوكان شبابه وجلده فى سبيل الله ، فقال عليه السلام : « لاتقولوا هذا ، فانه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أوذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم ، فهو فى سبيل الله (٥) » .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) أى يكفيه طعامه ، ويجلب له قوته ، ويقوم على خدمته .
(٣) رواه البخارى فى الأدب : ٢٥ ، والترمذى فى البر : ٤٤ .
(٤) رواه البخارى فى النكاح : ١ ومسلم فى النكاح : ٥ ، وأبوداود والنسائى .
(٥) احياء علوم الدين للغزالى : ٢ .

درجات العبادة :

نعم ، ثمة فروق — ولاشك — بين العبادات وبعضها . ولكن كلها . وكلها مقبول ، وكلها مجزى عنه بأفضل منه . فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، والإسلام فى تربيته النفسية ، وتنمية الطاقة الحيوية يراعى التوفيق بين مطالب الحياة والمجتمع ، وبين واجبات العقيدة والعبادة ، وبين حقوق النفس والأهل ، فو يراعى حق الله بالطاعة والعبادة ، وحق النفس والبدن بالطعام والراحة والرياضة والتهذيب والتقويم ، وحق الأهل بالمعاشرة الحسنة ، والرعاية الطبية والتـأديب ، والقيام بواجباته نحوهم كل بحسب علاقاته(١) ، وصدق الرسول حيث قال : « إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه»(٢).

نعم ، ثمة درجات ، قال سبحانه : « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله . لايستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، ان الله عنده أجر عظيم (٣) ».

إذا كان ثمة تفاوت فى العبادة ، ومعايير وموازين لنوعية العبادات ، فانه يوجد إلى جانب ذلك أمر مهم ، ألا وهو : النية الصادقة ، أو بمعنى أدق الاتجاه القلبى ، فالعبادة لاترتبط بالأشكال والصور ، وإنما ترتبط بالحقائق ، ولب الأمور ، وروح التكاليف . ونسوق هذا الدليل بين أيدينا ، فقد كان المسلمون يتجهون أولا فى أثناء صلاتهم إلى بيت المقدس ، ثم

---

(١) انظر : كتابنا التربية الدينية : ١/٧٨ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ١٩ — ٢٢ .

أمر الله نبيه بالتوجه إلى الكعبة من بعد ذلك لحكمة أرادها ، ولتشريع أمره « قد نرى تقلب وجهك فى السماء . فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره(١)» .

فاتجه المسلمون كما أمرهم الله ، وكان ذلك مثارا لثورة فكرية جدلية فى أحضان النبوة ، وأوائل العهد بالإسلام ، وقد شغلت جميع الطوائف من مسلمين وأهل الكتاب ، حتى كادوا ينصرفون عن إدراك الحق الذى يريده ، الله ، وعن طريق البر الواضح الذى رسمته عناية الإله ، والذى يجب أن تنصرف اليه الأنظار ، وتتوجه إليه القلوب . قال سبحانه : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين . وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهوهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »(٢).

نزلت هذه الآيات لتعلن أن ثورة هؤلاء السائلين فى هذا الشأن ليست ثورة طلاب حق . وإنما هى ثورة العناد والمكابرة .

وهى توضح أن الاتجاه فى العبادات ليس إلا رمزاً للاتجاه القلبى إلى الله تعالى ، وليس ركنا آساسيا فى العبادة ، فيتبع فيه الأمر ، وأن البر يرتبط بجوهر العبادة ، ولا يهتم بالشكل ، ولا بالمظهر ، وأن البر يكون : فى العقيدة ، وفى العمل ، وفى المال ، وفى الخلق .

أما البر فيما يختص بالعقيدة فهو أمور خمسة : الإيمان بالله فى ربوبيته ، وفى عبادته ، وفى وحدانيته ، إيمانا مطلقاً ، والإيمان بيوم الجزاء ، والإيمان بأنه وحده النافع الضار ، لاتعنو الوجوه إلا له .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٤ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

والبر فى العمل يتناول : إقامة الصلاة ، والبر فى المال ، وأما البر فى الأخلاق فقد أشار اليه بقوله : والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » (١).

العبادة والبيئة :

إن اعتناق العقيدة يتولد عنه — ولاشك — سلوك إنسانى ، وهذا السلوك فى جميع المجتمعات البشرية لاينشأ من التعليم والتلقين ، ولكنه وليد البيئة التى نشأ فيها ، . وولد بين جنباتها ، فالبيئة إلى جانب عنصر الوراثة ، هما اللذان يزودانه بحقائق الدين الذى توارثه الآباء والأجداد، وقد حكى الله ذلك عن كفار قريش حيث قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »(٢) ولكنه فتح عقولهم ، ونبههم إلى خطأ آبائهم ، فقال : « قل أو لو كان أباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون (٣) » :

وهنا يتأتى مجهود الفرد ، وتفكيره الخاص ، فهو يبذل بطريق غير مباشر عن طريق المحاكاة أو المدرسة أو الاستماع مجهودا فكريا ليتعرف حقائق هذا الدين ، كى تطمئن نفسه ، محاولا فى أثناء ذلك التوفيق بين هذه التركة التى وضعته فيها الأقدار ، وبين ما سمعه ، أو حكاه أو فعله ، وصدق رسول الله حيث قال : « كل يولد على الفطرة ، وأبوانه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (٤)» .

ونجد قلة فى مختلف العصور والبيئات قد ثار فى نفوسهم عراك نفسى حول حقيقة الدين الذى اعتنقوه أيا كان هذا الدين ، فاذا تضاعف احساسه

---

(١) انظر : كتابنا التربية الدينية : ١/١٣١ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧٠ .
(٤) رواه البخارى ، وأبوداود ، ومسلم فى باب القدر ٢٥ .

العقائدى بحقائقه وصحته ، فانهم يستمسكون به ويبقون عليه ، وان لم يشبع الدين فهمهم العقلى انطلقوا يبحثون عن دين آخر يرتضونه وتطمئن نفوسهم إليه ، ونتيجة لذلك تعددت الملل وو النحل والمذاهب ، وصدق الله حيث قال : « ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم (١) ».

الإسلام والصراع الفكرى :

وهنا تأتى عظمة الدين الإسلامى ، وآنه بحق خاتمة الأديان ، وأكملها ، فهو يتلافى هذا الضياع الذى قد يصادف الإنسان ، وهذه المعركة النفسية التى يقع بين فكيها ، فيطلب اليه آن يعمل عقله وفكره ، أن يعمل بصره ونظره ، ولسوف يخرج من وراء هذه النظرة بالهداية إلى الحق .

وقد حفز القرآن الإنسان — كما أوضحنا من قبل ، كى يستبين طبيعة ما يصادفه فى حياته من عقائد ومذاهب وموروثات ، وأهاب به أن يعيد النظر مثنى وثلاث ورباع . فى تقويمها ، وفى وزنها بمعيار الصدق والحقيقة، حتى نتبين الحق من الباطل ، والخير من الشر ، استمع اليه يقول : « أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى ، وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لايعلمون الحق ، فهم معرضون(٢) » .

ولاشك أن الإنسان المثقف ، صاحب العقل الواعى ، أوبمعنى أدق إنسان القرن العشرين الذى يعيش فى عصر التقدم العلمى والتكنولوجى أجدر الناس بهذه النظرة النافذة التى سترد اليه كثيراً من حقيقة نفسه وهدوء باله الذى فقده فى زحمة الحياة ، وتحت زحار وطأة الآلة ، وصراع المادة ،

---

(١) صورة هود ، الآية : ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٤

يقول الكسيس كاريل(١) « فى جميع الأزمان كانت الإنسانية تتأمل نفسها من خلال منظار ماون بالمبادىء والمعتقدات والأوهام ، فيجب أن نهمل هذه الأفكار الزائفة غير الصميمة ، حتى نتبين الحقيقة » .

هذه الحقيقة قد طلبها غير واحد من المفكرين الأجلاء ، بل أخلصوا لها حياتهم ، استمع إلى مقولة الإمام الغزالى وهو يصور المعركة النفسية والفكرية التى خاضها ، وهو بعد فى مقتبل حياته ، والتى كان ثمرتها كتابه(المنقذ من الضلال) : « لم أزل وأنا فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل العشرين، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولاظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولافلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولامتكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولاصوفيا إلا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولازنديقاً معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لاباختيارى وحيلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لانشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لانشوء لهم إلا على الإسلام ،

---

(١) هو أستاذ علم الكيمياء بمعهد روكفلر بأمريكا ، وهو فرنسى الأصل ، ويعرض كتابه (الإنسان ذلك المجهول L'homme cet incommu) لعظمة الله فى الكون والإنسان بروح علمية موضوعية تعارض الاتجاه الحضارى المادى المعاصر ، وقد ظهر الكتاب ١٩٣٦ ، وترجم إلى العربية .

وسمعت الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : (كل مولود يولد على الفطرة ، وأبوانه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) ، فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصيلة ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين . والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات . وفى تمييز الحق منها عن الباطل .

فقلت فى نفسى : ان مطلوبى .. هو : العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشاف لايبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم(١)».

العبادة والمسئولية :

إذا اضطلع شخص ما ، بأى مصلحة من مصالح المسلمين . فتلك أمانة ثقيلة فى عنقه عليه أن يؤديها بحسن التصرف فيها ، فالحاكم فى منصبه ، والرئيس فى موقعه ، والمسئول الذى وكل اليه أمر الإشراف على ناحية من النواحى الاجتماعية أوالإعلامية أو الثقافية أو السياسية أو العلمية أو الدينية أو المالية أو الاستثمارية أو التربوية .. إن أحسن التدبير ، فله أجر كبير ، وإن انحرف وأبعد الأخيار . واستعمل غير الأكفاء ، فقد استغل نفوذه ، وخان الأمانة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا ضيعت الأمانة ، فانتظر الساعة ، قال الأعرابى الذى كان يسأل عن الساعة : كيف إضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا وسد(٢) الأمر إلى غير أهله . فانتظر الساعة ، ومن استعمل رجلا من عصابة(٣) ، وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» .

---

(١) المنقذ من الضلال .
(٢) وسد : أسند .
(٣) عصابة : جماعة .

ان هؤلاء الذين يتطاولون على الدين ، وعلى حق الله لإشباع مآربهم الشخصية ، ويوسدون الأمر الديني بخاصة إلى غير أهله ، فقها وعلما ولغة ، أفلا يتقون الله ؟ أفلا يخافون عقابه ؟ أفلا يخشون يوما كان شره مستطيرا .

هؤلاء الذين أبطرتهم النعمة أو المناصب ، وأخذوا يزينون القول ، ويصبون ألوان الإغراء في آذان رؤسائهم كي يصيخوا لهم ، ويستمعوا إليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا ، لأن جنايتهم على الدين وعلى المجتمع كبيرة ، وما يعملونه هو هدم لأبناءه وسوف يحيق بهم سوء عملهم ، لأنهم يزلزلون القيم ، ويشوهون الحقائق ، ويقطعون الأواصر ، فيخرج الشباب والأجيال القادمة ، وهي حائرة ، مبلبلة الخاطر ، لاتدرى أين تتجه ، وقد سيطرت عليها العقائد الفاسدة ، والأوهام الزائفة .

ويقول الشيخ محمد الغزالى : « لقد رأيت بعد انعام النظر ، واستقراء الأحداث ، أن الباطل لايسير فى الأرض بقواه الذاتية ، وانما تسيره عوامل الرغبة والرهبة ، وتسنده الرشاد والمناصب ، وعندما تتخلى عنه يتهاوى من تلقاء نفسه .

أما الحق فان تجاوبه مع فطرة الله فى النفوس يجعله مقبولا مستحبا . ويقدره على تخطى العقبات واجتياز السدود ، أى أن الحق لايخشى الحرية أبدا . انما يخشى البغى . واستغلال النفوذ »(١) .

هذه الحقيقة التى وعاها الغزالى الكبير والغزالى الصغير ، هى قضية الكون الأرضى ، يقول الباحث الفرنسى كارليل : « سيكون علم الإنسان ، هو مهمة المستقبل ، فيجب أن نقنع الآن بالبداية ، سواء من الناحية التحليلية . أومن الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الإنسانية(٢)» .

---

(١) ركائز الإيمان : ٤٧ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول : ٢٥ .

لقد وضع الله لنا على طريق الهداية والمحجة البيضاء علامات على الطريق، وكانت أول علامات هذا الطريق ذلكم الكتاب الكريم ألا وهو: القرآن، وقال فيه: «ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم الطيبات. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا(١)»، ويقول كارليل: «ان الإنسان كائن عظيم حقا. ولكنه فى غاية التعقيد..، وليس من اليسير الحصول على تقديم عرض مبسط له، وليست هناك طريقة واضحة لفهمه فى مجموعه، أو فى أجزائه فى وقت واحد، كما لاتوجد طريقة لفهم علاقاته بالعالم الخارجى.

ان أشتات العلوم والفنون التى يستعان بها على فهم الإنسان، قد تلم بجوانب عنه. بيد أنها لن تبلغ غوره، وسوف تبقى — بعد مباحثها الكثيرة — فضلة عظيمة صلبة لايمكن تجاهلها، وقد تكون هذه الفضلة الأخيرة متصلة بأعماق الروح وأبعاد العقل.

ان الإنسان.. أبعد ما يكون عن ذلك الشبح الجامد. وربما تلاقت جهود شتى على ابراز ملامحه النفسية والفكرية. فهل استطاعت تلك الجهود أن تستكنه وأن تعرف طبيعة الإنسان وحقيقته؟ كلا.

وكل ما نسطتيع قوله: انه عبارة عن المواد الكيميائية التى تؤلف الأنسجة، وأخلاط الأجسام، انه تلك الجمهرة المذهلة من الخلايا والعصارات التى درس الفسيولوجيون قوانينها العضوية.

انه ذلك المركب من العضلات والشعور الذى يحاول علماء الصحة، والمعلمون أن يقودوه إلى الدرجات العليا فى أثناء نموه مع الزمن»(٢).

أما الإنسان فى عرف أهل السنة، فيصوره الإمام حسن البنا بقوله:

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.
(٢) الإنسان ذلك المجهول.

إما نحن المؤمنون ، فنقول ان الإنسان لطيفة ربانية ، ونفحة قدسية ، وروح من أمر الله ، خلقك بيديه ، ونفخ فيك من روحه ، وفضلك على كثير من خلقه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها ، وعرض عليك الأمانة فحملتها ، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، وسخر لك ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، وكرمك أعظم تكريم ، فخلقك فى أحسن تقويم ، وأعدك أكمل اعداد ، ووهب لك السمع والبصر والفؤاد ، وأوضح لك الطريقين وهداك النجدين ، ويسر لك السبيل ، فأنت باذنه وصنعته تغوص الماء ، وتطير فى الهواء ، وتسابق الكهرباء ، وتحطم الذرات ، وتتجاوز بتفكيرك وتقديرك أقطار السموات والأرض.. وصدق الإمام على حين قال :

دواؤك فيك ، وما تبصر
وداؤك منك ، وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى على العالم الأكبر (١)

ويقول الصوفى الكبير العز بن عبد السلام (٢):

إذا كنت تقرأ علم الحروف ... فشخصك لوح به أسطر
وتمثال ذلك من أنموذج ... لكل الوجود لمن يبصر
حروف معانيك لاتنجلى ... لذى الجهل ، كلا ، ولاتظهر
ومن يك غرا بأسرارها ... فمعروفها عنده منكر
إذا كان جسمك جسما صغيرا ... ففيك انطوى العالم الأكبر
فلاذرة منك إلا غدت ... بها يوزن الكون ، بل أكثر
ولا قطرة منك إلا وفى ... ينابيع أسرارها أبحر

(١) أحاديث الجمعة : ١٦ .
(٢) انظر : ترجمة مفصلة فى كتاب الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر (العز بن عبد السلام ، وطبقات الصوفية لنور الدين شريبة : ١٢٥) .

وكل الوجـــود إذا قسـتـه اليك . فذاك هو الأصــغر
وما فيــه من عرض حاضر يزول ، وأنت به جوهر
فأنت الوجود ، وكل الوجود وما فى وجودك لايحصر

الإنسان والمادة :

يقول كاريل : ان هذا الاهاب الطينى يدعو كل انسان إلى الانصراف والاهتمام بالأشياء التى تزيد من ثروته وراحته فى حين لايوجد من يدرك أن الصفة البنائية والوظيفية والعقلية لكل فرد يجب أن يتناولها يد التحسين. فان صحة العقل والحاسة الفعالة ، والنظام الأدبى ، والتطور الروحى تتساوى فى أهميتها مع صحة الأبدان ، ومنع الامراض المعدية .

إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية ، وقد يكون من الأجدى ألا نضفى مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء . ومن ثم فان من الأفضل كثيراً أن نوجه اهتماما أكثر إلى أنفسنا عن أن نبنى بواخر أكثر سرعة وسيارات تتوافر فيها أسباب الراحة ، وأجهزة راديو أقل ثمنا ، أوتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق .

ما هو مدى التقدم الحقيقى الذى نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أوإلى الصين فى ساعات قلائل ؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج من غير توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر باطراد من أشياء لاجدوى منها ؟ ليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن اعطائنا الذكاء والنظام الخلقى والصحة والتوازن العصبى ، والأمن والسلام .

يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر ونوجهه فى اتجاه

آخر . يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوجية ، لتتبع الأبحاث العقلية والروحية (١)» .

ويقول الدهريون : أنت أيها الإنسان أثر من تفاعل العناصر المادية ، والتطورات الفزيولوجية ، فالشعور والوجدان والفكر والإدراك والعزم والإرادة كل أولئك من آثار المادة الصماء ، ونتائج اختلاط التراب بالماء . وما الحياة إلا هذه الأيام المعدودات نقضي فيها اللبانات ، وننتهز الفرص واللذات :

إنما الدنيا طعـــام وشراب ومنـــام
فاذا فاتك هـــذا فعلى الدنيا السلام(٢)

ويقول فورد بلات وهو أحد دعاة هذا الاتجاه من مقال طويل: « لانستطيع أن نحدد كم من الوقت استغرقت البادرة الأولى من بوادر الحياة ، لكي تظهر .. وظلت العناصر تكافح وتناضل نحو خلق الحياة فى سكون وحركة لاترى » .

لقد ظهرت مجموعة من الجزئيات ، وهى سلالات معقدة من القطرات الهلامية البسيطة ، وتستمر هذه العملية حتى يتكون فى النهاية جزىء البروتين العجيب ، بعد وقت يبدو كأنه لانهائى ، وبعد تفاعلات وامتزاجات كيميائية لانهاية لها .

ويمكننا أن نقول : ان فرصة اتحاد ذرات الكربون والأوكسيجين والنيتروجين والأيدروجين ، وكذلك ذرات الفوسفور ، ومجموعة من العناصر الفلزية بالنسب اللازمة ، وفى الظروف الملائمة .. ان هذه الفرصة

---

(١) الإنسان ذلك المجهول .
(٢) أحاديث الجمعة لحسن البنا : ١٨ .

يمكن أن نقارنها بفرصة سقوط مجموعة من أوراق اللعب على مائدة بعد نثرها في الهواء ، بحيث يتألف منها مجموعات الأرقام مرتبة تماما .

وهذه الفرصة تكاد تكون مستحيلة ، حتى ولو ظللنا نكرر التجربة ، وننثر أوراق اللعب في الهواء ، كل ثانية وبلا انقطاع ، طوال التاريخ الإنساني . ولكن يمكن أن تتحقق هذه الفرصة البعيدة جدا يوما ما ، وأن يتكون جزيء البروتين» .

وهذا كلام يشوبه التخريف والخلط والخيال ولايعتمد على الحقائق العلمية(١) ، ولعل في كلام العالم الأمريكي فرانك إلن عالم الطبيعيات خير رد على هذه الفروض التي افترضها العالم السابق وذلك حيث يقول : « ان البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية ، وهي تتكون من خمسة عناصر : الكربون والأيدروجين والنيتروجين والأوكسوجين والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألف ذرة .

ولما كان عدد العناصر الكيمياوية في الطبيعة اثنين وتسعين عنصراً موزعة كلها توزيعا عشوائيا ، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة ، لكي تكون جزئيا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

وقد قام العالم الرياضي السويسري (تشارلس يوجين جاى Charles Y-Gay) بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة (واحد) إلى(عشرة) أس ١٦٠٠ ، أي بنسبة واحد إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة ،

---

(١) انظر : ركائز الإيمان لمحمد الغزالي : ٥٦.

وهو رقم لايمكن النطق به ، أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصـــادفة ، بحيث ينتج جزىء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .

ويتطلب تكوين هذا الجزىء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بملايين لاتحصى من السنوات ، قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها ٢٤٣ مرة من السنين» .

ويأتى أهل الإيمان كى يصلوا الأرض بالسماء ، والجسم بالروح ، والدنيا بالآخرة ، وليتحدثوا عن الإنسان وأصل تكوينه ، فيهدمون هذه التخرصات المقطوعة عن الله ، وذلك بدء يفرضه المنطق السليم [1]» .

يقول الدكتور (ج . ب . راين — Rayn) : ما نحن بنو البشر : أنا وأنت ؟ لقد عرف الكثير عن الإنسان ، ولكن طبيعته الأساسية التى تحدوه للتصرف بالشكل الذى يتصرف به مازالت سرا من الأسرار الغامضة .

فالعلم الطبيعى لايستطيع أن يفسر ما هى حقيقة العقل ، وكيف يعمل المخ ، ولايستطيع أن يفسر كيف تحدث الصحوة أو الشعور ، وأين يقع الفكر بين أنواع الظواهر الطبيعية ؟

ان النظريات المجردة ، أو الافتراض وحده معدوم فى هذه النواحى ، وهذا الجهل المطبق — عند من يعلم الكثير — منقصة ، فقد وسع العلم الطبيعى حدوده بنجاح فى اتجاهات كثيرة ، لقد اكتشف التطبيق ، وذرى الأرض وأعماقها ، وكل عناصر المادة ، كما أزاح الستار عن تركيب الكواكب البعيدة ، وأطلق الذرة بقوتها المدمرة من عقالها .

---

(١) ركائز الإيمان للغزالى : ٨٧ .

وها هو ذا يستكشف التركيب الدقيق للفيروس والطبيعة الغامضة للأمراض الفاتكة ، فكيف غاب عنه هذا السؤال الأساسي ، وهو : أين مكان الشخصية الآدمية فى نظام الكون ؟

ان الإنسان قد ترك مشكلة الذاتية فترة طويلة دون أن يركز بحثه فيها ، واستعضنا عن العلم بطبيعتنا معتقدات حولها ، لعل أولها ان الإنسان مكون من عنصرين : أحدهما مادى . والآخر لامادى ، وهو العقل والروح ، وان السلطان للروح ، وما الجسد إلا سكنى لها وأداة ، وبالطبع لانتحدث عن الروح إلا فى أيام خاصة كالآحاد بالنسبة للمسيحيين ، (والجمع بالنسبة للمسلمين) .. وفى باقى أيام الأسبوع استبدلنا بكلمة الروح كلمة العقل لتعنى الشيء نفسه .

أما وجود التفرقة الدقيقة بين الاثنين ، فلم تكن تعنينا ، وكان الرأى السائد أن العقل هو الذى يتحكم فى الإنسان وفى تصرفاته . وكان طبيعيا أن تنمو ثقافتنا ومعاهدنا حول عقل الإنسان ، ولم يقتصر الأمر على المدارس النظرية . بل تعداها إلى كل طرائق حياتنا وعوائدنا وأخلاقنا ومباهجنا وأطماعنا وقيمنا الخلقية كلها ، فقد أنبتت على تلك العقيدة ، وهى أن للإنسان طبيعة مزدوجة ، وأن عقله هو المركز الحقيقى لشخصيته .

ويستمر هذا المعتقد المتوارث مع الفرد حتى آخر فترة المراهقة ، أما بعد ذلك ، فلن يبقى للأسف إلا مع من تخلفوا عن التأمل أو اتمام التعليم العالى . وبين الشباب الذين يلتحقون بالدراسات العليا نجد بعضهم مازال مستمسكاً — فى وفاء — بمعتقداته الأولى خلال سنى دراسته الجامعية ، ولكن الاتجاه العصرى العام ينحو بعيداً عن فكرة الطبيعة المزدوجة أو الروحية للإنسان .

فحين يدرس الطالب العلوم التى تتعلق بالإنسان وأصله وتطوره ، وحين يعلم الصلة الوثيقة بين السلوك والمخ . وحين يرى إلى أى مدى تتحكم الغدد

فى شخصية الإنسان بالعوامل الكيميائية ، حينذاك تبدأ معتقداته فى التزحزح ، ويبدأ إيمانه القديم فى الانهيار.

وسيجد أن الطفل ينضج حينما ينمو مخه ، وأن هناك اتصالا بين وظائف عقلية خاصة ، وبين مناطق محدودة فى المخ ، فاذا أصيبت تلك تعطلت هذه الوظائف . وسيبدو أمام ناظريه أن الفكر والمخ يسيران متحاذيين حتى ليصل الباحث الصغير إلى التفكير فى أن المخ هو مركز التحكم فى السلوك وهذه هى المرحلة الثانية فيما يعرفه الإنسان، والمخ بطبيعة الحال قابل للدراسة بالطرق الطبيعية ، والخلايا العصبية التى يتكون منها هى جزء من عالم المادة والطاقة ، أما العقل فلاسبيل إليه .

فمن أى شىء يتكون ؟ وما هو إن لم يكن من طبيعة المادة ؟ يبدو أنه وظيفة للمخ ، أى مظهر من مظاهر النشاط المألوف لهذا الجهاز المادى الذى يسمى المخ . هكذا يسير التصور.

وعلى هذا نصل إلى أن الإنسان مادة صرف . وان العقل ما هو إلا تجلى المخ حين ينشط . ثم ينهى الطالب دراسة العلوم الطبيعية ، وقد تبخر الكثير من معتقداته الأولى عن الإنسان . وطبيعته المزدوجة . وأصله السماوى»(١).

الذكر والدعاء

الذكر :

إن ذكر الله يعد من أصفى العبادات وأطهرها. وقد ورد مطلقاً غير مقيد بزمان أومكان . وإن ارتبط أحيانا بالزمان والمكان . لفضل هذا الزمان كشهر رمضان . أو لفضل هذا المكان كالبيت الحرام . ولكنه بصفة عامة

---

(١) العقل وسطوته : ٢٥ (بتصرف).

غير مقيد ، لأن القصد انعكاس أثر ما وعاه القلب ، وما حاك فى الصدر ، قال سبحانه : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقتَ هذا باطلا ، سبحانك ، فقِنا عذاب النار »(١).

ولما كانت ألوان الذكر القلبى واللسانى قد يحجبها بعض شواغل الحياة الدنيا ، فقد عالج الإسلام تلك النوازع ، ووضع لها الدواء ، وذلك بماشرعه الله ، وشرعه رسوله من أنماط العبادة المتعددة فى كل حالة يمكن أن تخطر ببال الإنسان : فى مأكله ومشربه وملبسه ، فى حله وترحاله ، فى قيامه ونومه ، وما على الإنسان إلا أن يمارس ذلك ، وسوف يعينه الله ، وصدق حيث قال : « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ، ولاتكفرون »(٢) .

ولاشك أن ذكر الله لعباده أكبر وأعظم من ذكرنا له ، لأن الله حين يذكرنا يستطيع أن يثيبنا على عبادتنا ، وأن يجزينا على طاعتنا ، وامتثال أوامره ، وهو القادر على أن ينعم ويعطى ويحسن البناء أما نحن فذكرنا لايساوى شيئا بالنسبة لذكره لنا .

وذكر الله واجب سواء كنا فى حالة اليسر أم فى حالة الشدة ، فى السراء وفى الضراء ، وذكر الله فى السراء بالشكر على ما أنعم ، وذكره فى الضراء ، ليكشف ما أصاب وما ابتلى .

وفى الحديث القدسى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان لله — تبارك وتعالى — ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فاذا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٢ .

وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .

قال : فيسألهم ربهم — وهو أعلم بهم — ما يقول عبادى ؟ فيقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك . فيقول : هل رأونى ؟ فيقولون : لا ، والله مارأوك . فيقول : وكيف لور أونى ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدا وتحميداً . وأكثر تسبيحا .

قال : فما يسألونى . قالوا : يسألونك الجنة .

قال : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، والله يارب مارأوها . قال : فكيف لو أنهم رأوها .

قالوا : لوأنهم رأوها كانوا أشد حرصا ، وأشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فمم يتعوذون ؟ قالوا : من النار. قال : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، والله يارب مارأوها . قال : فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة .

قالوا : ويستغرونك . فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا (فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ، ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء ، لايشقى بهم جليسهم[1] »

وقال النبى صلى الله عليه وسلم — يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وان

---

(١) رواه مسلم فى كتاب العلم ، باب مجالس الذكر : حـ ١٠ ص ٢٥ ، ورواه الترمذى فى سنة : ٢/ ٢٨٠ ، ورواه البخارى فى كتاب الدعوات : ٢٠٦٩/١٠ ، وفى باب فضل ذكر الله : ٨٦/٨ ، واللفظ له .

ذكرني في ملأ . ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبر ، تقربت إليه ذراعا ، وان تقرب إلي ذراعا ، تقربت اليه باعا ، وان أتاني يمشي أتيته هرولة [1] » .

الدعاء :

على مسيرة الطريق الإنساني من لدن آدم حتى اليوم ، نجد حدائق غناء . حافلة بالأدعية والمأثورات من الدعاء [2] . فلا نكاد نتعرف على رسول ولانبي ، ولا ولي صالح ، ولامتصوف راهب إلا وجدنا له مأثورات يتقرب بها إلى ربه ، ولا نكاد نجد كتابا منزلا وصلتنا منه إثارات ، إلا وقد ضم بين دفتيه نماذج من الدعاء . فلماذا كانت هذه الأدعية ؟

إنها حبل الله تصل الإنسان بخالقه ، وتعرفه على معالم الطريق ، طريق السالكين ، وطريق الضالين ، أما السالك فسوف يزداد قربا ومعرفة ، وأما الضال فسوف يكتشف الحقيقة ، ويلوى عنقه نحوها . وينأى بجانبه عن وساوس الشيطان ، فقد ورد « أن الدعاء مخ العبادة »[3] وهذا تعبير دقيق ، فهو مركزها وروحها .

والدعاء له ثلاثة أبعاد : أولا أن يربطه الإنسان بالعمل . فلايتقاعس ولايتكاسل ، ويخلد إلى الأرض . ويقول : اللهم اعطني ، اللهم اعطني كذا وكذا ، كلا : ان السماء لاتمطر ذهبا ولافضة ، وإنما واجبه أن يعد

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد : ٩/١٩٢ ، واللفظ له ، ورواهمسلم في كتاب الذكر بثلاث طرق : ٤/٢٠٦١ ، وفي باب الحث على الذكر ،ورواه ابن ماجة:٢/٢١٨ ، ورواه الترمذي .

(٢) اقرأ في هذا : الكلم الطيب لابن تيمية ، والوابل الصيب لابن قيم الجوزية ، والأذكار والأدعية للنووي ، والمأثورات لحسن البنا .

(٣)رواه الترمذي ، الجامع الصغير : ٢/١٧ (ط . الحلبي) .

للأمر عدته ، ويهيء الأسباب ، ويكافح فى الحياة ، ولسوف تأتى ، رغباته وتتحقق نتائج أعماله ودعواته باذن الله .

وثانيا : أن يتوجه بالدعاء إلى خالقه وبارئه ، الذى يرزق ويعطى فى البر والبحر ، فى الأرض والسماء ، وأن يبتعد بدعائه عن مستوى الأسباب المخلوقة ، فيظن أنها تنفع أو تضر ، أو ترقى به ظنونه إلى حد الاعتقاد ، ولكن يجب أن يربط الأسباب بخالق الأسباب ومقدرها ..

ثالثا : أن يخلص هذا الدعاء لله ، وألا ييأس من رحمة الله ، بل يعاوده دائما أبداً فى إلحاح « فان الله يحب العبد الملحاح» وصدق الرسول عليه صلوات الله ، حيث قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » (١) .

ألوان من الأدعية :

ان من أدعية القرآن : قال سبحانه : « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان(٢) » . . وقال : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار(٣) » . وقال : « ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين »(٤).

بل إنه سبحانه يحض على طلب الدعاء والخير ، وأنه يغفر الذنوب

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٠١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

جميعا إذا أخلصنا التوبة ، فقال : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا[1] » .

٢ — من أدعية السنة : قال أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : قال الله : ياا بن آدم ، انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ماكان منك ولا أبالى ، ياا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى ، غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم ، انك لوأتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا ، لأتيتك بقرابها مغفرة[2] » .

ومن أدعية الرسول — وما أكثرها : اللهم أنت ربى لا إله إلاأنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفرلى ، فانه لايغفر الذنوب إلا أنت »[3].

وقال ابن عباس ، كان النبى — صلى الله عليه وسلم — إذا قام من الليل يتهجد ، قال : اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لك ملك السموات ، والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ،

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت . واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت»[4].

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .
(٢) سنن الترمذى (باب فضل التوبة) .
(٣) انظر : صفوة صحيح البخارى : ١٣٧/٤ (ط — السعادة ١٩٣٨).
(٤) رواه مسلم .

وفى الحديث القدسى ، قال : ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، حين حين يمضى ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فأعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟ فلايزال كذلك حتى يضىء الفجر (١)» .

وقال : « ما من عبد يعتصم بى دون خلقى أعلم ذلك من قلبه ونيته ، فتكيده السموات والأرض ومن فيهن ، إلا جعلت له من ذلك فرجا ومخرجا .

وما من عبد يعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السماء من فوقه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم أهلكه فى الدنيا وأتعبه فيها ».

وروى أنس ، قال : أوحى الله سبحانه إلى يوسف عليه السلام : من استنقذك من القتل حين هم إخوتك أن يقتلوك ؟ قال : أنت يارب . قال : فمن استنقذك من الجب إذ ألقوك فيه ؟ قال : أنت يارب قال : فمن استنقذك من المرأة إذ همت بك . قال : أنت يارب . قال : فما بالك نسيتنى ، وذكرت آدميا .

قال : يارب كلمة تكلم بها لسانى ، قال وعزتى وجلالى لأخذلنك فى السجن بضع سنين(٢)» .

٣ ــ من أدعية الصالحين : قال على زين العابدين : اللهم إنى أخلصت بانقطاعى اليك ، وأقبلت بكلى عليك ، وصرفت وجهى عمن يحتاج إلى رفدك ، وقلبت مسألتى ممن لايستغنى عن فضلك . ورأيت أن طلب المحتاج من المحتاج سفه فى رأيه ، وضلة فى عقله .

فكم قد رأيت يا إلهى من أناس طلبوا العز بغيرك فذلوا ، وراموا

---

(١) رواه مسلم فى باب الترغيب بست روايات : ٥٢٢/١ واللفظ له ، ورواه البخارى فى كتاب الدعوات : ٧١/٨ ، وأبو داود : ٣٦٤ ، والترمذى : ٩٠/١ .
(٢) روح المعانى .

الثروة من سواك فافتقروا . حاولوا الانقطاع فانقطعوا . فأنت يامولاى دون كل مسئول موضع مسألتى : ودون كل مطلوب إليه وبه حاجتى ، أنت المخصوص قبل كل مدعو بدعوتى ، لايشركك أحد فى رجائى . ولايتفق أحد معك فى دعائى . ولاينظمه واياك ندائى (١)» .

وقال جعفر الصادق : اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام . واكنفنى بركنك الذى لايرام ، واحفظنى بعزك الذى لايضام . واكلأنى فى الليل وفى النهار . وارحمنى بقدرتك على : أنت ثقتى ورجائى .

فكم من نعمة أنعمت بها على قل لك بها شكرى ، وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك بها صبرى ، وكم من خطيئة ركبتها فلم تفضحنى ، فيا من قل عند نعمته شكرى فلم يحرمنى ، ويا من قل عند بلائه صبرى فلم يخذلنى ويا من رآنى على الخطايا فلم يعاقبنى . يا ذا المعروف الذى لاينقضى أبدا ، وياذا الأيادى التى لاتحصى عددا . وياذا الوجه الذى لايبلى أبدا ، وياذا النور الذى لايطفأ سرمدا .

اسألك أن تصلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت وترحمت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . وأن تكفينى شر كل ذى شر . بك أدرأ فى نحره ، وأعوذ بك شره ، وأستعينك عليه : اللهم أعنى على دينى بدنياى ، وعلى آخرتى بالتقوى ، واحفظنى فيما غبت عنه ، ولاتكلنى إلى نفسى فيما حضرته ، يا من لاتضره الذنوب . ولاتنقصه المغفرة ، اغفرلى ما لايضرك ، وهب لى ما لاينقصك .

يا إلهى اسألك فرجا قريبا وصبرا جميلا ، واسألك العاقبة من كل بلية ، وأسألك الشكر على العاقبة ، وأسألك دوام العافية ، وأسألك الغنى عن الناس ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم » .

---

(١) انظر : جملة من أدعيته فى كتاب زين العابدين لعبد الحليم محمود(ط ـ دار الإسلام بالقاهرة ١٩٧٣) .

وورد للإمام الغزالى فى أثناء شرحه للأسماء الحسنى قوله : الكريم هو الذى إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء . ولايبالى كم أعطى ، ولا لمن أعطى . وإذا رفعت حاجة إلى غيره لايرضى . وإذا جفا عاتب وما استقصى ، ولا يضيع من لاذ به والتجأ . ويغنيه عن الوسائل والشفعاء . فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف فهو الكريم المطلق . وذلك هو الله تعالى فقط » .

الصـلاة

الصلاة (١) : هى الركن الثانى من أركان الإسلام ، وقد رسمها الله لعباده ودعاهم إليها ، وجعلها عنوانا على صدقهم فى الإيمان ، وعلى أنهم المتقون ، وقد جعل اقامتها أول عمل بعد الإيمان به وبرسوله يدل على صدق المسلم ، ويستحق به صاحبه إخوة المسلمين .

حكمتها :

للصلاة منزلة عظيمة فى الإسلام ، فهى عماد الدين ، من اقامها فقد أقام الدين ، ولذلك قال الرسول عليه السلام : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة .. الحديث(٢) » . وهى آخر وصية وصى بها النبى صلى الله عليه وسلم أمته عند مفارقته الدنيا . حيث جعل يقول ، وهو يلفظ آنفاسه الأخيرة :

---

(١) الصلاة : لغة الدعاء ، قال سبحانه : (وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) أى ادع لهم ، ومن معانيها الرحمة ، ومنه : (اللهم صلى على محمد) ، والعبادة ومنه قوله تعالى : (وما كان صلاتهم عند البيت) أى عبادتهم ، والقراءة ومنه : (ولا تجهر بصلاتك) .
وفى اصطلاح الفقهاء : أقوال وأفعال تبتدىء بالتكبير ، وتختتم بالتسليم (انظر : كتابنا التربية الدينية : ١١٧/١) وقارن بالقرطبى :
(٢) رواه الطبرانى ، الجامع الصغير للسيوطى : : ٢١/٢ .

« الصلاة الصلاة ، وما ملكت ايمانكم(١) » ، ولهذا يجب علينا أن نحرص على أدائها لما فيها من حكمة بالغة ، نتبينها فيما يأتى :

١ - فى الصلاة يقف الإنسان بين يدى ربه خاشعا متضرعا ، ويتذكر عظمته وقدرته ، فيمتلىء قلبه خشية وخوفا منه سبحانه وتعالى . وذلك يدفعه إلى الأعمال الصالحة ، واجتناب الذنوب والآثام ، وقد زكى الله فاعلى هذه الصفات ، فقال : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين على صلواتهم يحافظون»(٢).

وتكرار الصلاة خمس مرات فى اليوم يجدد التذكر والخشية ، ويصل المرء دائما بربه، فإذا هم بمعصية تذكر عظمة الله ، فانتهى عنها ، وأقبل على فعل الخير ، فيسلم المجتمع من الرذائل والمنكرات . قال تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر(٣)» . وقال رسول لله صلى لله : « أرأيتم لوأن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات . أيبقى ذلك من درنه شيئا ؟ قالوا : لايبقى ذلك من درنه شيئا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو بها الله الخطايا (٤) » .

٢ - وفى الصلاة يدعو الإنسان ربه ويركع ويسجد ، ويقوم بأعمال كثيرة تدل على خضوعه لربه ، وشكره على نعمته ، واعترافه بالفضل له ،

---

(١) رواه ابن حنبل والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حيان (انظر : الجامع الصغير : ٢/ ٥٠).
(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ١ - ٩ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٥ .
(٤) صفوة صحيح البخارى : ١ - ١٩٤

فيشعر بالطمأنينة والراحة ، لأنه قد أدى واجب الشكر ، فى هذا اللقاء القصير ، وهذه المناجاة الروحية التى تشده من عالم الدنيوى بمطالبه ومشاغله وملاهيه إلى العالم ربانى ليخلو لحظات إلى ربه يبثه ذات نفسه ، ويجدد صلته به .

وفى الحقيقة أن الصلاة هى التى تدعم صلتك بالله ، وتقوى ايمانك به ، وتشدك إليه صبحا وظهراً وعصرا ومغربا وليلا ، وتذكرك بالإقرار القلبى فى الشهادتين وانك واقف بباب ربك بالعشى والأبكار .

لولا احساسك بقداسة هذا الإله ، وأنه يراك ويسمعك ، ولا يخفى عليه أمرك لما قمت إلى الصلاة ليلا وشتاء وصيفا ، انه يقينك بالله .

٣ — والإنسان قبل الصلاة يتهيأ للطهارة والنظافة فى الثوب والجسم والمكان ، وذلك ليعوده الحرص على النظافة فيسلم من الأمراض ، ويستريح الناس لمخالطته والجلوس معه ، وإذا كان ثمة تطهير بواسطة الماء الطاهر المطهر لغيره ، أو بواسطة التيمم ، فان ذلك يرمز إلى وجوب تطهير الأعضاء من اجتراح الإثم ، واكتساب الشر ، وتطهير النفس من رذائل خسيسة ، والشهوات التى تسفل بها إلى عالم الحيوان .

انها تربية للروح والجسد ، تربية للدين والدنيا ، تربية للاعداد النفسى والخلقى ، تربية الإخوة فى الجماعات ، وتربية لوحدة الصف والجماعة ، وتربية على الفضيلة والنظام وتربية للمساواة والإخاء .

٤ — وأداء الصلاة ، خمس مرات فى أوقاتها يعود الإنسان المحافظة على المواعيد ، وتأدية الأعمال فى أوقاتها ، وانجازها فى دقة ونظام ، ونبذ التقاعس والتكاسل ، وما إلى ذلك من نزعات الشيطان وألوان الضعف الآدمي الذى يميل بالإنسان الأرض والخلود إلى الدعة والراحة ، قال سبحانه « ان الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ،

الذين هم على صلاتهم دائمون[1]» ، وقال : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون [2]» .

والصلاة وان اختصت بزمان معين ، ووقتا محدود ، فهى لاتختص بالمكان ، قال رسول الله : « جعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا[3]» كما لاتختص إقامتها برجل معين يؤم المصلين موقعها [4] :

كانت النفس الإنسانية موضوع عمل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومحور نشاطهولذا كان الإصلاح النفسى هو الدعامة الأولى لتغلب جانب الخير فى هذه الحياة ، وانقاذ الفطرة الإنسانية من غوائل الفساد ، وحتى تعود النفس إلى صفائها الأصيل ، ومن ثم فقد حصن الله رسوله ، كما حصن المؤمنين على تلاوة القرآن وابلاغه للناس ، قال سبحانه « ورتل القرآن ترتيلا» . وقال رسول الله : « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ؛ ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة [5] ».

ولاتكفى مجرد القراءة السطحية ، بل لابد من القيم والتدبر ، وميزة القرآن أنه يفسر نفسه بنفسه، فليس ثمة غموض أو مشقة بالنسبة لمتوسطى الثقافة ، قال تعالى : «كتاب أنزلناه اليك مباركا ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب[6] ».

وان الصلاة إذا واظب عليها صاحبها حملته على ترك الفواحش والمنكر ،

---

(١) سورة المعارج ، الآية : ١٩
(٢) سورة الماعون ، الآية : ٧ .
(٣) رواه ابن ماجه ، انظر : الجامع الصغير : ١-١٤٤ .
(٤) سورة المزمل ، الآية : ٤ .
(٥) رواه ابن حنبل ، انظر : الجامع الصغير : ٢-١٦٣ .
(٦) سورة ص ، الآية : ٢٩ .

ومن لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهاه عن المنكر « لم يزد بصلاته من الله إلا بعدا » .

فهناك من يصلى بالليل ، فاذا أصبح سرق أو زنى أو شرب الخمر أو لعب الميسر أو ارتكب اثماً من هذه الآثام التى حرمها الله لخبثها ، وسوء آثارها ، فان صلاته لم تنهه ، وانه ما أطاعها وما أداها على وجهها الصحيح ، لأن الصلاة الحقة تنبنى على الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ، والإخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكران يطهر نفسه ويرفعها إلى عالم الملائكة ، ومن ثم فقد ترتب على ذلك جملة آثار :

١ — الأثر الولائى : ان هذه الصلاة التى تتوالى مع فترات الليل والنهار تذكر الإنسان بموقعه الولائى من الله ، فهو وليه ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير ، وتذكره برسالته فى هذه الأرض التى استخلفه الله فيها، وتذكره بالمثل العليا التى رسمها الله لحياته ، من المساواة والتراحم والائتلاف والمحبة .

٢ — الأثر التهذيبى : لقد بين الله أثر الصلاة من الوجهة التهذيبية فى النفوس ، ووقايتها لمقيمها من الفحشاء والمنكر ، وتطهيرها له من غرائز الشر التى تفسد على الإنسان حياته ، ولذا فتركها(١) عنوان للانغماس فى الشهوات ، وسبب من أسباب دخول النار.

فهى تزكى أعمال الإنسان وتطهر نفسه ، وفى ذلك يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « ان لله ملكاً ينادى عند كل صلاة ، يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فأطفئوها »

---

(١) أجمع فقهاء المسلمين على أن من ترك الصلاة جاحدا فهو مرتد وخارج عن الإسلام، أما من تركها تكاسلا واهمالا ، فقال جمهور أهل السنة أنه يعد مرتكبا لإحدى الكبائر ، ولكنه ليس بكافر ، وذهب آخرون إلى أنه يكفر بالترك .

فأنت إذا استيقظت من نومك صباحا . فانك تطرق باب الله . وتقف بين يديه ، وأنت بذلك قد أقررت له بالعبودية والطاعة . قائما وراكعا وساجدا ، وقانتا لله حنيفا ، وقد استغفرته واستهديته واستعنت به ، وجددت الصلة بينك وبينه ، بعد نومك الذى قطع صلتك به . فأنت بذلك قد اطفأت نيران هذه الفجوة التى حدثت بسبب هذه القطيعة .

ثم إذا كان الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، أعدت ذلك الولاء . وأطفأت هذه النيران الكرة بعد الأخرى . لتقوى حبل الصلة بينك وبين ربك ، ولتنفض عن ظهرك أوزار الخطيئة ، ويصور الرسول عليه السلام أثر الصلاة فى حواره مع سلمان الفارسى يقول سلمان : أنه كان مع رسول الله تحت إحدى الأشجار ، فأخذ منها غصنا يابسا ، فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : يا سلمان ، ألا تسألنى لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟

قال : ان المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه ، كما تحات هذا الورق » (١) ، ثم تلا قول الله : « وأقم الصلاة طرفى النهار ، وزلفاً من الليل . إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين(٢) .

٣ ـــ الأثر الروحى : قال سبحانه : واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم اليه راجعون»(٣)، هذا الإحساس باللقاء يغرس فى النفوس قوة روحية عظيمة ، ويطهرها ويزكيها .

فاذا نادى المؤذن أنه(حى على الصلاة) فانك سرعان ما تلوذ بربك ، وتفضى اليه بذات نفسك ، لتريحها من الوساوس والأوزار التى تثقلها ، وتستمطر رحمته ، وتستمد مغفرته ، صدق الله حيث قال : « وهو الذى

---

(١) رواه أحمد ، والنسائى .
(٢) سورة هود ، الآية : ١١٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ ، ٤٦ .

ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد[1]» .

ان المصلى يستفتح صلاته بذكر (النية)، مقترنة بأن (الله أكبر) من كل كبير ، ويقرأ (الفاتحة) ويناجى ربه بما يشاء فى ركوعه وسجوده ، فينشرح صدره . وتهدأ بلابله . ويطيب خاطره، ومن ثم فالله يحض على أنه إذا حزبك أمر أو أعجزك موضوع « فاستعن بالصبر والصلاة » ، لأنك بذلك تلوذ بخالقك ، وتقصد الركن الركين الذى يأوى اليه كل من فى الأرض والسماء ، والله يقول فى الحديث القدسى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى قسمين . ولعبدى ما سأل ، فاذا قال العبد : « الحمد لله رب العالمين» قال الله عز وجل : حمدنى عبدى ، فاذا قال : « الرحمن الرحيم » قال الله : أثنى على عبدى ، فاذا قال : « مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى ، فاذا قال « اياك نعبد ، وإياك نستعين» قال الله : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فاذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » قال الله : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل »[2] .

ويزيد الرسول هذا المعنى وضوحا فيقول : « ان الرجل إذا دخل فى صلاته أقبل الله عليه بوجهه فلا ينصرف عنه ، حتى ينقلب ، أى يرجع ، أو يحدث حدث سوء[3] » .

وانظر إلى هذا الباب الذى يفتحه بين يديك رسول الله صلى الله عليه ، وسلم ، وذلك حيث يقول : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام

---

(١) سورة الشورى الآية : ٢٨ .

(٢) رواه مالك فى باب القراءة : ١-٤٣ ، والترمذى فى باب الفاتحة ٢-١٥٧ ، وأبوداود فى باب من ترك القراءة : ١-٢٨٨ ، وابن ماجه فى باب ثواب القرآن ٢٠-٢١٧ ، والنسائى فى باب من ترك القراءة : ٢-١٣٥ .

(٣) رواه ابن ماجه ، الجامع الصغير : ١-٧٩ .

ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد، فاذا هو قام فذكر الله انحلت عقدة ، فاذا توضأ انحلت عقدة ثانية ، فاذا قام إلى الصلاة انحلت عقدة الثلاث ، فأصبح طيب النفس نشيطا ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان (١) » ؟

٤ ــ الأثر الرياضي : وفي الصلاة يقوم الإنسان بأعمال وحركات تبعث في جسمه النشاط والقوة ، وتشرح صدره . فيقبل على عمله بعد الصلاة مطمئن النفس جم النشاط ، ونستمع إلى الطبيب الفرنسي كاريل ، حيث يقول في تبيان أثر هذه الناحية : لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا ، وقد رأيت بوصفي طبيبا كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزاً وتسليما ، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من العلل .

ان الصلاة كعنصر (الراديوم) مصدر للأشعاع ، ومولد ذاتي للنشاط ، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون القوة التي لا يفنى نشاطها .

اننا نربط أنفسنا حين نصلي ، بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبسا منها نستعين به على معاناة الحياة ، بل ان الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحدا ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج(٢)» .

هذه هي منزلة الصلاة(٣) في الإسلام ، وحكمتها البالغة ، وأثرها الطيب ، فيمن يواظب على إقامتها ، فمن الواجب علينا أن نحرص على أدائها في أوقاتها

(١) رواه البخاري.
(٢) الإنسان ذلك المجهول : ٧٥ .
(٣) انظر الصلاة من حيث قواعدها الفقهية في كتابنا التربية الدينية : ١-١١٧ بعرض جديد ، وصيغة حديثة .

لننتفع بمزاياها العظيمة فى الدنيا ، وثوابها الجليل فى الآخرة . قال عليه السلام : خمس صلوات افترضهن الله عز وجل ، من أحسن وضوءهن ، وصلاتهن لوقتهن، وأتم ركوعهن ـ كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل ، فليس له على الله عهد ان شاء غفر له ، وان شاء عذبه[1]» .

(١) رواه أبوداود ، والبيهقى ، انظر : الجامع الصغير : ٢-٦ .

الزكاة

الزكاة[1] : هى الركن الثانى من أركان الإسلام ، وهى دعامة من دعائم المجتمع الإسلامى ، وقد فرضها الله سبحانه على كل مسلم ذكر كان أو أنثى ، مالك لمقدار[2] معين من المال مضى عليه الحول[3] ، وهو فى ملك صاحبه ، فيما سوى الحبوب والثمار[4] .

وجوه المال : نسوق الزكاة هنا لامن حيث كونها عبادة تعبدية نعبد بها الله، ولكن نسوقها باعتبارين: باعتبارها عبادة مالية، وباعتبارها سلوكا إسلاميا يعد أحد ركائز الإسلام ، وهى من حيث الاعتبار الأول قد أخذت مستويات ثلاثة المستوى الأول أنها (بر وصدقة) ، أما كونها بر ، فقد قال الله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب.. » .

وأما كونها صدقة ، فهى من هذا الوجه كأنها عقبة ، وذلك نظراً ، لأن المال شقيق الروح تضن به على أقرب المقربين ، فما بالك بغير الأقربين، وكان على المسلم أن يكسر شهوة المال فى نفسه ، وأن يجتاز هذه العقبة ، فيطعم الطعام ، ويبر اليتيم ، والمسكين ، قال تعالى : « فلااقتحم العقبة ،

---

(١) منها زكاة الفطر ، وزكاة المال وتشمل : الذهب والفضة ، والأنعام ، والزروع، وألوان التجارة .

(٢) يختلف المقدار من نوع لآخر ، وهى فى المال ٢,٥ فى المائة (انظر تفصيل ذلك فى كتابنا التربية الإسلامية ١ - ١٧٣ (ط – المعارف ١٩٦٣) .

(٣) العام الكامل .

(٤) يجب فيها العشر إذا اعتمدت فى سقيها على ماء السماء ، ونصف العشر إذا كانت تسقى بالآلات .

وما أدراك ما العقبة فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ..(1)» .

المستوى الثانى : أنها اتفاق فى سبيل . وقد حدد الإسلام لهذا الانفاق سياسة قويمة تدور على جملة أمور منها :

١ — الترغيب فى الانفاق والتشويق اليه ، والتوسع فى العطاء ، وبذل الخير والمعروف ، قال سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء(2) » ، وقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم (3)» ، وها هو ذا رسول الله يرغب فى الانفاق ، ويمدنا بعشرات الأحاديث فى هذه السياسة التى تدل : على ان الله يقبل الصدقة بيمينه ، ويربيها لصاحبها ، كما يربى آحدنا مهره ، حتى تصير الثمرة مثل جبل أحد ، ونعتقد أنه ليس وراء هذا الترغيب والتشويق زيادة لمستزيد أو طامع من أصحاب الأموال ، وأهل الجود والكرم .

٢ — الترهيب والتخويف من البخل وكنز المال ، فالإسلام يحارب الاحتكار ، ويهاجم الأثرة فى عنف وقوة ، ومن أساليب الأخطاء كنز الأموال فى الصناديق والخزائن ، قال تعالى :« والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون (4) ».

فأيما مال سواء أكان من الذهب أو الفضة أوغيرها لم تؤد زكاته ،

---

(١) سورة البلد ، الآية : ١٢ — ١٦ .
(٢) سورة البقرة ١٢ الآية : ٢١٦ .
(٣) سورة الحديد ، الآية : ١١
(٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ ، ٣٥ .

ودفنه صاحبه فى باطن الأرض ، أو خزنه فى الخزائن والبنوك دون أن يطهره بالزكاة الواجبة فيه فيعتبر كنزا يستحق صاحبه العذاب فى الآخرة ، لأن أمثال هذا الشخص قد منعوا حقاً مشروعا من حقوق الله ، فلم يعطوه لمستحقيه ، ولاهم أنفقوا شيئا منه فى سبيل إعلاء كلمة الله ودينه .

هؤلاء الذين آثروا جمع الأموال على رضاء الله ، وأداء الواجب سوف يعذبون بها يوم القيامة فى السعير ، فيحمى عليها فى نار جهنم ، وتتخذ وقودا وحطبا تسعر فى أجسادهم .

فحبس المال عن التداول والاستثمار ، يؤدى فى الوقت الحاضر بالذات إلى الحاق الضرر بالمجتمع ، وإلى اختلال سياسة التوازن المالى والتجارى والاقتصادى ، لذلك نهى الإسلام عن كنز المال ، وتعطيل هذه القوة الفعالة فى حياة الأمم والشعوب من القيام بواجبها ، فالدينار المتداول جندى عامل فى الميدان ، والدينار المكنوز جندى أسير فى السجن .

فهذا المال الذى تؤدى زكاته ينبغى استغلاله فى مشروعات اقتصادية وعمرانية ، مما يزيد دخل الأفراد ، ويحارب البطالة ، ويكثر من نسبة الأيدى العاملة ، وهناك رأى يقول : ان كل مال حبسه صاحبه أو ادخره عنده دون الانتفاع به ، حتى ولو أدى زكاته ، فهو مال مكنوز يندرج تحت باب الكنز ، عملا بقول الرسول عليه السلام : «من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ، ولايعده لغريم ، ولاينفقه فى سبيل الله ، فهو كنز ، يكوى به يوم القيامة (١) .

وقد حارب الإسلام هذا الاتجاه كما ترى من حديث الرسول ، لأنه حتى لو زكاه وتركه — كما هو محبوسا ، فان الزكاة سنة بعد أخرى سوف

---

(١) انظر كتابنا التربية الإسلامية : ١-١٦٩ .

تلهمه ، فلاتذر منه شيئا ، ولذلك حض الرسول الكريم الأوصياء على أموال اليتامى : أن يتجروا فيها ، حتى لاتأكلها الزكاة [1] » .

٢ — التحذير من الإسراف والتنبيه إلى التوسط ، فقد أمرنا الدين بالسعى لكسب المال ، ودعانا فى الوقت نفسه إلى المحافظة عليه ، وذلك بعدم انفاقه إلا فى الأبواب النافعة التى تعد أساس الحياة وضرورياتها كالأكل والمشرب والملبس والمسكن .. وسائر الوجوه المشروعة ، قال عليه السلام : « نعم المال الصالح للرجل الصالح[2]» ، فالمال هو عضد الإنسان فى الحياة ، قال عليه السلام :« ان كان لك مال ، فلك حسب[3]» .

والمحمود فى الانفاق هو اتباع سياسة الاقتصاد والتوفير دون سرف أو تبذير ، ففى الإسراف طريق إلى الضياع والمذلة ، لأن الإنسان يعرض نفسه للاستدانة والفقر ، والاستدانة كما نعلم هم بالليل وذل بالنهار ، قال رسول الله : « ان الرجل إذا غرم حدث فكذب ، ووعد فأخلف[4]» .

وفى التقتير طريق إلى البخل والشح ، ومنع النفس والأهل من لذائذ العيش . وقد جاء الإسلام قواما بين هذا وذاك ، قال سبحانه : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما [5] » ، وقال :« ولا تجعل يدك مغلولة . إلى عنقك ، ولاتبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا[6]»

وقال عليه السلام « من اقتصد أغناه الله ، ومن بذر أفقره الله [7]»

---

(١) انظر : السنن للترمذى .
(٢) روضة العقلاء للبستى .
(٣) رواه البيهقى فى المحاسن .
(٤) رواة الزبيدى فى باب بدء الأذان .
(٥) سورة الفرقان ، الآية : ٦٧ .
(٦) سورة الإسراء ، الآية : ٢٩ .
(٧) الاحياء : باب الحرص والطمع : ٣٠ .

وقال : «كل ، واشرب ، والبس ، وتصدق في غير سرف ولامخيلة (١)» .

٣ ــ الابتعاد عن انفــاق المال في الطرق المحرمة التي لايرضاها الله ، ولايرضى عنها العقلاء كانفاقه في الخمر والميسر والمراهنات ، قال سبحانه : يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه(٢) » .

الإسلام والملكية الخاصة :

لقد أقر الإسلام الملكية الفردية ، وشجع على التوسع فيها ، ومنع الاعتداء عليها ، متى وصلت إلى صاحبها من وسائلها المشروعة ، ولم تضر بالمجتمع أو الصالح العام . يدل لذلك عمل الرسول عليه السلام ، وأئمة المسلمين من بعده . والتشريعات التي وضعها لبيان طرق التملك ، وفرضه الالتزامات على تلك الأموال . ويجابه صيانتها ، قال سبحانه ، يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم . ولا أولادكم عن ذكر(٣) الله ، وقال : « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم(٤) » ، وقال عليه السلام ، « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ، ومن ترك ما لافلورثته » (٥)

ويقول : الأستاذ حسن البنا : ولاشك أن القرآن بسياسته هذه قد أقام الاقتصاد الاجتماعي على المزج بين أصلين أساسيين : أولهما الاعتراف بمواهب الفرد ، وحقه في ثمرات كسبه ، وعدم الحد من جهوده في هذه السبيل ، مادام يكتسب من حلال طيب لا إثم فيه ولاعدوان ، وهذا هو الأساس

---

(١) بلوغ المرام ، باب الأدب : ٢٦٩ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٩٠ .
(٣) سورة المنافقون ، الآية ، ٩
(٤) سورة النساء ، الآية : ٢ .
(٥) رواه ابن حنبل ، والشيخان ، والنسائي والترمذي ، وابن ماجه انظر : الجامع الصغير : ١-١٠٨ .

الذى قام عليه النظام الذى يسمونه فى هذا العصر ، بـ (الرأسمالية) وهو وحده لا يؤدى إلى صلاح المجتمع أو استقرار الأمور بين الناس على وفاق وصفاء، فكان لابد من المزج بينه وبين الأصل الثانى وهو: تقرير حق المجتمع فى كسب الفرد ، ووجوب التكافل بين أبناء الأمة الواحدة وهو الأساس الذى قام عليه النظام الذى يسمونه فى هذا العصر بـ (الشيوعية) ، وهو وحده كذلك ، لايؤدى إلى صلاح المجتمع ، أو استقرار الأمور فيه بين الناس على وفاق وصفاء ، فكان لابد من المزج بينه وبين الأصل الأول .

نظام القرآن :

جاء نظام القرآن بهذا المزج بين أفضل ما فى النظامين السابقين ، حيث أخذ محاسن هذا وذاك ، وقدمها للناس فى صورة معقولة ، عمادها تقديس الإخوة الإنسانية ، وروحانية العاطفة ، وحب الخير ، والإيمان بالجزاء العادل من الله فى الدنيا والآخرة ، حتى أقر الأجانب المنصفون بذلك ، قال المستشرق الفرنسى ماسينيون : « إن لدين الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة ، التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ».

ويقف فى الوقت نفسه إلى جانب الملكية الفردية ، ورأس المال التجارى، وبذلك يحل الإسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية ، ونظريات البلشفية الشيوعية » .

ويقول الأستاذ حسن البنا : ان ثمة نفوسا نافرة جامحة لاتهزها عظمة الإسلام فى هذه الناحية ، ومن ثم أوجب الإسلام تدخل الدولة لحماية هذا السمو بالتشريع تارة ، وبالقتال تارة أخرى إذا احتاج الأمر إلى ذلك ، ومن هنا قال الخليفة الأول أبوبكر الصديق : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا

يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم عليه[1] ».

حرية التصرف :

إن الإسلام يخول للمالك الحق الكامل فى حرية التصرف فى أمواله ، ولكنه لايسمح بهذه الحرية إلا فى حدود الاكتمال العقلى ، فهو لايسمح بها لمن ليس أهلا لها (لصغر ، أو سفه ، أو جنون) ويأمر بتنصيب قيم على هذا الشخص القاصر ، حتى يحسن التصرف فى ماله ، فيسترد سيادته آنذاك ، قال سبحانه : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم »[2] وقال : « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم »[3] لأنه حينئذ اك قد اكتملت أهليته فله أن يتصرف التصرف المطلق بيعا وشراء ، شريطة ألا يعود من وراء هذا التصرف ضرر على أن حد لقوله عليه السلام : « لاضرر ولاضرار »[4] .

وعلى هذا الأساس فليس من حق ساكن البيت أن يحدث فيه ما يؤذى جيرانه ويقلق راحتهم ، وليس من حق راكب السيارة أو الدابة ، أن يطلق لها العنان فيعرض الناس للحوادث ، وليس من حق التاجر أن يتغالى فى أقوات المسلمين أو يعمد إلى رفع الأسعار ، وحبس السلع ، قال عليه السلام « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين يغلى عليهم ، كان حقا على الله أن يقذفه فى جهنم » وليس من حق صاحب المصنع ، ولامن حق الزارع أن يحتكر نوعا معينا من الصناعة أو الزراعة يعود من ورائه ضرر على أفراد المجتمع .

فاذا تجاوز المالك حقه المشروع فى الانتفاع بملكه ، أو التصرف فيه ،

---

(١) انظر جمهرة خطب العرب .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٥ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٩ .
(٤) رواه ابن حنبل ، وابن ماجه ، انظر : الجامع الصغير : ٢-٢٠٣ .

وجب على ولى الأمر بحكم ولايته التى منحه الله اياها أن يتدخل لحماية الناس بما يمنع الأذى ، ويرد مادية العدوان ، ويدفع الضرر ، ويجب على ولى الأمر أن يتخذ من الوسائل ما يحقق به التوازن الاقتصادى ، والاجتماعى بين أفراد الأمة ، ففى الحديث : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لازاد له» .

المستوى الثالث : أنها زكاة محدودة بشروط وقواعد ونصاب معين ، وهذا ما سنعرض للجانب النظرى منه ، أما الجانب التطبيقى فموضح مشروح بتوسع فى كتابنا (التربية الدينية [1]).

حكم الزكاة :

تجب الزكاة على كل قادر مالك للنصاب وجوبا مؤكدا ، فمن جحد وجوبها فقد كفر ، وإذا امتنع عن أداء هذه المعاونة المحتومة ، أخذها الحاكم قسراً ولو بالقتال ، كما فعل أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — مع ما نعى الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

حكمة مشروعية الزكاة :

الزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب ، وكفى ، وإنما هى قبل كل شىء غرس لمشاعر الحنان ، وتوطيد لعلاقات التعاون بين الناس ، لأن أساس الإسلام أن يكون بين المسلمين إخوة وتعاون ، والزكاة هى مظهر التعاون ، وعلامة الأخوة بين المسلمين ، ووسيلة التكافل بين أفراد المجتمع الإسلامى . ومبعث حكمتها النظرة التضامنية ، والنظرة الاجتماعية ، والنظرة الإنسانية :

---

(١) التربية الدينية : ١-١٦٧ .

(١) النظرة الفردية : تقوم على تضامن الأفراد . فان نزول الأغنياء عن قدر معلوم في الزائد عن حاجتهم ، لمن يستحق هذا الواجب من الفقراء ، فيه تحقيق لمعنى التكامل . والتضامن الذى أوجبه الإسلام بين أبنائه ، قياما بحق الفقير . وسد حاجته . وحفظ ماء وجهه عن ذل السؤال . فيطهر قلبه من الحقد والحسد للأغنياء الموسرين الذين حرموه من حقه ، قال سبحانه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها » .

ونلمس في هذا الجانب تعاضد الأفراد وتعاونهم فيما بينهم . حتى لا تقع العين على جائع ربط بطنه . ولا على متسول يتكفف الناس ، لأن الغنى قام بواجبه نحو حمل الفقير . واعطائه حقه ، فارتقى به في مجال الكرامة الإنسانية فجعله يعاني السؤال . ويأنف المسألة ، ويستكفي بما أفاء الله عليه من مشاركة أخيه المسلم له .

وقد يرتقى هذا العطاء إلى درجة الإيثار ، وتطهير النفس من وباء الشح . ومرض البخل ، وقد مجد الله هذا الصنف من الناس . فقال : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم . ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه . فأولئك هم المفلحون (١) » .

وقد ينحط إلى درجة البخل والمنع ، وهذه الفئة من الناس التي بخلت حق الفقراء انما يبخلون على أنفسهم ، ويجب أن يفهموا جيدا . أن العطاء والزكاة . ليست للفقراء أو للأصناف الثمانية فقط ، وإنما ثمة جوانب أخرى لا تقل عن مشكلة الفقر تتطلب العلاج نفسه ، والصدقة نفسها ، فهناك واجب ازاء الذين يقدرون على العمل ، ولكن لا يجدون اليه سبيلا ، لأن أبواب الرزق قد أوصدت في وجوههم . وهناك حق للطفولة المشردة التي

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ٨ .

جنى عليها اختلال الأسرة ، أو الطفولة النابغة التى تتسم بالذكاء والنبوغ ولكن لاتجد سعة من المال لتواصل تعليمها ، وتستكمل دراستها ، وهناك حق للعجزة الذين تقدمت بهم السن ، ولم يعودوا قادرين على الكسب ، والقيام بأود أنفسهم ، وما أجمل كلمة أبى عبيد بعد أن عدد الأصناف الذين تقدم اليهم فقال : كل هذه الآثار دالة على أن مبلغ ما يعطاه أهل الحاجة من الزكاة ليس له وقت — أى حد — محظور على المسلمين ألا يتعدوه إلى غيره ، وان لم يكن المعطى غارما ، بل فيه المحبة والفضل ، إذا كان ذلك على جهة النظر من المعطى بلا محاباة ولا إيثار هوى ، كرجل رأى أهل بيت من صالحى المسلمين أهل فقر ومسكنة ، وهو ذو مال كثير ، ولامنزل لهؤلاء يأويهم ويستر خلتهم ، فاشترى من زكاة ما له مسكنا يكنهم من كلب الشتاء وحر الشمس ، أوكانوا عراة لاكسوة لهم — فكساهم ما يستر عوراتهم فى صلاتهم ، ويقيهم من الحر والبرد ، أو رأى مملوكا عند مليك سوء قد اضطهده وأساء ملكته ، فاستنقذه من رقه ، بأن يشتريه فيعتقه ، أو مر به ابن سبيل بعيد الشقة ، نائى الدار ، قد انقطع به ، فحمله إلى وطنه وأهله بكراء أو شراء .

هذه الخلال وما أشبهها ، التى لاتنال إلا بالأموال الكثيرة ، ولم تسمح نفس الفاعل أن يجعلها نافلة ، فجعلها من زكاة ماله ، أما يكون هذا مؤديا للفرض ؟ بلى ثم يكون محسنا — ان شاء الله — وانى لخائف على من صد مثله من فعله ، لأنه لايجود بالتطوع ، وهذا تمنعه بفتياء من الفريضة ، فتضيع الحقوق ، ويعطب أهلها(١) » .

(ب) النظرة الاجتماعية : فى تحقيق فريضة الزكاة قيام بحق الجماعة فى إقامة المشروعات العظيمة ، والمنشآت الجديدة فقطرة المطر — وحدها — ضعيفة ، فاذا اجتمعت كونت سيلا تفيض به الأنهار ، كذلك الفرد ضعيف بنفسه ، كبير باخوانه ، فلاتتسع ثروته لأن يستقل وحده بالمشروعات الضخمة ،

(١) الأموال :

أو ينهض بعبء المؤسسات الواسعة ، التى لا بد منها للأمة ، محافظة على حياتها بين الأمم ، فلا بد من تضافر الأفراد لإبراز المشروعات ، والقضاء على عوامل الفقر ، فإن البنيان إذا ترابطت لبناته ، وتماسكت أجزاؤه زادت قوته ، وبذلك يتجلى قول رسول الله صلى الله عليه سلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً فالإسلام لا يرضى ولا يقبل أن يوجد بين جوانبه من لا يجد القوت أو يتكفف الناس أو من يلتحف السماء ويفترش الأرض ، ولا يجد المسكن الذى يأويه ، فهذه الضروريات إذا حالت ظروف مرضية أو اجتماعية أو اقتصادية دون تيسرها للأفراد ، فالإسلام يفرض على الدولة التكافل ، والرعاية والعدالة الاجتماعية .

(جـ) النظرة الإنسانية : فى إعطاء الزكاة ، تحقية لألوان كثيرة من المبادىء الإنسانية التى يتغنى بها بعض المفكرين ، وبعض البلدان الأوروبية ، وقد سبق الدين الإسلامى إلى ذلك سبقا لن يلحق فيه ، وذلك بدعوته المبادىء التعاونية والتكافلية والإنسانية التى تستهدف النظرة الإنسانية ، وتتجرد من شبهات الحقد والشح فلا أساس للجنس أو العنصرية فى أصولها ، ولا للتعصب أو اللون فى قواعدها ، ولا للقومية أو الإقليمية فى مفاهيمها ، وإنما هى روح الإسلام وجوهرة الأصيل الذى نزل بوحى السماء ، يروى أبو عبيد بن القاسم أن عمر حين فرض للناس ساوى بين العرب والموالى ، ثم كتب إلى أمراء الأجناد : « ومن أعتقتم من الحمراء (١) ، فأسلموا ، فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وان أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم ، فاجعلوهم أسوتكم فى العطاء والمعروف(٢) » .

كذلك لم يفرق عمر بن الخطاب بين الناس على أساس السن أو الرق أو الحرية ، أو الجنس أو المسلمين وغير المسلمين وفى ذلك يقول الرسول الأعظم ، ومشرع الإنسانية : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم

---

(١) العرب تسمى الموالى : الحمراء ، يعنى الفرس والروم .

(٢) الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام : ٢٣٥ (تحقيق محمد حامد الفقى ـ ط ، المكتبة التجارية ١٣٥٣) .

لعياله[1]» ويروى القاضي أبو يوسف أن عمر بن الخطاب ؛ مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخا كبيراً ضريرا البصر ، فضرب عضده من خلفه ، وقال : من أى أهل الكتاب أنت ؟ قال : يهودى . قال : فمألجأك إلى ما أرى من التسول ؟ قال : أسأل الجزية . والحاجة ، والسن .

فأخذ عمر بيده . وذهب به إلى منزله ، فرضخ له بشيء من المنزل ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال ، فقال : انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه حين أخذنا منه الجزية وهو شاب ، ثم نخذله عند الهرم.. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ، وقرر لهم نفقة فى بيت المال[2] » .

ويذكر أيضاً أبوعبيد عن ابن عباس : أنه كان ناس لهم أنسباء وقرابة من يهود بنى قريظة والنضير . فكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم على الإسلام ، فنزل قوله سبحانه : « ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لاتظلمون[3] » .

ويترجم لنا الدكتور عيسى عبده عن أحد المفكرين الأجانب وهو بسبيل الحديث عن التشريع الإسلامي ، وعن الزكاة باعتبارها طريقا لتحقيق العدالة الاجتماعية ، والكفاية الاقتصادية ، والحرية والمساواة ، وتيسير سبل العدالة لجميع المواطنين — دون تفريق بينهم — وتلك أهم المقاييس التى تقاس بها جودة النظريات والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فيقول : « وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه فى تاريخ البشرية عامة ، فضريبة الزكاة التى كانت تجبر طبقات الملاك والتجاروالأغنياء على دفعها ، لتصرفها الدولة علىالمعوزين والعاجزين من أفرادها هدمت السياج الذى كان

(١) رواه أبويعلى ، انظر : الجامع الصغير : ١-١٢ .

(٢) الخراج : ٧٢ (بتصرف) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٢ .

يفصل بين جماعات الدولة الواحدة : ووحدت الأمة فى دائرة اجتماعية عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الإسلامى على أنه لايقوم على أساس الأثرة البغيضة » (١).

آداب العطاء : لقد وضع الإسلام للعطاء والانفاق آدابا كثيرة . وردت فى القرآن والسنة . نجتزىء منها بعض هذه الجوانب ؛ فالإسلام يطالب :

أولا : أن يكون العطاء مبرءاً . من شبهة المن والأذى ، والاحتقار والازدراء عند تقديمه لمستحقه ، بل يجب أن يصاحب ذلك نظرة المودة والرحمة ، قال سبحانه : يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كالذى ينفق ماله رئاء الناس . ولا يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلداً ، لايقدرون على شيء مما كسبوا (٢)» . وقال سبحانه : قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى (٣) » .

ثانيا : ألا نرجو من وراء عطائنا جزاء أو شكورا ، وإنما يجب أن يكون خالصا لوجه الله ، ولوجه الحق والواجب . فذلك أربى عند الله . وأفضل . قال سبحانه : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم اوجه الله . لانريد منكم جزاء ولاشكورا(٤) » وقال : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله، وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل . والله بماتعملون بصير(٥) » .

---

(١) الإسلام والنظام العالمى الجديد : ٢٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٣ .
(٤) سورة الدهر ، الآية : ٨ ، ٩
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٥ .

ثالثا : ألا نقوم بالعطاء علنا إلا لحكمة ، وألا تصاحبه الدعاية الكاذبة ، ليقال عنك أنك تصدقت وأنك زكيت ، وأن يشير عليك الناس بالبنان : هذا هو رجل العطاء والإحسان ، وإنما يجب أن يكون فى طى الكتمان ، بحيث يتحقق حديث الرسول عليه السلام ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه » ، وصدق الله حيث قال : « ان تبدو الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء ، فهو خير لكم (١) ».

رابعا : اللين فى الرد عند الاعتذار ، إذا قصدك سائل أو محتاج أو صاحب ضائقة مالية خانقة ، فيجب أن يكون اعتذارك لطفا ، واعراضك مهذباً ، قال سبحانه : « وأما السائل فلاتنهر(٢)» ، وقال : « وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها ، فقل لهم قولا ميسوراً (٣)».

أما وقد اتبعت هذه السبيل الجميلة ، وسلكت هذا السلوك الحسن ، سوف يقبله ويطهره ، وسوف يخلعه عليك بأفضل منه ، فالمال فى حقيقته مال الله ، فهو الذى أعطى ، وهو الذى منع ، وواجب الإنسان أن ينفق من عطاء الله وماله الذى جعله مستخلفا عليه ، قال سبحانه : « وءاتوهم من مال الله الذى آتاكم (٤)» ، قال : و« انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه(٥)» . وقال : « أنفقوا مما رزقناكم(٦) » .

وكما قلت آنفاً إنها عبادة مالية ، وهى سلوك اجتماعى ، فيجب على المسلم أن يؤديها امتثالا لأمره سبحانه ، وشكراً له على نعمائه ، وأن يكون ذلك الأداء مصحوبا بالنية الطيبة ، نية القربى والطاعة ، نية الشكر والوفاء ، نية

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٩ .
(١) سورة الضحى ، الآية : ١٠ .
(٢) سوزة الإسراء ، الآية : ٢٨
(٤) سورة النور ، الآية : ٣٣
(٥) سورة الحديد ، الآية : ٧ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٤ .

الحمد والفضل . قال رسول الله : « ثلاث من فعلن فقد طعم الإيمان : من عبد الله وحده . وأنه لا إله إلا الله ، ومن أعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه[1]» زكية بها روحه وإلا كانت مغرما وسوءاً ، قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعلها مغنما ، ولاتجعلها مغرما[2] » .

مصارف الزكاة :

تصرف الزكاة إلى الأشخاص الذين أمر الشارع بصرفها إليهم ، وهم الثمانية الذين ورد ذكرهم فى الآية الكريمة : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل . فريضة من الله . والله عليم حكيم[3].

وكذلك يمكن أن تخرج إلى جهات أخرى غير هؤلاء الثمانية كما أشرت سابقا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد سأله رجل من بنى تميم ، فقال : يارسول الله ، انى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة . فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ .

فقال رسول الله « تخرج الزكاة من مالك ، فإنهـا طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين . والجار والسائل »[4]فثمة أمور هنا لم تذكرها الآية .

ويجوز صرف الزكاة إلى صنف واحد من هؤلاء المذكورين ، وتفضيل صنف على صنف إذا كانت المصلحة العامة لاتتحقق إلا بذلك ، فقد منح الرسول عليه السلام جميع أموال الفىء (وهو ما يغنمه المسلمون صلحا)

---

(١) رواه أبوداود :

(٢) رواه ابن ماجه :

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٦٠ .

(٤) سورة الحشر ، الآية ٧ .

من بنى النضير للمهاجرين خاصة ، ولرجلين فقيرين من الأنصار . ليقرب بذلك بين حالات المهاجرين الذين تركوا أملاكهم فى مكة ، وحالات الأنصار المقيمين فى أرضهم بالمدينة ، وليمنع ذلك التفاوت فى ملكية الأموال » .

وفى هذا يقول سبحانه : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم[1] » إلى أن يقول : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله » .

(١) سورة الحشر ، الآية : ٨ .

الصـــوم

تعريف الصوم *

الصوم : هو أن تمسك الإنسان عن شهوة البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بشرط أن ينوى ذلك . والنية هى قصد الصوم .

حكمة الصوم :

كما فرض الله الصوم على الأمم السابقة فرضه على المسلمين ، وأنه سبحانه جلت قدرته . وعظمت حكمته . حين تعبدنا بالصوم فى هذا الشهر المبارك . ألا وهو شهر رمضان . وجعله علينا كتابا موقوتا ، وصيره فرضا محتوما . لم يرد أن يشق علينا فيه بالصوم لمجرد اخلاء المعدة من الطعام أو الشراب . أولمحض فطام النفس عما تميل إليه بأصل فطرتها . وحرمانها مما تشتهيه بأصل خلقتها . من غير أن تكون هناك مصلحة تترتب على هذا التشريع الحاسم . وفائدة تعود منه على الصائم ، وإلا لخلت أحكام الله من الحكم .

وحاشا لله ، هو الحكيم العليم . اللطيف الخبير ، أن يخلو حكمه من حكمة ظاهرة ، وفائدة باطنة . ففى الصوم فائدتان : فائدة البدن وفائدة الروح . وفى الصوم السعادتان : سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة ، ففى الصوم تزكية للجسم ، فهو يزكو بالامتناع عن الأكل والشرب ، والكف عما تشتهيه

(*) انظر الصوم من حيث حكمه وفرضيته وشروطه وأنواعه ومبيحاته ، ومفسداته وكفارته فى كتابنا التربية الدينية : ١-١٥١ .

النفس بنية القربة إلى الله، ويصح بالحمية ؛ فنحن نعرف بالتجربة ، وبواسطة الطب : أن المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وليس كالصوم فريضة تستريح فيها المعدة من عناء الامتلاء المرهق للأمعاء، والمفضى بصاحبه إلى كثير من العلل والأدواء . وكم من مريض لم يستطع أن يحمى جسمه خلال شهر من السنة ، فحماه الطبيب الطعام والشراب طوال أيام السنة . وصدق رسول الله حين قال : « صوموا تصحوا »(١)، وقال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان ولابد — فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه(٢) ».

فالصوم لم يفرض علينا وعلى الأمم من قبلنا إلا سعيا وراء تحصيل صفة جليلة فى الإنسان ، وهى التراحم والتعاطف والصبر ، وتقوية الإرادة ، واحياء الضمير ، وإبعاد النفس عن شهواتها المادية ، وجعلها طاهرة نقية .

فرض الله الصوم ليتحرر الإنسان من سطوة غرائزه الشهوانية ، ومن جبروت ميوله الحيوانية ، وسلطان نفسه الأمارة بالسوء ، هنا ترقى النفس المطمئنة إلى عالم الطهر والخير والجمال، عالم الملائكة . فاذا هو روحانى الفكر ، ربانى الدعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لاترد دعوتهم الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ..»(٣).

---

(١) انظر : الترغيب للطبرانى .

(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجة .

(٣) رواه الترمذى ، وأحمد ، وابن ماجه :

غاية الصوم :

للدين الإسلامى تكاليفه القولية والفعلية والمالية التى تعبدنا الله بها ، وله عباداته التى فرضها علينا ، ولكل من هذه التكاليف والعبادات أغراضه وأهدافه وغاياته .

ومن تلك الغايات ما يعود على الفرد بخاصة ، ومنها ما يعود على الإنسانية ، ومنها ما يعود على المجتمع ، ومنها ما يعود على الفرد والمجتمع معا . ومن هذا الضرب الصيام الذى كتبه الله علينا ، وعلى من سبقنا من الأمم.

والله سبحانه يقول فى بيان طرف من غاية الصوم « لعلكم تتقون (١) » وهذا معناه أن الصوم يعد نفس الصائم ، بتقوى الله تعالى ، وذلك لتركه شهواته الطبيعية المباحة امتثالا لأمر خالقه ، وتسليما بعبوديته ومراقبته . فهو يجوع ويلوى العطش أمعاءه ، وهو يعطش ، ويفرى الظمأ عروقه ، لا عن حرمان مادى أو اجتماعى ، بل هى ميسورة له ، وحاضرة بين يديه ان شاء نهل منها ، ولكن حبا فى الله ورغبة فى رضائه ، فهو يتركها ويلجم جسده ونفسه بلجام الصيام ، قال عليه السلام فيما يرويه عن ربه : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فانه لى ، وأنا أجزى به ، يدع طعامه من أجلى ، ويدع شرابه من أجلى . ويدع لذته من أجلى ، ويدع زوجته من أجلى »(٢) هذا من جانب .

ومن جانب آخر فان هذا الصنيع يعد وسيلة ناجعة لترك ارضاء الشهوات المحرمة ، والصبر عنها ، فيكون اجتنابها عندئذ أيسر عليه . هذا إلى جانب تربيته مشاعر الرحمة والحنان .

---

(١) يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون (سورة البقرة) الآية : ١٨٣ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب اللباس : ٧-١٦٤ وفى التوحيد : ٩-١٤٣

أبعاد الصوم :

١ — المراقبة والخشية : ان الصوم امتناع عن الأكل والشراب وما اليهما، وليس ذلك فقط، بل ان الصائم يراقب ربه، ويخشاه، ويحرم نفسه من كثير من المتع من أجله، ويستحيي من اقتراف شيء من الذنوب والآثام مثل غش الناس والكذب عليهم، وتناول أعراض الغير والخصومة .

فالصائم يترك طعامه وشرابه من أجل ربه، ويمتنع عن اشباع شهواته المادية، سواء منها ما يتصل ببطنه، أوما يتصل بفرجه، ويراقب ربه عن الدنو مما يفسد الصوم، لارقيب عليه فى ذلك سوى ضميره الذى يسيطر عليه، ويوجهه إلى خشية الله .

ولذلك كان كل عمل يعمله المخلوق يعود عليه بالحسنات أضعاف ماعمل . فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصوم فان الله سبحانه يجزى به أكثر مما قدر للحسنات الأخرى .

والصيام وقاية لصاحبه وصيانة له عن الشرور يحميه من الفساد، قال رسول الله : « الصيام جنة، فاذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث، ولا يصخب . فان سابه أحد أو قاتله، فليقل إنى صائم »(١) .

والصوم الحقيقى الجدير بهذه الكلمة — يجنب صاحبه الفسق، ويجعله يتنكب طريق العدوان على الغير، وايذاء الناس؛ وإنه يتأدب بآداب الإسلام . ويجتنب ما نهى الله عنه(٢) .

وإذا كان الصوم عصمة ووقاية لصاحبه من الشرور والآثام فانه من طرف آخر كاسر للشهوة البهيمية، ولهذه الطاقة الجنسية التى أودعها الله فى

---

(١) رواه البخارى فى باب الصوم : ٣-٢٤ .

(٢) انظر كتابنا التربية الدينية ٠ ١-١٥٧ .

الإنسان . فبدلا من أن يأثم . ويطرق الأبواب غير المشروعة ، فقد فتح الرسول أمامه باب العلاج . فقال : « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج . فانه أغض للبصر . وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء »(1).

٢ ـ تربية الإرادة والكفاح : ثبت عمليا أن الصوم يربي الشخصية الإنسانية الكاملة القوية . ويخلق من الإنسان قوة تستطيع أن تتخطى كل الصعاب . والصوم يمرن الفرد على الكفاح والجهاد في سبيل الحق والخير ، ويكون فيه العزيمة التي تصمم على الوصول لتحقيق الرغبات الطبيعية ، ثم الإرادة القوية التي تنيل صاحبها ما يريد بعد أن تذلل ما يعترضه من عقبات ، والصبر على ماقد ينويه في هذا السبيل . وبهذا يعين الصيام على تكامل شخصية الإنسان .

٣ ـ تفتح القلوب بالتعاطف والدعاء : حين يقدم شهر رمضان على المسلمين كل عام فان قلوبهم تتفتح للتوبة ، وتسارع إلى المغفرة ، وتطرق أبواب السماء ، ويكثر الدعاء ، وتعمر بيوت الله ، وينبعث منها ضوء ساطع يقود خطانا إلى الخير والهداية .

وكما تتفتح القلوب إلى التوبة : فهي تتجه إلى تزكية روح الإخاء والتعاطف الإنساني . والبر بالفقراء . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتنقبض الأيدي عن الحرام فلاغش ولاخداع . ولاشح ولاجدل ولاجدال ولاعدوان ، وإنما سلام ومحبة .

٤ ـ الذكرى والعهد الجديد : يرى المسلمون في شهر رمضان ذكريات عديدة تزكي في نفوسهم بواعث الخير والروحانية ، فالذكرى الأولى هي ذكرى نزول القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى ، والفرقان ، ذلك الكتاب

(١) رواه البخاري .

الذى أشاع بين الناس جميعا مبادىء العدل والإحسان والحرية والإخاء والمساواة .

والذكرى الثانية ذكرى الشريعة السمحة الغراء التى وضع القرآن أصولها ، وجاء الرسول فزادها تفصيلا وبيانا فى ذكرى ليلة القدر التى تعد خيرا من ألف شهر فى المنزلة والعمل والخير ، الليلة التى تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . الليلة التى هى سلام حتى مطلع الفجر .

الذكرى الثالثة : ذكرى الفتح فتح مكة ، وصدق الله حيث قال : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وينصرك الله نصرا عزيزا (1) » .

الذكرى الرابعة : ذكرى أول نصر للإسلام ، وذلك فى غزوة بدر ، تلكم الغزوة التى كانت فارقة بين الحق والباطل ، ودعمت أسس الإسلام وركائزه .

أما العهد الجديد ، فقد كان شهر رمضان إيذانا ولاشك بعهد جديد للإنسانية كلها ، ورحمة للعالمين من جميع الأجناس والألوان والشعوب ، حيث شاءت إرادة الله وحكمته أن يبدأ نزول القرآن فى شهر الصوم ، ليخرج العالم مما كان يتخبط فيه من ضلاله ، ويشقى من ظلم ، والقرآن هو الذى حرر الضعفاء من سلطان الأقوياء وجبروتهم .

---

(1) سورة الفتح ، الآية : 1 ، 2 .

الحـــــج

معنى الحج :

الحج : هو الذهاب لبيت الله الحرام بمكة المكرمة ، لتأدية ركن من الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا(١) » .

وقت الحج :

الحج ركن من أركان الإسلام ، فرضه الله علينا ، وعين لأداء هذه الفريضة أشهراً معلومة(٢) من السنة العربية ، وهي : شوال وذو القعدة وذو الحجة ، وقد عنى الإسلام بأشهر الحج ، ولفت أنظار المسلمين إلى ما لهذه الأشهر كلها من بواعث البر والتقوى ، بواعث الترفع بالنفس عن مواطن الإثم والطغيان وانتقاص الحقوق والواجبات .

حكمة الحج :

قال سبحانه : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » لماذا ؟ .. « ليشهدوا منافع لهم »(٣) فللحج منافع

---

(١) انظر : : صفوة صحيح البخاري : ١-٢٣ .

(٢) قال تعالى : « الحج أشهر معلومات » سورة البقرة ، الآية .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٢٦ ، ٢٧ .

كثيرة نعرضها عليك فى شىء من التفصيل ، لنتعرف فيها إلى حكمة الحج :

١ — هو مؤتمر كبير يجتمع فيه المسلمون كل عام من جميع أنحاء الأرض ، ويتشاورون فيما يرفع شأنهم ، ويعلى كلمتهم ، ويقوى رابطتهم الإسلامية ، ويدفعهم إلى توحيد سياستهم فى الداخل والخارج . والتعاون على درء المغير ، وصد المعتدى عن بلادهم ، وتقوية أواصر التبادل الاقتصادى والعلمى والثقافى .

٢ — وهو مظهر من مظاهر الإخوة ، والوحدة الإسلامية يتعارف فيه المسلمون ، ويتآلفون فى ظل المحبة والإخاء ، وقد وحد الدين بينهم ، وربط بين قلوبهم .

ويقول الأستاذ حسن البنا : « ينتهز بعض الذين لايعلمون الحكمة البالغة والنظرة السامية فى هذا التشريع الحكيم ، هذه الفرصة ، فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثراً ببقية من وثنية العرب ، وأن الكعبة والطواف من حولها ، والحجر الأسود واستلامه ، وما يحيط بذلك من معانى التقديس والتكريم ، ان هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر .

وهذا القول بعيد عن الصحة ، عار عن الصواب ، فالمسلم الذى يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر الأسود ، يعتقد اعتقادا جازما أنها جميعا أحجار لاتضر ولا تنفع ، ولكنه إنما يقدس فيها هذا المعنى الرمزى البديع ، معنى الإخوة الإنسانية الشاملة ، والوحدة العالمية الجامعة ، ويذكر فى ذلك قول الله العلى الكبير « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » [١]

والرمزية هى اللغة الوحيدة لتمثيل المعانى الدقيقة ، والمشاعر النبيلة التى لا يمكن أن تصورها الألفاظ ، أو تجلوها العبارات .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ، ٩٧ .

والذى يعظم علم وطنه يعلم أنه فى ذاته قطعة نسيج لاقيمة لها ماديا ، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معانى المجد والسمو التى يعتز بها وطنه . وأنها تصور أدق المشاعر فى وطنيته . فهو يحيى هذا العلم ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعانى التى تجمعت جميعا وتمثلت فيه .

والكعبة المشرفة علم الله المركوز فى أرضه ، ليمثل به للناس أوضح معانى إخوتهم ، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم ، وإنما كانت بناء ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء ابراهيم الخليل أبو الأنبياء .

وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء ، ونقطة التمييز فى هذا البناء ، وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء ، على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء « اللهم إيمانا بك — لا بالحجر وتصديقا بكتابك — لا بالخرافة — ووفاء بعهدك — وهو التوحيد الخالص ، لا الشرك ، واتباعا لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم محطم الأصنام .

فأين هذه المعانى الرمزية العلوية ، من تلك المظاهر الوثنية الخرافية ؟ إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد ، ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معانى الإنسانية العالمية . والإخوة بين البشر جميعا وصدق الله حيث قال : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا (١) » ..

وإذا كان ثمة من ينظر إلى الكعبة نظرة مغرضة من الأجانب ، فهناك من يهديه الله إلى تقرير الحقيقة . كهذا الذى قررته المستشرقة الإيطالية الدكتورة فاغابرى ، قالت : « إن على كل مسلم ، إذا توفرت فيه بعض

---

(١) مجلة الشباب ، العدد ٣ السنة الأولى : ٥١ ، وقارن بأحاديث الجمعة : ١٤٦ (ط. الدار السعودية للنشر بجدة ١٩٧٢) .

الشروط أن يقوم بالحج الى مكة مرة واحدة فى حياته على الأقل ، ومن طبيعة القوى العميقة المكنونة فى هذه الشعيرة أن يعجز العقل البشرى عى اعتناقها إلا فى القليل النادر .

ومع ذلك فان ما يمكن استيعابه من تلك القوى ، فى سهولة ويسر ، يتكشف عن حكمة كاملة ، فليس فى استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التى يجنبها الإسلام من اجتماع المسلمين السنوى فى مكان واحد يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم .

إن العرب ، والفرس ، والأفغان ، والهنود ، وأبناء شبه جزيرة الملايو ، وأبناء المغرب ، والسودان ، وغيرهم كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم ، وهم إذ يلتقون فى مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض ، إنما ينشئون صلات جديدة من المحبة والأخـوة .

مرة واحدة فى حياة المسلم على الأقل تلغى الفروق كافة بين الفقير والغنى ، بين الشحاذ والأمير ، الغاء تاما ، ذلك أن كل حاج مسلم يلبس ، خلال أداء تلك الفريضة المقدسة ، الثياب البسيطة نفسها ، ويخلف وراءه حلله الشخصية ، ويتخذ لنفسه شعارا واحداً ليس غير.

هو كلمة(الله أكبر) ، والشعائر التى يتعين على الحجاج أداؤها ، من مثل الطواف ببيت الله (الكعبة) توقظ فى نفسه ذكرى الأنبياء والآباء العظام الذين عاشوا فى المواطن نفسها خلال العصور السالفة .

انها تعيد إلى الحياة أعمال ابراهيم مؤسس الدين الخالص ، وأعمال ابنه اسماعيل وزوجته هاجر ، وهى توقظ فى الحاج النزعة إلى تقليدهم فى تاطعفهم ، وفى خضوعهم لمشيئة الله [1]» .

---

(١) دفاع عن الإسلام : ٢٥ .

٣ – المساواة : وفيه يكون المسلمون جميعا على قدم المساواة أمام الله ، لافرق بين غنى وفقير وعظيم وحقير ، ورئيس ومرءوس كل أولئك قد سوى بينهم المظهر الجديد ، فهم سواسية كأسنان المشط ، وكل يتجه إلى ربه فى خضوع وتضرع ، وقد طرح عن نفسه رداء الكبر والتباهى ،

« فهذا الإحرام الذى يتجرد فيه كل حاج من ثيابه ، ويرتدى ثوبين بسيطين كل البساطة : ازارا ورداء لاغير ، إنما هو إعلان لهذه المساواة بين الناس ، بزوال شارات التفريق التى تحملها هذه الملابس العادية ، باختلاف قيمها وأشكالها وألوانها ».

وقد أكد الرسول عليه السلام هذا الجانب من شعائر الحج فى خطبة الوداع ، فقال : « أيها الناس ، ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى ، ولالعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد[1].

٤ – الأمن والتكريم : ان فى الحج تقديسا وتكريما لأول بيت وضع للناس ليعبد فيه الله ، أقامه سيدنا ابراهيم وولده اسماعيل ، وظلت الكعبة من بعد ذلك مثابة للناس وأمنا ، لكل قاصد منذ أنشئت حتى يومنا هذا ، قال سبحانه : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار ، وبئس المصير ، وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا ، انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا

---

(١) رواه أحمد .

مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم[1]» .

٥ ــ التوبة والمغفرة : ان الحج فرصة طيبة للتوبة والمغفرة ، وموسم دينى حافل بضروب العبادة والذكر ، وطاعة الله ، فتصفو النفوس ، وترق المشاعر ، فاذا طاف الحاج بالبيت الحرام ، فعمله دعوات صاعدة « لبيك اللهم لبيك » وابتهال ودعاء « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»[2] ، والتجاء إلى رحمة « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا »[3].

والتجرد من مظاهر الحياة الدنيا ، فالإنسان مركب من عنصرين : أرضى وهو الجسد ، وسماوى وهو الروح ، وقديما قام النزاع الحاد بينهما ، كما يكون بين الشيئين أحدهما للآخر ضد وعدو ، لهذا كان لابد من دافع قوى يجذبها بشدة عن هذه الحياة المادية ، بما يستوجب ذلك من اعراض عن ماديات الحياة وبهارجها .

وهذا الدافع هو الحج الذى فيه زيارة البيت العتيق الذى أضافه الله إلى نفسه تشريفا له ، وفيه القيام بعبادة تنتظم من الإنسان قلبه وبدنه وماله ، وليس ذلك لغيرها من العبادات ، وفيه ذكر الله عند الطواف وعند الصفا والمروة وعند الوقوف بعرفة ، وعند المشعر الحرام، وذلك استجابة لقوله : « فاذا أفضتم من عرفات ، فاذكروا الله عند المشعر الحرام[4]» ، وفيه رجم للشيطان ، وعود إلى باب الرحمن .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٥ – ١٢٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٠١ .
(٣) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٨ .

مناسك الحج :

ومناسك الحج ، هي الإحرام ، والتلبية ، والطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، والمشعر الحرام (المزدلفة) ، ورمي الجمار ، وذبح الهدى .

وقد جعل الله للزمان والمكان حرمة وقداسة ، فكل من رحل إلى البيت الحرام فى هذا المكان المخصوص يجد فيه الأمن والاطمئنان ، ويدخل فى هدنة الرحمن الرحيم ، فالسيوف تسكن فى أغمادها ، والقلوب تتجه إلى ربها ، وقد فرض الله على الناس حج البيت ، أى قصده لمن استطاع تحمل مشاق السفر اليه ، وقدر على التزام تبعاته المادية والمعنوية .

ومع هذا التجرد لعبادة الله ، فهى ليست عبادة معزولة عن الحياة ، بل موصولة بها ، حيث كان بعض المسلمين يتأثمون فى أيام الحج من أى عمل من أعمال الدنيا ، فأرشدهم الله إلى العبادة والكسب ، قال سبحانه : « وليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات(١) » .

وروى ابن عباس قال : «كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية ، فتأثموا (أى تورعوا عن اقتراف أعمال التجارة) أن يتجروا فى الموسم (٢) . فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزل قوله سبحانه : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم »(٣).

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٨ .
(٢) البخارى.
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٨ .

الباب الثالث

القيم الروحيـــــــــة

الحـــرية

العـــدل

الســلام

التقـــوى

الوفـــاء

المســـاواة

القيمة :

ان القيمة فى عالم الروحانيات والأخلاقيات والجماليات غير محددة ، وهى انسانية نسبية ، بمعنى أن الشخص هو الذى يخلع عليها عنصر التحديد والتقويم ، ومن ثم تختلف من شخص إلى آخر ، فمايراه بعض الناس جميلا ، قد يراه آخرون قبيحاً ، وقد تختلف القيمة بالنسبة للشخص الواحد فى حالين مختلفين ، حال الفرح والسرور ، وحال الحزن والألم ، لأنه يعكس عليها ذاته ، فاذا نظر إلى الهواء فى حال السرور رآه نسيما عليلا ، وهواء رطبا ينعش النفس والجسم ، وإذا نظر اليه فى حال الحزن رآه يئن ويعصف ويكاد يخنقه .

نظرة الفلاسفة :

ان نظرة الفلاسفة إلى القيمة والموجودات تختلف اختلافا كبيراً ، فالموجودات تخضع للإدراك العقلى ، ويمكن أن تقاس قياسا مضبوطا ، أما القيمة فهى ذاتية انسانية ، ويصعب قياسها ، لأنها تعبر عن معنى ، أو عن فكرة ، فنحن حين نقول : ان ثمة قيمة ، فليس معنى هذا أننا نستطيع أن نضع أصابعنا عليها ، كلا ، ولكنا نستطيع أن نعيها وأن نحس بها وأن نعتنقها ، ونعيش من أجلها .

ونلحظ أن الإنسان ينساق وراء شهواته فى اختيار القيمة وقليلا ما يحكم العقل ، والحكمة ، لأن الشهوات الجامحة تميل إلى النقيض المسفل الملتصق بالطين ، وتنأى عن الجانب العلوى المتصل بالسماء .

القيمة الروحية :

ان القيمة الروحية نابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان ، لأنها من صنع الله الذى خلق النفوس وزودها بفجورها وتقواها ، فاذا تعلق

الإنسان بالقيمة الدينية أضاءت حياته ، ومنحته طاقة لاحدود لها فى مجال الحرية ، والعمل ، والعلم ،و السلام ، والمحبة ، والحق ، والخير ، وخير ما يوضح القيمة فى الأذهان هو عامل المقابلة ، فقد نقول : (اليمين) فان (الشمال) يقابله ، وعندما نقول : (النور) فان (الظلام) يقابله أو بمعنى أدق هو ضده .

الإسلام والقيمة :

حينما جاء الإسلام أشاع بين جنبات الأرض قيما جديدة على غير مألوف القيم والعادات السائدة بينهم ، وأخذ يدعو إلى اعتناق هذه القيم عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجدلهم بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(١)

إن القيمة الإسلامية كالجوهرة ما زالت هى صالحة لكل زمان ومكان وما علينا إلا أن ننفض عنها غبار الأوهام والخرافات ونقدمها ناصعة وضاء ، وأن ندعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، فنرفع الرؤية من التقليد والمحاكاة إلى الوعى والتفكير ، ونحاول أن نفتح هذه العقول التى استحكم اغلاقها ، واستنامت إلى تفكير الغير وتقليده « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، إنا على آثارهم مهتدون (٢) » .

الصراع بين القيم :

يصور الدكتور فؤاد الأهوانى الصراع بين القيم فيقول : لما كانت القيم فى أساسها متقابلة بين طرفين قد يتباعد أحدهما عن الآخر تباعدا شديدا يبلغ حد التضاد ، كالإيمان والفكر ، والتقوى والفجور ، والصلاح والفساد ،

---

(١) سورة النمل الآية : ١٢٥

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٢٢ .

والضلال والهدى ، والإسراف والتقتير ، والخير والشر ، والشجاعة ، والجبن .. كان لابد من وقوع صراع بينها[1].

وفى الإسلام اسم جامع لذلك الشيء الذى يدفع المرء نحو استجابة شهواته فيعتنق الشر والباطل ، وينأى عن الخير والحق ، ذلك الشيء هو النفس الأمارة بالسوء ، والشيطان ، وهذا الشيطان هو تجسيد لنوازع الشر والطين فى الإنسان ، فالإنسان فى حقيقته : جسد وروح ، لطيفة ربانية وسر من أسرار الله قد أودعه الله فى غلاف من طين — كما أوضحنا ذلك من قبل — قال تعالى : « إذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين [2] ؛ ولهذه الصفة الربانية أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم ، وما أصدق صاحب لامية العرب حين قال :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم انسان

ولكن تأبى النفس الأمارة بالسوء ويأبى الشيطان إلا أن يميل بالإنسان مع جانب الطين فيه، وصدق الله حيث قال : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ، وقد خاب [3]من دساها » ، فاذا أخضع الإنسان نوازع روحه لمطالب جسده ، وحكم غريزته فى طهارة نفسه ، استحال إلى قرين للشيطان ، وأقبل على السير بمحض إرادته ورغبتها وحريتها فى طريق معاكس لطريق الفضيلة والخير ، من هنا جاءت المسئولية ، وحق الثواب والعقاب ، ولكن العاقل هو الذى يستطيع أن يكبح جماح شهواته وأن يضبطها لتسلك سواء السبيل .

---

(١) انظر : القيم الروحية .
(٢) سورة ص ، الآية : ٧٢ .
(٣) سورة الشمس ، الآية : ٩ .

« وقد صور الله فى قصة آدم ، وخروجه من الجنة ، كيف استمع لإغراء الشيطان، فأكل من الشجرة المحرمة هو وزوجه ، وكان جزاؤهما الخروج من الجنة ، والهبوط إلى الأرض .

والشهوات التى تغرى المرء تنحصر فى أمور ثلاثة :

شهوة الطعام ، والشهوة الجنسية ، وشهوة السلطان والمال ، نعم لقد شرع الله هذا الثالوث وأحله للإنسان ، ولكن شريطة عدم المغالاة ، والأنانية ، والعدوان .

قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات ، من الرزق »(1) وقال : « وكلوا واشربوا ولاتسرفوا (2) » .

ولم يحرم شهوة الجنس ، قال رسول الله : « تناكحوا تناسلوا » ، وقال سبحانه: « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها(3) » .

ولم يحرم السلطان والمال قال سبحانه : ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض »(4) ، وقال سبحانه : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا »(5).

وإنما الذى حرمه الإسلام الإفراط فى رفع قيمة الطعام والجنس والمال ، والخروج بها عن جادة الصواب ، ونسيان مطالب المجتمع والأمة .

« والناس بإزاء هاتين القيمتين — الروحية والمادية — أحد ثلاثة : مجاهد متمسك بالإيثار ، أو سادر فى غوايته متبع خطوات الشيطان ، أوقاعد عن

---

(1) سورة الأعراف الآية : ١٢٢ .
(2) سورة الأعراف الآية : ٢١ .
(3) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .
(4) سورة ص ، الآية : ٢٦ .
(5) سورة الكهف ، الآية : ٤٦ .

الجهاد بالنفس والمال فى سبيل القيم الروحية ، فيقف بذلك موقفاً سابيا » وقد فاضل الله سبحانه بين النوعين الأخيرين فقال: «لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله : بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما[1] » .

وقد ترقى القيمة ويتسع أفقها ، وتعمق أبعادها حتى تغدو مبادىء عامة ، فالتوحيد ، وان كان فى أساسه قيمة إلا أنه أخذ صبغة المبدأ نظراً لسعة آفاقه .

---

(١) سورة النساء الآية : ٩٥ .

الحـــرية

لقد كان من أهداف الإسلام الكبرى وقيمه العظمى ، الحرية ، بل لعلها أعمق قيمه ، فهو يسعى جاهداً لتحرير الإنسان من العبودية ، أيا كان طعمها ولونها ، تحرير الإنسان من عبودية الأصنام والأوثان ، وإخلاص العقيدة لله وحده ، تحرير الإنسان من شهوات النفس ، وغرائز البطن والجنس والمال ، ليسمو به إلى مصاف الطهارة والخير ، تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان ، حيث أذل الغنى الفقير ، واستعباد القوى الضعيف :

« والشخصية الإنسانية لاتكون إلا مع الحرية ، حرية الإقامة ، وحرية الانتقال ، وحرية التدين ، وحرية الفكر والرأى ، وحرية الدولة ، ولذلك كان الإسلام والتحكم نقيضين لا يجتمعان ، فليس لإنسان أن يتحكم فى غيره ، وليس للدولة أن تتحكم فى الناس ، ولكن لها أن تحكم عليهم إن اشتطوا أو تجاوزوا حدودهم وتنكبوا جادة الصراط المستقيم ، وحتى العقوبات فى الإسلام كانت لاتتجه إلى تقييد الحرية ، لأن التقييد دائما يمنع الحركة ، والحركة هى الحياة ، والإسلام دين الحياة .

وإذا كانت هذه معانى الحرية ، وما تقتضيه من صفات فى الحر ، فان الحرية لاتتصور انطلاقا من القيود ، ولاتحركها فى الناس ، ولا اعتداء على العباد ، بل لاتتصور الحرية إلا مقيدة غير مطلقة ، وأنه لاشيء فى هذا الوجود يكون مطلقاً من أى قيد .

والحرية الإنسانية لمتمدين لاتتصور إلا فى مجتمع ، بل لا يتصور الإنسان إلا وهو يعيش فى مجتمع سواء أكان مجتمعا بدويا فى بيداء ، أم كان مجتمعا حضريا فى حاضرة ، وقديما قال بعض الحكماء الإنسان مدنى بالطبع ».(١)

---

(١) المجتمع الإنسانى لأبى زهرة ، ٨٥ .

نعم ، لقد نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة : تكريم ، وتسويد ، وتأمين ، أما نظرة التكريم فتتضح فى قوله سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملنا فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [١]» وأما نظرة التسويد فتتضح فى تنصيبه خليفة فى الأرض ، قال تعالى : « اذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة»[٢] ، وأما نظرة التأمين فتتضح فى قول الرسول عليه السلام : «كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه »[٣] وقال : لايحل المسلم أن يروع مسلما[٤].

ومن ثم نرى الإسلام ، جعل له حرمة وقداسة أعظم من حرمة الكعبة، يتضح ذلك من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حينما وقف تجاه الكعبة ، وأخذ يخاطبها بقوله : « ما أطيبك ، وأطيب ريحك، وما أعظمك ، وأعظم حرمتك . والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ما له ودمه » [٥].

وكانت هذه النظرة أساس منحه كافة الحقوق الإنسانية كاملة ، وزاد فحاطه بالرعاية مثنى وثلاث ورباع ، قال سبحانه : «إنه من قتل نفسا بغير نفس ، أوفساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا[٦]» . وغرس له سبل السلام ليشيع بين جنبات حياته روح الطمأنينة والمحبة ، وأحل له الطيبات ، وحرم عليه الخبائث ، قال تعالى : « ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم[٧] » .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٦ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .
(٣) رواه أبوداود وبن ماجة ، انظر : الجامع الصغير : ٢-٩٢ .
(٤) رواه أبو داود ؛ وابن حنبل ، انظر : الجامع الصغير : ٢-٢٠٤ .
(٥) رواه ابن ماجه .
(٦) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .
(٧) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

ألوان الحرية :

١ ـ الحرية الشخصية : لقد خلق الله الناس أحراراً ، وصدق عمر بن الخطاب حينما قال : لابن العاص : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، وهذه الحرية الشخصية مكفولة للفرد إلى جانب الاضطلاع بمسئولياته ، وذلك ليتحقق الأمن ويسود السلام .

فالجماعة الإسلامية تنظيمات خاصة، ومسئوليات مختلفة ، وللفرد فيها وظيفته الاجتماعية ، ومسئوليته الشخصية يتصرف فيها تصرف الحاكم الموجه، كما يسأل عنها مسئولية المقصر فى حق نفسه ، وحق من وكل اليه أمرهم ، ويطالعنا فى هذا حديث الرسول وفيه حدد تبعات كل فرد «كلكم راع ؛ وكلكم مسئول عن رعيته » وبعد هذا التعميم الذى يشعرنا بالالتزام ، يعود الحديث ليفصل بعض الأسس التى تبنى عليها المسئولية ، فيقول : « الإمام راع ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته . والولد راع فى مال أبيه ، وهو مسئول عن رعيته » ، وليس ثمة أمر يمنح الفرد الإحساس بالمسئولية أكثر من شعوره بالحرية ، وقيمة التبعات الملقاة على عاتقه . ثم عاد فى الأخير ليعمم المسئولية كرة ثانية فيقول : « وكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته (١)» وذلك تأكيدا لعظم المسئولية ، وليست هذه المسئوليات الخمس، هى كل شىء انما هى على سبيل المثال وليست للحصر ، فهناك مسئوليات أخرى لها خطرها مثل : مسئولية المربين عن تعليم الأجيال ، ومسئولية الأطباء عن المرضى ، والقضاء عن الخصوم .

---

(١) رواه النجار وأحمد . وانظر شرحا وافيا له فى كتابنا التربية الدينية : ٣-٧٨ .

وحرية الفرد فى حقيقة أمرها مزدوجة الاتجاه ، اتجاه يقف عندما تبدأ حرية الجماعة . واتجاه يسير تحت كنف الجماعة ورعايتها ، قال رسول الله موضحا إلى أى حد تقف الحرية الفردية ؛ « ان قوماً ركبوا فى سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فان أخذوا على يده نجا ونجوا ، وان تركوه هلك وهلكوا » .

٢ ــ حرية التصرف : ان الإسلام قد شرع الملكية الفردية ــ كما أوضحنا ــ إذا جاءت من طريق مشروع ، ومنع الاعتداء عليها ، وكفل لصاحبها حرية التصرف فى ملكه ، مالم يقع منه عدوان على المجتمع ، ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية رقابة على (الصغير والسفيه والمجنون) لأنهم ليسوا أهلا للتصرف ، قال تعالى « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم (١)» وأمر أن تثمر لهم أموالهم حتى يبلغوا رشدهم « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم» (٢)، ليتصرفوا فيها بمحض إرادتهم ، مالم يتعلق بذلك ضرر يلحقه أويلحق غيره .

« وننتهى من هذا إلى أن الملكية حق ثابت ، وأن حرية الامتلاك ثابتة إذ أخذت أسبابها المشروعة ، وأن المالك حر فيما يملك لايمنع من حق انتفاعه بملكيته بالوسائل التى لاضرر فيها لأحد ، وان وقع ضرر ، منعت حريته فى التصرف أو الانتفاع ، منعا للأضرار ، فان كل ضرر فى الإسلام مدفوع ، وأنه لاتنزع الملكية من يده إلا لدفع ضرر مؤكد أو يغلب على الظن وقوعه ، أو لتأكد مصلحة أكبر من مصلحة المالك فى الانتفاع بملكه ، وفى الحالين يجب تعويضه ما دام قدكسب الملكية بسبب مشروع لاخبث فيه »(٣).

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٦ .

(٣) انظر ، المجتمع الإنسانى لأبى زهرة : ٨٧ .

٣ ــ حرية الرأى : ان الإنسان مفطور بطبعه على التعبير عن ذات نفسه بحرية وأصالة ، ولكن إذا استشرى خطر هذا التعبير ، وانحرف عن جادة الصواب إلى الأكاذيب والمفتريات سادت الفوضى ، ووقعت الشحناء والبغضاء . لذلك طالب الإسلام بالتزام الحكمة ، وتحكيم العقل والمنطق ، وحسن الكلمة ، قال سبحانه : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجدلهم بالتى هى أحسن »(١).

والحكمة تقضى أن يتأدب الشخص فى أثناء عرض رأيه بآداب الكلمة الطيبة ، والأسلوب المهذب ، والحجة الناصعة ، والنزاهة فى النقد ، ومن ملامح هذا النقد النزيه الترحيب بالمعارضة ، وحرية ابداء الرأى فى كل مشكلة تهم العالم الإسلامى ، ويجب ألا يضيق أحد ذرعا بذلك ، وذلك حتى تتمكن السفينة من الوصول إلى غايتها ، ويتمكن الركب من ولوج باب الحق . وابداء الرأى والدراسة والعلم بجوانب الموضوع المتحدث عنه واجب من ألزم الواجبات ومن ثم فلا ينبغى أن يتحدث شخص عن جهل بموضوع أو فكرة ، قال سبحانه : « وان كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ..(٢)» ، وقال : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير »(٣).

« إن ذلك يكون فى الأحكام التكليفية الشرعية لا فى الدراسات الكونية ، فالدراسات الشرعية لا ينبغى المجادلة فيها بغير علم ، لأن أساسها العقل والتشريع ، وفهم العقل للنص ، والإجماع على فهم العقل للنص يجعله حجة قطعية لا سبيل إلى انكارها . أما الأمور الكونية فالأساس فيها النظر الفاحص ، والدراسات العقلية ، وقد ينتهى الباحث إلى أمور قطعية ، وما عند الناس ظنون واحتمالات ،

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١١٩ .
(٣) سورة الحج ، الآية : ٨ .

واما ضلال بعض الباحثين في الكون ، وانحرافهم عن الدين فليس منشأ ذلك الدراسة العقلية المستقيمة ، انما منشوءه انحراف الفكر ابتداء ، فهوقد درس بقلب غير سليم .

ان حرية الرأى فى الإسلام لاتكون مستقيمة إلا إذا قامت على النظر العلمى القويم ، ويجب ألا يعلن منها إلا ما يقوم الدليل على صحته ، لاما يكون خيالا أو ظنا ، وان الظن لايغنى من الحق شيئا ، ولايعلن منها إلا ما يكون فى اعلانه فائدة مؤكدة للناس »(١).

بهذا الأسلوب ، وبهذا المنطق يتجلى وجه الحق ، وتتوثق أواصر المودة ، وتسود روح التعاون والاحترام المتبادل ، وتندثر النظرات الطامعة ، والأفكار الخبيثـة .

وحصافة الرأى تقضى بعدم مجادلة الجهلاء ممن أعماهم التعصب ، أو قصر أفكارهم عن وعى المسئوليات ، وفهم الواقع ، قال تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين(٢) .وقال رسول الله : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذىء(٣) ، وقال : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان(٤) . وقال : « لايحقرن أحدكم أن يرى أمرا يرى أمرا لله فيه مقال ، فلا يقول فيه ، فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت كذا ولذا ؟ فيقول : مخافة الناس . فيقول الله : إياى أحق أن تخاف » .

---

(١) انظر المجتمع الإنسانى لأبى زهرة : ٩١ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .
(٣) رواه البخارى.
(٤) رواه ابن حنبل ومسلم والأربعة (أى أبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجة انظر الجامع الصغير : ٢-١٧١ .

٤ ــ حرية التفكير : ويقف معنا فى العصر الحديث من دعاة تحرير التفكير وتنقيته من الشوائب والخرافات والبدع ، والعادات الفاسدة ، والتقاليد البالية ، الإمام محمد بن عبد الوهاب ، والشوكانى ، والسنوسى ، وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وحسن البنا ، وعبد الحميد بن باديس ، والعلوى(١) .

٥ ــ الحرية الدينية : عندما اعتنق الناس الإسلام منذ منتصف القرن السابع الميلادى ، وأخذوا يدخلون فى دين الله أفواجا منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ، لم يصادفوا نوعا من حرية العقيدة ، واخلاصها لرب السموات والأرض ، كما صادفوا ذلك فى الديانة الإسلامية ، وتلك هى الحقيقة الكبرى ، والمبدأ الأول الذى تناولناه بكافة أبعاده فى الباب من هذا الكتاب(٢).

فالهدف الأسمى من وراء الإقرار القلبى هو اليقين : بأنه لا إله حقيق بالعبادة ، وجدير بالطاعة إلا الله ، ومن ثم تنتفى كل عبودية فى الأرض لغير الله ، وتغدو باطلة من أساسها ، والقلب الذى يشعر بعمق هذا الإحساس وحلاوة هذا الإيمان يمس منذ اللحظة الأولى بهذا التحرر الحقيقى الذى يخلعه عليه هذا الدين الجديد ، فعندما يشهد وجدانه ، ويعترف يقينه بأنه لا إله إلا الله « ويستشعر هذه الشهادة فى نفسه وأعماقه يحس أنه انطلق من كل عبودية تكبله أو تنقص من كيانه فانه يلفظ آنذاك من تلقاء ذاته كل عبودية تشرك نفسها فى قلبه بعبودية الله ، لن يتجه إلى أحد أو شىء أو شهوة أو مادة أو هوى بالعبادة ، لأنها تتنافى مع اخلاصه للعبودية لله ، وعندئذ يحس بالاستعلاء والتحرر.

ثم انه بعبوديته لله يستمد قوة يواجه بها الأشخاص والأشياء والأحداث.

---

(١) انظر كتابنا رواد الفكر الإسلامى الحديث .
(٢) انظر : صفحة من الكتاب .

« إياك نعبد وإياك نستعين » وهو يستمدها من المصدر الأساسى والقوة العظمى التى تملك حقيقتها ، والتى تتصرف وحدها فى الكون كله [1] » إن الله سبحانه يريد الحرية للبشرية ، ولايريد لها القهر والاستعباد « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها[2] » ، ومن هنا ترك الإسلام حرية العقيدة للناس ، ولم يرغمهم على اعتناق دين معين ، وإنما يبصر بأحسنها ، ويوضح منهجها وقيمها ويرغب فى هذا الأحسن ويحض عليه ، ولكنه لايكره أحداً عليه « لاإكراه فى الدين [3] » وقال : « ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا ، وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون[4] » وقال : « نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد [5] » ، « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر[6] » وقال : فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير[7] » .

---

(١) انظر : النظم الإسلامية لمحمد العربى : ٤٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩٧ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٦ .

(٥) سورة ق ، الآية : ٤٥ .

(٦) سورة الكهف ، الآية : ٢٩ .

(٧) سورة الشورى ، الآية : ١٥ .

العــدل

كان المسلمون الأوائل نموذجا يحتذى فى تحقيق القيم الروحية من واقع إيمانهم الصحيح الذى يتسم بالبساطة والسماحة ، ورأوا أنه خطة ومنهاجا ، فاذا حسن السلوك غدا قدوة صالحة تحتذى ، وسيرة تفيض بروائع الأخلاق والأعمــال .

فالإسلام ليس عقيدة مجردة أو رهبانية وعكوفا على العبادة ، وابتعادا عن الواقع والحياة ، وليس صلة بين الإنسان وربه ، وبين الإنسان ونفسه ، ولكنه إلى جانب ذلك صلة بين الإنسان ومجتمعه ، وبين الإنسان وسائر الأمم ، ومن هذه الزاوية الإنسانية الاجتماعية تتضح معايير كثيرة نرى فيها : التعاون والأمانة والوفاء والتسامح والعدل .

والعدل فى حقيقة أمره له أبعاد كثيرة نلمسها فى القول والعمل والمال والحكم والعبادة ، ومعاملة الزوجة والخادم والولد والناس والمجتمع ، وقد تعلق فى العصر العباسى جماعة من الدارسين لأصول العقيدة والخلافة الإسلامية بالعدل ، حتى تسموا بأهل العدل ، وهم المعتزلة .

قال ابن القيم : ان الشريعة الإسلامية مبناها وأساسها على الحكم ، ومصالح العباد فى الدنيا والآخرة ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وان دخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه » .

وإذا طرقنا أبواب القرآن أو السنة أو حياة الصحابة وغيرهم من السابقين

الأوائل ، فاننا نقع على نماذج طيبة تعد فى ميزان القيم الروحية أعلى درجات العدل ، والوعى لمفهومه ، والمقصود من ورائه ، فهو من حيث جوهره ومعناه : مثل أعلى ، ومن حيث تطبيقه وحامله : نموذج رفيع ، وهناالمدار ، لأن قيمة المثل الأعلى لاتتحقق إلا فى العمل به وتطبيقه .

العدل فى القرآن : إن العدل ــ كما أشرت آنفا ــ من حيث جوهره ليس قاعدة قواعد الحكم الإسلامى فقط ، وإنما هو مثل أعلى من حقائق وقيم الإسلام الكبرى التى حض على تحقيقها ، وعلى إشاعتها بين الناس فى ثمان وعشرين آية ، قال سبحانه : « ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »(١) ، وقال : « وإذا قلتم فاعدلوا ، ولوكان ذا قربى(٢) » ، وقال : « فلاتتبعوا الهوى أن تعدلوا »(٣).

فهنا يحارب الله نزعة الهوى والبغضاء ، والميول الشخصية التى قدتنحرف بالإنسان عن جادة الصواب والحق ، وعلى هذه القاعدة من النظرة الموضوعية المستقيمة يترتب استقلال القضاء وهو الميراث العتيق الذى تفخر به الشريعة الإسلامية فى تاريخها الطويل ، قال سبحانه : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان ، وايتاء ذى القربى »(٤)

وقال : « إن الله يؤمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٥).وقال : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين »(٦) ، وقال : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله (٧) » .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٨ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٦ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ١٣٥ .
(٤) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .
(٥) سورة النساء ، الآية : ٥٨ .
(٦) سورة المائدة ، الآية : ٤٢ .
(٧) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

الرسول والعدل : قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله لايفضل بعض زوجاته على بعض فى مكثه عندهن فى أثناء القسم ، ويقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ، وفى غزوة بدر الكبرى كان الرسول عليه السلام يمشى بين الصفوف لتعديلها ، وفى يده قدح ، فمر برجل خارج عن الصف فطعنه فى بطنه بالقدح ليعتدل ، فقال الرجل وهو سواد بن زمعة : لقد أوجعتنى يا رسول الله ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فاستخلص لى حقى منك ، فقال له النبى عليه السلام : هذا بطنى فاقتص منه ، فاعتنقه الرجل ، وقبل بطنه ، فقال له الرسول ما الذى دفعك إلى هذا يا سواد ؟ فقال : أحببت أن يكون آخر عهدى بالدنيا هو ملامسة جلدى لجلدك ، فدعا له رسول الله(١).

وهذا رسول الله كرة ثالثة ورابعة : لاتأخذه فى إحقاق الحق ، وتنصيب العدالة شفقة ولاهوادة ، فقد سرقت امرأة من بنى مخزوم وكبر على أهلها وهم الشرفاء أن تقطع يدها ، فتوسطوا إلى رسول الله ، وقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد ، حب رسول الله ؟ فكلمه أسامة ، فغضب رسول الله ، وقال : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟ ، ثم قام فخطب ، وقال : « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لوأن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »(٢) .

الصحابة والعدل : لعل عمر بن الخطاب خير نموذج فى العدل ، حتى ضرب بل المثل ، فقيل : (عدل عمر) ونذكر طرفا من عدله ، وهوأكثر من أن يحصى ؛ فقال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر بن الخطاب ، فلقيه رجل ، فقاله : ياأمير المؤمنين ، انصرنى على فلان ، فقد ظلمنى ، فضربه

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢-١٩٥ (ط ـ مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤) .

(٢) رواه الأربعة ، وابن حنبل والشيخان ، انظر : الجامع الصغير : ١-١٠٢ .

عمر بالدرة ، وقال : تتركون أمير المؤمنين حين يكون فارغا ، حتى إذا شغل بأمر المسلمين أتيتموه .

فانصرف الرجل حزينا ، وعاد عمر ، فتذكر أنه لم ينصفه ، فطلبه وأعطاه الدرة ، وقال : اضربني كما ضربتك ، فأبى الرجل قائلا : تركت حقى لله ولك ، فقال له عمرا إما أن تتركه لله فقط ، وإما أن تأخذ حقك . فقال الرجل : تركته لله .

وانصرف عمر إلى منزله ، ونحن معه ، وصلى ركعتين ، ثم جلس ، يقول : يابن الخطاب ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وضالا فهداك الله ، وضعيفا فأعزك الله ، وجعلك خليفة ، فأتى رجل يستعين بك على دفع الظالم فظلمته ، ما تقول : لربك غداً إذا أتيته ؟ ومكث يحاسب نفسه ، حتى قلنا : أنه خير أهل الأرض(١).

وضرب أبو موسى الأشعرى(٢) رجلا بالسوط ، وحلق له شعر رأسه ، فجمع الرجل شعره ، وارتحل إلى عمر ، وقال له : أن أبا موسى ضربني لأني طالبته بنصيبي كاملا فى الغنيمة ، ولم أرض بما قل عن نصيبي ، وإنما جلدني ، لأنه يرى أنك لاتقتص منه ، لمنزلته عندك ، ومكانته فى المسلمين .

فتألم عمر مما صنعه الأشعرى ، وكتب اليه يقول له : ان فلانا أخبرنا بكذا وكذا ، فان كنت قد فعلت ما فعلت أمام الناس فاجلس أمامهم حتى يقتص منك ، وان كنت قد فعلت ذلك فى خلاء فاقعد فى خلاء حتى يقتص منك .

وحمل الرجل الكتاب حتى أعطاه إلى أبي موسى الأشعرى بالعراق ،

---

(١) انظر : أسد الغابة لابن الأثير : ٤-٦١ ، وسيرة عمر بن الخطاب لابن قيم الجوزية : ١١٤ .

(٢) كان واليا لعمر على الكوفة بالعراق .

فاجتمع الناس وطلبوا من الرجل أن يعفو عنه ، فأبى ، فقعد أبوموسى أمامهم، وقال للرجل : تقدم فاقتص منى ، عند ذلك هدأت نفس الرجل ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال : اللهم إنى عفوت عنه(١).

وذكر جمهرة من المؤرخين والدارسين على رأسهم ابن قيم الجوزية(٢)، وابن الأثير(٣) ، أن عمر كان يتحرى اختيار الولاة والعمال ويقول : ان الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم ، فاذا رتع الإمام رتعوا »(٤) ، ويقول : « من استعمل رجلا لمودة أو قرابة — لايستعمله إلا لذلك — فقد خان الله ورسوله والمؤمنين(٥) » .

ومما لاشك فيه أن عمر كان يستهدف من وراء هذا التحرى فى اختيار الولاة أن يغرس نموذجاً فذاً من العدالة الإسلامية بين الناس فى شتى صورها، وقد نجح فى ذلك نجاحا منقطع النظير ، حتى غدا نموذجا يحتذى ، وغدا أغرودة على لسان الشعراء والدارسين العرب وغير العرب والمسلمين(٦) وغير المسلمين(٧) .

وعلى الرغم من هذه الحيطة الشديدة ، وهذه الصرامة المتناهية مع ولاته(٨)، فقد كان يخشى أن يكون بالأمصار من تمنعه ظروفه من أن يلحق بالمدينة ليخبر الخليفة عن ظلم وقع عليه فى نفسه أوماله ، ومن ثم عزم على أن يقوم بجولة فى الأمصار ، وقال : « لئن عشت — ان شاء الله — لأسيرن فى الرعية حولا ،

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزية :
(٢) المصدر السابق .
(٣) انظر : أسد الغابة .
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣-٢١٠ .
(٥) انظر : سيرة عمر لابن الجوزية .
(٦) انظر فى ذلك : منهج عمر لمحمد البلتاجى .
(٧) انظر فى ذلك : الإسلام والعرب لروم لا ندو .
(٨) اقرأ صرامته مع عمرو بن العاص وابنه حينما اعتديا على أحد المصريين .

فانى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا(١) » ، ولكن الأجل حال دون تحقيق هذه الخطة .

وقال عبد الله بن عمر : كان أبى إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله ، فقال لهم : لا أعلم أحداً منكم وقع فى شيء مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العقوبة »(٢) وقال : لقد سمعته ذات مرة يتحدث إلى وفد جاءه ، وفيه بعض ولاة الأمصار : إنى لم أستعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، ويأخذوا أموالكم ، لكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم ، وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له على ، وليرفعها إلى حتى أقصه منه (٣).

العدل والأسرة : لما كانت الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، وفى خلق الرجل الفاضل ، فقد عنى الإسلام أشد العناية بالعدالة فى هذا المجتمع الصغير ، فى الزواج حيث قال : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أوما ملكت أيمانكم(٤) » ، وفى التسوية بين النساء قال سبحانه : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولوحرصتم(٥) » ، وفى الطلاق : « الطلاق مرتان : فامساك بمعروف أو تسريح باحسان (٦) » ، وفى التسوية بين لأولاد ولاسيما فى حالة الميراث .

---

(١) انظر : الطبرى : ٤-٢٠١ ، وسيرة عمر لابن الجوزى : ١٠٥

(٢) انظر : الطبرى : ٤-٢٠٦ (بتصرف) .

(٣) انظر : الطبرى : ٤-٢٠٣ ، وقارن بالخراج لأبى يوسف : ٦٧ ، والمسند لابن حنبل : ١-٢٧٩ .

(٤) سورة النساء ، الآية : ٣ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ١٢٩ .

(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٩ .

ولايفهم من هذا أن العدل بمعنى المساواة المطلقة ، كلا ، ولكن العدل نسبي ، وبحسب المواقع والأحكام ، لأن التسوية بين الناس جميعا فى حكم الاستحالة ، لاختلاف المواهب والاستعدادات والقدرات ، فاذا أنصفت شخصا ، فيجب أن تنصفه من واقع عمله وموقعه وقدراته وحقوقه التى يستحقها فى هذا المنصب ، هذا هو التقويم الذى ينبغى أن يرافق العدل .

والعدل فى أغلبه ليس نصوصا مكتوبة أوقوانين مسجلة معلومة ، وهذه القواعد الوضعية وغيرها هى مجرد ضمانات لتساعد فى الاقتراب من الحقيقة ، ولكن المهم هو روح القانون ، وهو يحتاج إلى الحكمة وبعد النظر ، وهذا يقودنا إلى السر فى إسقاط عمر بن الخطاب الحد عن الخادم الذى سرق من بيت سيده ، وعن الرجل الذى سرق من بيت المال ، وعن غلمان حاطب ابن أبى بلتعة عندما سرقوا ناقة رجل من مزينة لأنهم جياع ، ويعقب على هذا القيم ، فيقول : « وهذا محض القياس ، ومقتضى قواعد الشرع ، فان السنة إذا كانت مجاعة وشدة ، غلب على الناس الحاجة والضرورة ، فلايكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد به رمقه ، ويجب على صاحب المال بذل ذلك له مجانا عن الصحيح ، لوجوب المواساة ، واحياء النفوس ، وهذه شبهة قوية تدرأ القطع عن المحتاج ، وهى أقوى من كثير من الشبه التى يذكرها كثير من الفقهاء .

فأين منا شبهة كون المسروق مما يسرع اليه الفساد ، وكون أصله على الإباحة كالماء ، وشبهة دعوى ملكه بلا بينة .. وغيرها من الشبه البادية الضعف ، لاسيما وهو مأذون له فى مغالبة صاحب المال على أخذ ما يمسك رمقه ، وعام المجاعة يكثر فيه المحاويج والمضطرون ، ولايتميز المستغنى منهم والسارق لغير حاجة من غيره ، فاشتبه من يجب عليه الحد بمن لا يجب عليه ، فدرىء[1] » .

---

(١) اعلام الموقعين : ٣-٣٣ (بتصرف) .

العدل والظلم : إن الإسلام يفرض على التاجر والبائع والمنتج التزام العدل ، والعدل هنا يقتضى التوازن القويم فى اعطاء كل ذى حق حقه ، قال سبحانه : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط(١) » ، ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٢) ».

ومن وحى العدل التزام الأمانة والصدق فلاغش ، ولا استغلال لجهل الآخر ، أو الادلاء ببيانات كاذبة ، يروى أن رسول الله مر على صبرة طعام ، فأدخل يده فتبللت أصابعه ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فقال : يارسول الله أصابته السماء ، فقال : ألا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا ، ماأراك إلا صنعت خيانة فى دينك ، وغشا للمسلمين » .

وفى معاونة الظالم على ظلمه اجتناب لمناهج العدل ، وابتعاد على الحق ، قال رسول الله : « انصر أخاك ظالما أومظلوما ، فقال رجل : يارسول الله انصره إذا كان مظلوما ، أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصره ؟ قال : تحجزه عن الظلم ، فان ذلك نصره » .

---

(١) سورة الانعام ، الآية : ١٥٢ .

(٢) سورة المطففين ، الآية : ١ — ٢ .

السـلام

السلام : هو شعار المسلم فى كل بقعة من بقاع الأرض ، فقرآننا لايكاد يمر بمناسبة حضارية تعاونية إلا وينادى بالأمن والسلام . ويرغب فى السلم ويحض عليه ، حتى ذكر السلم ومشتقاته فى مائة وثمان وثلاثين آية، قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة »(١) ، وقال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله »(٢).

ونزل القرآن حين نزل فى موكب من الملائكة يحف به (السلام)(٣) ، وتحيتنا فيما بيننا(٤) وتحية الملائكة لنا(٥) ، ويوم نلقى ربنا (السلام)(٦) ، وختام صلواتنا ومناجاتنا فى أعقاب صلاتنا (السلام)(٧) وربنا الله الملك القدوس (السلام) (٨) ، وقد أعد لعباده الصالحين (دار السلام)(٩) ، وإذا اعتدى عليك الجاهلون (فاصفح عنهم ، وقل سلام (١٠)).

والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسما أفضل من أن يكونوا (المسلمين)(١١)« ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٠٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦١ .

(٣) اقرأ سورة : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ..

(٤) قال رسول الله : (إذا لقى أحدكم أخاه فليقل : السلام عليكم ورحمة الله) انظر الاحياء للغزالى : ٢-٢٠٥ .

(٥) سورة الرعد ، الآية : ٢٧ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٤ .

(٧) والمناجاة هى : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، واليك السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام) .

(٨) انظر : سورة الحشر ، الآية : ٢٣ .

(٩) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٧ .

(١٠) سورة الزخرف ، الآية : ٨٩ .

(١١) انظر : مقالا لحسن البنا بعنوان (السلام) بمجلة الشهاب ، العدد ٤ ، السنة ١ ، ص ٢٧ .

ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس» (١) ، وقال سبحانه : « ولاتقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا(٢)» .

ومن هذا نرى أن الدين الإسلامى ، يقوم على (السلام) فى كل صغيرة وكبيرة ، وهذه القيمة تسود وتنتشر حينما يعيها المسلم ، ويتخذ منها شعارا ودستوراً ، وتنحط وتنخفض حينما تصبح كلمة جوفاء نرددها دون أن نفقه معناها ، ودون أن نترسمه ، ونعمل به وله .

« ويوم اتخذنا السلام شعارا لم نقف عند حدوده النظرية ، أو مدلولاته اللفظية ، والسلام الذى أراده الله للإنسانية فى ظل الإسلام يقوم على دعامتين :

الدعامة الأولى : النظام الاجتماعى المتكامل الذى ورد به القرآن الكريم .. فقد جاء يعلن (الإخوة العالمية) ، ويرفع من مستوى (النفس الإنسانية) ، ويقيم (دعائم العدالة الاجتماعية) ، ويشيع فى المجتمع معنى (التكافل الحق) ، والطمأنينة والسلام .

الدعامة الثانية : الأمة المؤمنة بهذا النظام ، والدولة القائمة عليه ، فهى تأخذ به وتدافع عنه ، وتدعو إليه ، .. وتجاهد فى سبيله بكل ما تملك ، ولاتخشى فى ذلك لومة لائم(٣) « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس (٤).

ان الإسلام يريد السلام ، فلايريد عدوانا ، ولايريد استعلاء فى الأرض ، يريد سلاما بين العبد ونفسه ، فلاغش ولاحقد ولاحسد ، ويريد سلاما

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٢ .
(٣) أحاديث الجمعة لحسن البنا : ١٠٤ .
(٤) سورة المائدة ، الآية : ٦٧ .

بين العبد وربه ، فهو دائم الصلة ، دائم الخشية والمراقبة ، ويريد سلاما بين الشعوب وبعضها ، ويريد سلاما بين العبد والمجتمعه ، وقد فصل الإمام الغزالى بعض ذلك فى كتابه (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى(١)) .

الإسلام والحرب : وإذا كانت قد وقعت بعض الحروب فى الإسلام، فان ذلك كان لأمرين : الأمر الأول لرد العدوان ، والدفاع عن النفس ، ولحماية الدولة الناشئة ، وصدق الله حيث قال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله(٢) » . وقال : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين(٣) » .

والأمر الثانى : لمحاربة الشرك ، وصون العقيدة التى تكفل الخير للبشر ، وترتفع بالإنسانية عن مهاوى الوثنية ، وحمأة الرذيلة ، إلى سماء التوحيد ، وتأمين حرية الدين ، قال سبحانه : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة (٤)» ، وقال : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم(٥)» ، وقال : « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين(٦)» .

إذا كان الإسلام قد أشار إلى القتال والحرب كوسيلة لحماية الحق أو خضوعا لطبيعة البشر فان الشرائع السابقة ، والقوانين اللاحقة حافلة بحروب

---

(١) المصعد الأسنى للغزالى : ٢٥
(٢) سورة الحج ، الآية : ٤٠ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩ .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٦ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢١٦ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ١٩٣ .

وقوانين شتى فى هذه السبيل ، وهذه أسفار التوراة التى يتداولها اليهود اليوم نقرر شريعة القتال فى صورة تتسم بالبشاعة والوحشية ، وليس فيها أدنى مسحة سلام ، فقد جاء فى (سفر التثنية) الإصحاح العشرين ، الصفحة العاشرة « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فان أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد ذلك .

وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعهاالرب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة تغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك .

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلاتبق منها نسمة ما ، بل تحرمها تحريما ، الحيثيين والأموريين والكنعانيين .. واليوسيين ، كما أمرك الرب إلهك » .

وهذا انجيل متى يقرر مثل ذلك فباسم السيد المسيح أريقت الدماء فى أقطار الأرض كلها .. ، وفى كل حرب كانت البابوية تبارك هذه الحروب باسم الصليب ، وفى ذلك يقول توماس أرنولد : « وربما حل الاضطهاد والتقصير الإجبارى محل الدعوة الهادية إلى كلمة الله ، حتى كان الملك (أولاف ترايجفيسون) ينشر الدين المسيحى فى (فيكن — Viken) القسم الجنوبى من النرويج ، بذبح الذين أبوا الدخول فى المسيحية أو بقطع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم .

وفى وصية القديس لويس : عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة السمحة قد أسيء إليها ، فانه ينبغى ألا يذود عنها إلا بسيفه ، فيجب عليه

أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء »[1].

تنازع البقاء

والإسلام مع هذا دين يواجه الواقع ، ولايفر منه ، ومادامت فى الدنيا نفوس لها نوازع وأهواء ومطامع ، ومادام هناك هذا الناموس الذى يطبق على الأفراد والجماعات على السواء ، ناموس تنازع البقاء ، فلابد إذن من الاشتباك والحرب ، وحين تكون الحرب لردع المعتدى ، وكف الظالم ، ونصرة الحق ، والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل ، وتنتج الخير والبركة ، وحين تكون تحيزاً وفسادا فى الأرض ، واعتداء على الضعفاء تكون رذيلة اجتماعية ، وتنتج السوء والشر[2] ، قال سبحانه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين[3] » .

ويخطىء من يظن أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، كلا وإنما انتشر لأن القيمة الجديدة التى أشاعها بين الناس هى التى مهدت له ، وكانت جديدة على الفكر الفارسى فآمن ، وعلى الفكر المصرى والأفريقى والبربرى والإسبانى فآمن ، لأنه وجد فى الإسلام ، وفى السلام السبيل الذى يحرره من الرق والعبودية والاستعمار .

ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية ، حتى فى العصور التى أطل فيها الضعف على المسلمين ، وعراهم الوهن والتأخر ، يقول السير توماس أرنولد : « لقد تصدعت أركان الامبراطورية الإسلامية العظمى ، وتضعضعت قوة الإسلام السياسية ، ولكن ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع ،

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : ٢٢ .

(٢) انظر : مقالا لحسن البنا بعنوان (السلام) بمجلة الشهاب ، العدد ٤ ، السنة ١ ، ص ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥١ .

وعندما خربت جموع المغول بغداد سنة ١٢٥٨ م ، وأغرقوا فى الدماء مجد الدولة العباسية ، وعند طرد فرديناند ملك ليون وقشتالة المسلمين من قرطبة سنة ١٢٣٦ م ، ودفعت غرناطة ـــ آخر معاقل الإسلام فى أسبانيا ـــ الجزية للملك المسيحى ، فى هذا الوقت كان الإسلام قد استقرت دعائمه ، وتوطدت أركانه فى جزيرة سومطرة ، وكان على أهبة أن يحرز تقدما ناجحاً فى الجزر الواقعة فى بلاد الملايو .

وفى هذه اللحظات التى تطرق فيها الضعف السياسى إلى قوة الإسلام ، نرى أنه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة ، فهناك حالتان تاريخيتان كبريان ، وطىء الكفار فيها من المتبربرين بأقدامهم أعناق اتباع الرسول ، أولئك هم الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر ، والمغول فى القرن الثالث وفى كلتا الحالتين ، نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين.

وقد حمل دعاة الإسلام ـــ الذين فقدوا مظهر السلطان والقوة ـــ عقائدهم فى أفريقية الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية والروسيا وغيرها ، ثم صار للإسلام فى السنوات الأخيرة اتباع فى انجلترا وأمريكا الشمالية ، واستراليا واليابان(١)» .

ومن ثم نرى أن المسلمين فتحوا البلاد بأخلاقهم وسماحة دينهم ، قبل أن يفتحوها بسيوفهم وعدتهم وعددهم ، فلا يتصور أن عددا قليلا من هؤلاء العرب يثل عرش كسرى ، ويدك ملك قيصر ، ويرث هذه الامبراطوريات الضخمة فى هذا العدد من السنين بمجرد القوة ، ولا يعقل أن ثمانية آلاف جندى يفتحون اقليما شاسعا كمصر ، وينشرون فيها دينهم ولغتهم وآدابهم وثقافتهم وعقيدتهم بالإكراه والجبروت ، ولكن بحسن الأحدوثة، وجميل العمل ، وذاتية الدين الجديد(٢)» .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : ١٨ .
(٢) انظر : مقالا لحسن البنا بعنوان السلام، مجلة الشهاب ، العدد ٥ ، السنة ١ ،ص٢٨ . مارس ١٩٤٨ .

ويقول لوثروب ستودارد الأمريكى : «ماكان المسلمون قط أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على النقيض من ذلك أمة موهوبة ، جليلة الأخلاق والسجايا»(١).

وليس صراع العالم اليوم ، وهو صراع خطير يهدد البشرية بالدمار والفناء ، ويعرض الحضارة والمحبة وصلات الخير للإبادة ، ليس هذا الصراع بناشىء عن بواعث سامية ، أو غايات انسانية ، إنما هو صراع مبعثه حب السيطرة والتسلط والاستئثار بالخيرات .

السلام والاستئثار والعدوان :

ان الإسلام يدعو إلى السلام ، فاذا يئس من مسالمة الأعداء ، ولم ينجح المثل الأعلى ، فانه يتمشى مع الواقع ، ويجارى الأحداث ، ففى الوقت الذى يدعو فيه إلى السلام ، يدعو إلى حراسة هذا السلام ، بما نسميه فى الوقت الحاضر (السلام المسلح) ، قال تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم(٢)» ، وقال : «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا إن الله يحب المقسطين(٣)» ، وبذلك نرى أن الشريعة الإسلامية قد سبقت جميع التشريعات الحديثة فى هذه الناحية بمئات السنين سبقا لن تلحق فيه .

وليس هناك ريب فى أن الإسلام يدعو إلى السلام ، وأنه يعتبر ذلك أصلا ، وأساساً للعلاقات الدولية «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم

(١) حاضر العالم الإسلامى : ٢٥ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .
(٣) سورة الحجرات ، الآية : ٩

من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام (١) » .

فالإخوة البشرية التى تعلو على الجنس والقبيلة هى العلاقة الدائمة التى يريدها رب الناس بين الناس ، وهى أساس التربية الإسلامية ، ولذلك لم يؤذن بالحرب إلا لدفع العدوان والظلم ، كما أشرنا — وليس للحرب — الذى لاتعدوا آياته فى القرآن ست آيات — نتيجة ولاخاتمة يرضاها الله إلا السلم الذى يستقر على العدل والإنصاف.

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولاتعتدوا .. » فليس للغالب أو المنهزمة حقوق إلا حق واحد هو منع الظلم ، وكل ما يعقد من العهود نتيجة للحرب يكون مخالفا للروح الإسلامية ، إن أقام ظلما أو استعبادا ، أو أقر استغلالا واستباحة لما هو من حق الإنسان بصفة كونه أخاً فى البشرية ، قال سبحانه : « ولاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة »(١).

الإسلام والعهد :

لقد حرم الإسلام الخيانة فى العهد سرا أو جهرا كتحريمه الخيانة فى كل أمانة مادية كانت أو معنوية ، فلا مجال عنده لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة والمتعة ، كما أنه لايرضى العهد الذى يمليه الغالب والعلم ، فهل رأيتم أوسمعتم فى الزمن الذى نعيش فيه بعهد عقد ، وكانت له القداسة والحرمة التى يريدها الإسلام ؟

ما قيمة العهود ، أو الإيمان تعقد لتنقض ويحتال فى تفسيرها ، والخلاص

(١) سورة النساء ، الآية : ١ .
(٢) انظر : بحثا لنا بعنوان (الإسلام والعلاقات الدولية) نشر مسلسلا بجريدة طرابلس الغرب فى ٦-٤-١٩٥٥ ، ومجلة الحسنى المغربية فى ٣ شوال ١٣٨١ هـ .

منها ، متى لاحت مصلحة ، أو بدت منفعة من قريب أو بعيد ، أوضمن قوى بسلطان قدرته العسكرية أن يفسرها كما يشاء أوينقضها كما يشاء .

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقروا عهد الفرد المسلم ، بل عهد العبد منهم يؤمن به طائفة من المحاربين ، فقد كتب أبوعبيدة بن الجراح – رضى الله عنه – وهو قائد الجيش الإسلامى إلى عمر بن الخطاب وهو خليفة : « ان عبدا أمن أهل بلد بالعراق ، وسأله رأيه ، فكتب اليه عمر :

ان الله عظيم الوفاء ، ولن تكونوا أوفياء حتى تفوا ، فوفوا إليهم ، وانصرفوا عنهم »[1].

---

(١) المرجع السابق .

التقوى

التقوى والمساواة :

تعد التقوى شعيرة من شعائر الإسلام الكبرى ، وقيمة من قيمه السامية ، فهى جماع الخير كله ، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين ، قال سبحانه : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب(١) » وقال : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا »(٢) ، وما أكثر ماردد القرآن هذه الكلمة ، حتى أننا نستطيع أن نضيف الدين الإسلامى اليها باعتبارها أكبر ميزة ، فنقول له : (ان الدين الإسلامى هو دين التقوى) ، ومن ثم اعتبرها الله مقياس الكرامة الإنسانية ، ومقياس التفاضل بين الناس ، فقال : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم (٣) » .

فالميزان والمعيار الذى قصد اليه الإسلام لمعرفة أى قيمة من القيم الدنيوية والروحية فى ميادين العمل ، أيا كان نوع هذا العمل ، كان الميزان هو التقوى ، فقد كان العرب يتفاخرون بالتكاثر والأموال ، ويتفاخرون بالأنساب والأحساب ، فلما جاء الإسلام أقر مبدأ المساواة ، وأنه لافضل لرجل على أخيه ، ولافضل لإمرأة على أخرى ، ولالعربى على عجمى ، ولالأبيض على أسود إلا بالتقوى ، فالله سبحانه يقف إلى جانب المتقين ، ويؤازرهم فى الدنيا والآخرة « إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون (٤) وقال : « واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين(٥) »

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ٢ – ٣ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٤ .

(٣) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ١٢٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٩٤ .

التقوى والمحارم :

حين ترتبط النفوس بالتقوى. وتصبح زادها ، كما أوصى القرآن فى قوله « وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقونى يا أولى الألباب(١) » ، فانها تعمر بالإيمان ، وفضائل الأعمال ، وتتطلع إلى المعرفة والمحبة والخير ، وتصبح الطاعة سجية من سجاياها ، وبذلك يسمو الإنسان من طينه ، وينخلع من ربقة الشهوات ، وتغدو القيم والمثل هى هدفه الأسمى ، ومقصده الحقيقى.

فالعبادة ليست مقصورة على الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وليست فى المظاهر الشكلية ، بل التقوى كل التقوى فى صلة العبادة بالله وبالحياة وبالمجتمع ، أى أن تكون ذات قطبين ، قطبها العلوى يتصل بالله ، وقطبها الآخر يتصل بالمجتمع ، ومن ثم يأتى الرسول بفعل الأمر ، فيقول : « اتق المحارم(٢) » ، ويقول فى حديث آخر : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحوها ، وخالق الناس بخلق حسن(٣) » فيقول : اتقوا دعوة المظلوم (٤).. » .

فالاستقامة فى اتقاء المحارم ، وفى اتباع السيئة الحسنة ، والابتعاد عن مزالق الهوى ، ومكائد الشيطان ، وتطهير النفس من الفحشاء والرذيلة ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة ، ومن ثم نلمس فى حديث الرسول عليه السلام أنه يفتح جميع أبواب النشاط الروحى ، والاجتماعى أمام الإنسان ، ليطرق باب التقوى ، وهو على هدى وبصيرة من عمله .

والجميل والقبيح ، والخير الشر ، والصالح والطالح ، والإيمان

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .
(٢) رواه ابن حنبل والترمذى ، انظر : الجامع الصغير :
(٣) المصدر السابق .
(٤) رواه الطبرى المصدر السابق : ١-٩ .

والكفر ، ليسا فى منزلة واحدة ، ومرتبة متوازية ، لأن الفعلة الحسنة لاتتشابه مع الفعلة السيئة القبيحة ، فاذا اعترضتك سيئة ، فعليك أن تغلب جانب التقوى فى نفسك ، وأن تدفعها بالحسنة فذلك أجدى فى دفعها ، وأجدى لإزالتها ، وعليك أن تدفع بالحسنى ، وأن تكون لطيف المعشر .

وهذه رتبة لايصل إليها إلا المتقون الذين يمسكون زمام أنفسهم ، ويلجمونها بتقوى الله ، وبالصبر على المكاره ، وعلى الإنسان أن يتعود بالله ، ويحتمى بجنابه العظيم ، إذا دفعه الشيطان إلى عمل الشر ، أو ارتكاب المعصية ، وذلك ليدفع عن نفسه وسوسة الشيطان .

التقوى والإيمان :

ان العقيدة الإسلامية التى فصلنا الحديث عنها فى الباب الأول ، تقوم على الإقرار اليقينى بوجود الله الواحد الأحد ، وعلى قاعدة هذا الإقرار يشق المرء طريقه فى حياته ، وهو مزود بحوافز الخير والإنسانية ، لأنه يعلم علم اليقين أن ثمة موقفاً عسيرا سوف يعرض فيه العمل على الله .

فالإنسان المسلم يبدأ منطلقه فى الحياة من حيث العقيدة ، وينتهى فى تطوافه إلى دار الجزاء ، وفى أثناء سيره من هذه لتلك تحرسه التقوى ، وتسدد خطاه ، قال سبحانه : « وإن تؤمنوا وتتقوا ، فلكم أجر عظيم (١)» ، وقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (٢)» .

التقوى والعمل :

ان العمل الذى ينتهجه الإنسان فى حياته ، لابد أن يكون خالصا لوجه الله

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٩ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٩٦ .

لا تشوبه شائبة من رياء أوسمعة ، ولا بد أن يسلك اليه الإنسان طريقا مشروعا ، فالعمل إن لم يقم على تقوى من الله ورضوان ، فان تكون له قيمة ، وصدق الله حيث قال : « وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا[1] » لماذا لأنه قام على النفاق والكذب والتدليس ، وسلك غايات خبيثة ، فالشخص الذى يراهن أويرابى أو يسرق ، ثم يتصدق من هذه الأموال ، أو يبنى منها المشافى والمدارس والملاجىء . لايظن أنه على خير .

وقد ساق الله لنا قصة هذه السبيل ، لنأخذ منها العبرة والعظة ، حيث ذهب اثنا عشر شخصا من المنافقين وأتمروا فيما بينهم على بناء مسجد ليحاربوا به (مسجد قباء) ذلكم المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، أما المسجد الآخر فقد بنى على الشر ، وقد هتك الله ستر أصحابه ، وكشف أمرهم ، وأطلع نبيه على نواياهم ، حيث ذهب ابن أبى عامر الراهب ليأتى بجنود من المدن القيصر ليأخذ محمدا على غرة وينال منه ومن دينه ، وابتنى هذا المسجد ليكون بمثابة مركز التجمع ، حتى لايداخل المسلمين أية شبهة ، وفى الوقت نفسه يجعل منه أداة إلى تفريق وحدة الصف بعد أن آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وبين الأوس والخزرج ، قال تعالى : « والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لاتقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هاو ، فانهار به فى نارجهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين .. »[2].

(١) سورة الفرقان ، الآية : ١٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٧ — ١١٠ .

التقوى والشعائر :

ان الإسلام يدعو الناس كافة إلى إصلاح الأعمال النفسية والبدنية ، ولم يرض مجرد القول ، أو الجوانب النظرية فى العبادة ، ولكنه قرنها بالعمل والتعظيم فى المجال الفردى ، فقال : « ذلك ومن يعظم شعائر الله ، فانها من تقوى القلوب»(١) ، كما طلب التعاون فيها فى المجال الجماعى ، فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى(٢) » .

ولما كانت الشعائر والفرائض والفضائل تمثل نوعا من الامتثال لأوامر الله ، والاجتناب لمـــا نهى عنه ، فقد قرنها بكثير من الأمور : فهى فى المناجاة « وتناجوا بالبر والتقوى(٣) » ، وهى فى العفو والصفح : «وأن تعفو أقرب للتقوى»(٤) ، وهى فى الصدق « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون(٥) ، وهى فى الوفاء « بلى من أوفى بعهده ، واتقى(٦)» ، وهى فى العدل « اعدلوا هو أقرب للتقوى(٧)» ، وهى فى الصبر « وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور»(٨) ، وإذا سرنا مع القرآن الكريم لنحصر هذه الكلمة مع مشتقاتهما يدل نجد أنها تكررت فى ثنتين وأربعين ومائتى مرة ،على قيمة الركائز التى تدور من حو

لباس التقـوى :

ان المتقى هو الذى يحاول أن يدفع عن نفسه سخط الله وعذابه ويحذره

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٣٢ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢ .
(٣) سورة المجادلة ، الآية : ٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٧ .
(٥) سورة الزمر ، الآية : ٣٣ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية : ٧٦ .
(٧) سورة المائدة ، الآية : ٨ .
(٨) سورة آل عمران ، الآية :١٨٦ .

ويتقيه ، قال تعالى : « يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، من اتقى وأصلح ، فلا خوف عليهم ، ولاهم يحزنون[١] » ، فنلمس هنا أن من معانى التقوى : الوقاية والاتقاء والحذر من الوقوع فى المكروه أو الشرور والآثام ، فكأن التقوى غدت بمثابة الرداء والدرع الذى يتمنطق به الشخص فى أثناء القتال ، كى يحفظ نفسه من الطعن ، ويصون جسده من أن يناله مكروه .

وقد اختلفت نظرة الإنسان من شخص إلى آخر فى أثناء اتخاذه للقيمة التى يظن أنها ستصونه ، وتكون درعا واقيا له يرد عنه عادية الأيام والليالى ، فبعضهم يرى أن يتخذ من المال درعا ، وبعضهم يرى أن يتخذ من الجاه والسلطان درعا ، وبعضهم يرى أن يتخذ من المنصب والمظاهر درعا ، ولكن هذه الدروع يوم العرض على الله إذا جاء اليها كانت هباء منثوراً ، فيغدو عاريا من القيم ومن الأعمال الصالحة ، ومجردا من الفضائل والخيور ، لأن الدروع التى تدرع بها لم تقيه من سوء المصير ، ولذلك وجه الله الأنظار إلى اللباس الصحيح ، وإلى الرداء الذى ينبغى أن يرتديه كل فرد ، ذلك هو لباس التقوى ، قال سبحانه : « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ، ذلك خير ، ذلك من آيات الله ، لعلهم يذكرون ، يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما »[٢] .

صفات المتقين :

فى مطلع سورة البقرة يرسم الله سبحانه صورة كريمة لأهل التقوى ، فيقول : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين[٣] » ، ثم يوضح صفات

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٥ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية ، ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢ .

هؤلاء المتقين ، فيقول : « الذين يؤمنون بالغيب . ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون[1] » .

ولعل تفسير القرطبي[2] من أوفى التفاسير التى عرضت لهذه الآية بشىء من التفصيل والتخريج ، وقد قصد اليه الأستاذ حسن البنا[3] عندما عرض لتفسير هذه الآيات ، فالتقوى ، أو بمعنى أدق صفات المتقين تقوم على ثلاثة عمد على :

١ ــ الإيمان بالله ، وتلك هى الصفة الأولى من صفاتهم ، وهذا الإيمان يمدنا بالدليل على مدى معرفة التقوى ، واستعدادها لتقبل حقائق الدين ، والتصديق بها ، ونستبين من خلاله مدى هذه الصلة ، أى صلة الإنسان بالله عن طريق الإيمان ، بالغيب ، وهى صلة معرفة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى الخلق أعجب اليكم ايمانا ؟ قالوا : الملائكة .قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم . قالوا : فالنبيون . قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن . قال : وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ثم قال رسول الله : ألا إن أعجب الخلق إلى إيمانا ، قوم يكونون من بعدكم ، يجدون صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها[4] » .

ويعقب على ذلك الأستاذ البنا فيقول : « ليس المراد الإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو نظر أوبرهان مما يؤدى إلى اعتقاد الخرافات ، والتصديق بالأوهام ، والإيمان بما لا يتفق مع الحقائق العليا التى جاء بها الدين الحنيف فقد نهانا الله سبحانه عن مثل هذا الإيمان الضعيف المتهافت ، وقد أمرنا بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وتقدير نعمة الله علينا بالإدراك

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣ .
(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١-١٦٢ (ط ، دار الكاتب العربى ١٩٦٧) .
(٣) انظر : مجلة الشهاب ، العدد ٣ ، السنة ١ ، ربيع الأول ١٣٦٧ ص ٣ .
(٤) رواه أبو يعلى فى سنده ، وابن مردويه فى تفسيره ، والحاكم فى مسند ذكره .

والعقل ، واعتبر التفكير عبادة من أجل العبادات الموصلة إلى معرفة الخالق جل وعلا ، وكمال الإيمان به ، وجعل العقل مناط التكليف ، ومدار الثواب والعقاب[1] » .

٢ ــ وإقام الصلاة ، وهى الصفة الثانية التى وصف الله بها المتقين ، وهى توضح لنا : أن صلة الإنسان بربه كما تكون صلة معرفة ويقين ، تكون صلة عبادة ، فالإيمان هو الأساس ، وهو يحيي القلب ، ثم يحيي العبادة ، والعمل الصالح ، وهو دليل عمق التقوى .

٣ ــ والانفاق فى سبيل الله ، وهو الصفة الثالثة ، وهى توضح صلة الإنسان بغيره من الأفراد والمجتمع ، فهنا نوع من الإيجابية ، فالمال ليس للكنز والشهوات ، والبذخ والإسراف ، ولكنه للانفاق فى سبيل الله ، وهذه السياسة لها أثرها البالغ فى صلاح المجتمع ، وتحقيق معنى التكافل ولايتم ذلك على الوجه الأكمل إلا مع الإحساس بالتقوى .

ومن ثم كان جزاء المتقين هو الجزاء الأوفى ، والتقوى باعتبارها قيمة لانستطيع أن نقدرها حق قدرها ، أو أن نزنها بميزانها الصحيح إلا بمعرفة ما يقابلها ، وبضدها تتميز الأشياء ، قال تعالى : « أم نجعل المتقين كالفجار »[2] والنفس البشرية التى خلقها الله تولد على الفطرة بيضاء نقية ، وفى مقدور صاحبها أن يسمو بها ، ويزكيها بالسير فى الطريق القويم ، وفى يده أن يسفل بها إلى طريق الفجور ، قال تعالى : « ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها[3] » .

---

(١) انظر : مجلة الشهاب العدد السابق .
(٢) سورة ص ، الآية : ٢٨ .
(٣) سورة الشمس الآية : ٧ ــ ١٠ .

الوفاء

الوفاء لون من ألوان القيم الإسلامية ، وفضيلة عظمى ، ومظهر من مظاهر الخلق النبيل ، والضمير الحي ، في الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، يقوم على أساس الالتزام بأمر من الأمور ، فعلا في جواب الخير ، وتركا في جوانب الشر.

فأنت مع الله ملتزم بعقد ، وواجبك أن تكون وفيا بهذا الالتزام ، فتقوم بمعرفته معرفة مبنية على الحقائق ، وأن تلتزم بأداء فرائضه واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وإذا تقربت اليه سبحانه بشيء من الأشياء كالنذور فيجب الوفاء بها ، قال تعالى : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا(1) ».

وأنت مع رسول الله ملتزم بعقد ، و اجبك أن تكون وفيا بهذاالالتزام ، وهذا رسول الله يقول : بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولاتسرقوا ، ولاتزنوا ، ولاتقتلوا أولادكم ، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولاتعصوا في معروف ، فمن وفى فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب في الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه (2) » .

وأنت مع اخوانك من المسلمين ، ومع غيرهم ملتزم بعقد ، وواجبك الالتزام بهذا العقد ، وذلك بحفظه وانفاذه ، والسير على وفقه ، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، ويفرض عليك العهد والخلق والأمانة أن تفكر مليا ، أن تعمل النظر فيما التزمت به ، حتى لاتعود فتندم ، وحتى لاتنقض وعدك ، فاحترام الكلمة والوفاء بها ، واحترام الشريعة والوفاء بها ، واحترام الجماعة والوفاء بحقها ، واحترام

---

(1) سورة الإسراء ، الآية : ٣٤ .
(2) انظر صحيح البخاري : ١-٢ (ط – صبيح بالقاهرة).

الأسرة والوفاء بحقها كل هذا صفة النفوس الكريمة ، ودعامة القيم الشريفة، ومظهر من سمو الأخلاق ، أما خلف الوعد فهو ضياع يترتب على افساد واهدار لحقوق الله والناس، قال سبحانه : « واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم[1] » ، وقال عليه السلام : « اضمنوا لى ستاً من أنفسكم ، أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا الأمانة إذا أوتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم[2] » .

فهذا الحديث يعد معاهدة اسلامية فيها التزام ويعرفنا الطريق إلى الجنة ، ولكنه ليس الطريق السهل ، لأن فيه معالجة لنفسك ولشهواتك ، حتى لاتغلبك على الوفاء بهذه الالتزامات ، ولا شك أن خلف الوعد والغدر صفة غير محمودة ، فانها تهدم النظام ، وتضيع الثقة بين الأفراد والجماعات ، وتقطع أوامر العلاقات الطيبة ، ويفصم عرا المحبة والاتحاد .

وقد كان رسول الله قبل بعثته وبعدها مثلا طيبا ونموذجا رفيعا فى الوفاء بالعهود ، حتى يكون قدوة للناس أجمعين ، قال عبد الله بن أبى الحمساء :

« بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت ، فاذا هو فى مكانه ، فقال : يا فتى ، لقد شققت على ، فأنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك » فالنبى عليه السلام قد انتظر ثلاث ليال ، لالبقية الثمن ، وإنما من أجل الوفاء بالوعد .

وقد كانت حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه باعتباره مشرعا ، وداعيا إلى الله باذنه ، وسراجا وقمراً منيرا ، وباعتباره قدوة حسنة . كانت حياته بل كل عمل من أعماله ، يكاد يكون درسا عملياً لهذه القيمة ولغيرها

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٩١ .

(٢) رواه ابن حنبل ، والحاكم ، والبيهقى ، انظر الجامع الصغير . ١-٤٤ .

من القيم والأخلاقيات . ونأخذ على سبيل المثال (صلح الحديبية) الذى وقع فى السنة السادسة من الهجرة بين النبى وبين كفار قريش ، وقد تمت المصالحة فيه لعشر سنوات ، وألا يزور المسلمون الكعبة معتمرين إلا فى العام التالى . وألا يكون معهم من السلاح إلا السيوف المغمدة ، وأن يقيموا بمكة ثلاثة أيام ، تتركها قريش فى أثنائهالهم،وأن يرد المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما، ولاتلتزم قريش برد من يأتيها من المسلمين ، ومن أحب أن يدخل فى عهد المسلمين دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه .

وحدث أن وفد على رسول الله بالمدينة أحد المشركين وهو أبو جندل ابن سهيل بن عمرو ليعلن اسلامه ، فرفض رسول الله قبوله ، وانضمامه إلى زمرة المسلمين ، وفاء بالكلمة والصلح الذى تعاهد فيه على رد من جاءه من قريش مسلما ، وقال أبو جندل يا معشر المسلمين ، أأرجع ثانية إلى المشركين ، وقد جئت مسلما ، ألا ترون ما لقيت من عذاب واضطهاد ، وكان قد عذب فى الله عذابا شديدا .

واشتد الأمر على المسلمين ، وناقشوا رسول الله فى هذا الأمر ، وقالوا : كيف نرد إليهم من جاءنا مسلما ، ولايردون من جاءهم مرتدا من الإسلام ، فقال عليه السلام : أنه من ذهب منا اليهم فقد أبعده الله عنا ، ومن جاء منهم فرددناه اليهم ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا [1].

وقد حقق الله للمسلمين مقولة رسول الله ، لأن أبا جندل عندما رده رسول الله لم يرجع إلى قريش ، وإنما اعتصم بطريق القوافل على الطريق من مكة إلى الشام ولحق به نفر آخر فغدوا عصابة تقطع الطريق على قوافل المشركين ، يقومون بأسرها ، وقتل المشرفين عليها ، فما كان من قريش إلا أن طلبت بنفسهانقض هذا البند من معاهدة الحديبية ، حيث أرسلت إلى رسول الله

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام : ٣-١٩٦ .

تناشده الله ، والرحم أن يستقدم اليه هؤلاء القوم الذين غدوا عصابة خطرة على قوافلهم ، وحلوه من ذلك الشرط ، وقالوا : من أتاك منهم فهو آمن ، فأرسل النبي اليهم فقدموا اليه بالوثيقة .

وقد سار صحابة رسول الله والمسلمون الأوائل على تلك الخطة ، قال جابر ، قال لى رسول الله صلى الله يا جابر : لو قد جاء مال البحرين ، أعطيتك هكذا ، وهكذا ، وهكذا (مشيرا بيديه ثلاث مرات) فلم يجىء مال البحرين ، حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم .

فلما جاء مال البحرين أمر أبوبكر — رضى الله عنه — مناديا ، فنادى: من كان له عند رسول الله عدة أو دين فليأتنا ، فأتيته ، وقلت له : ان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لى : كذا وكذا ، فحثى لى حثية فعددتها ، فاذا هى خمسمائة ، فقال لى : خذ مثليها » .

ولما كانت خلافة عمر وسيرت الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس ، ووقع الهرمزان — أحد قوادهم — أسيرا جىء به إلى عمر ، فدعاه إلى الإسلام فأبى ، فأمر بقتله ، فلما عرض عليه السيف ، قال : لوأمرت يا أمير المؤمنين بشربة ماء ، فهو خير من قتلى على الظمأ ، فأمر له بها ، فلما صار الإناء فى يده ، قال : أنا آمن حتى أشرب ؟ قال : نعم ، فألقى الإناء من يده ، وقال : يا أمير المؤمنين ، الوفاء نور أبلج ، قال : لك التوقف حتى أنظر فى أمرك ، فلما رفع عنه السيف ، قال : الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال له عمر : ويحك ، أسلمت خير إسلام ، فما أخرك ؟ قال : خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال : إن إسلامى كان جزعا من الموت . فقال عمر : ان لفارس حلوماً بها استحقت ما كانت فيه من الملك » .

---

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى .

المساواة

غرس الإسلام فى المحيط العالمى قيمة من قيمه الإنسانية ، ألا وهى المساواة ، فالناس جميعا متساوون فى الحقوق والواجبات والمعاهدات إذا اتفقوا علما وثقافة قال رسول الله « يا أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى ، ولالعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى»(١) ، وقد امتدت أبعاد هذه المساواة إلى مواطن متعددة حاطها الإسلام بسياج من القوانين والتشريعات ، وقد التزم فيها بمبدأ المساواة الكاملة بين الناس :

١ ــ ففى موطن الأصول والتفاخر بالنسب والحب يقف الإسلام فى هذا المجال مشرعا وواضعا لأصول جديدة ، فقد كان العرب فى جاهليتهم يتفاخرون بالآباء والجدود ، قال عليه السلام : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد ، الناس لآدم وآدم من تراب(٢) ، وقال عمر بن الخطاب هذه الكلمة المأثورة « من قصر به عمله لم يسرع به نسبه » بل ذهب عمر إلى أبعد من ذلك فى أثناء بحثه عن حل لمن سيخلفه ، وهو يجود بروحه ، فهو لاينظر إلى أصحاب الأصول وذوى النسب العريق ، ولكنه أخذ بنظرة الإسلام ، فقال : « « لوكان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته عليكم ».

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٤-٩٨٥ وقارن .

(٢) المصدر السابق : ٤-١٨٥ .

٢ — وفى موطن اللون والجنس ، فقد ألمح حديث الرسول عليه السلام إلى ماكان مألوفا بين العرب من عدم المساواة بسبب اللون والجنس، وقد حارب الإسلام هذه النزعة ، فهذا أبوذر الغفارى يقول لغلامه « يا ابن السوداء » فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال له : أتعيره بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية ، ثم قال له : طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، فطأطأ أبوذر رأسه لغلامه ، ووضعها على الأرض ، حتى دأسه غلامه ، ولم يطلب اليه الرسول ذلك أو يأمره بشىء من هذا ، ولكنه شعر من تلقاء نفسه بوخز الضمير ، وأنه يجب أن يفسح المجال للاقتصاص لئلا تدفعه نفسه الأمارة بالسوء لمثل هذه الفعلة مرة ثانية .. فكان من بعد ذلك يخرج مع غلامه ، وعليهما ثياب متشابهة ، لايفترق فيها سيد عن مسود، وكان يعطى لغلامه من نفس طعامه .

ان دساتير العالم تحوى فيما تحوى نصوصا وقوانين قاطعة فى المساواة ، ولكن هذه النصوص فى واد والحقيقة فى واد آخر ، ففى جنوب أفريقيا وفى أمريكا وفى غيرهما مآسى تقع كل يوم بسبب التفرقة فى اللون والجنس ، وستظل قائمة ما لم يؤخذ بروح الإسلام وقوانينه .

٣ — وفى موطن الصفات والألقاب الاجتماعية ، نجد ان الإسلام صاحب الشريعة الوحيدة التى استطاعت أن تحيل قيمها الروحية إلى أفضل خلق من السلوك الأمثل ، باعتباره واقعا ملموسا لامجرد جعجعة ، وفى خلال المواءمة ، واحلال الانسجام بين القيمة وبين الواقع كان الإسلام متألقا فى هذه الناحية ، حيث قضى بعدم التفرقة بين الأفراد أو الجماعات إلا فى مجال واحد هو مجال التقوى ، قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم(١)» .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

فلا تفرقة فى طلب العلم ، ولاتولى المناصب ، ولا يفضل انسان على إنسان إلا بمقدار ما يؤديه من خدمات للناس وللدين وللمجتمع ، وهذا عمر بن الخطاب لايسمح بتفضيل أحد على أحد مهما اتسع الفارق الاجتماعى ، مهما كان الأول من عامة الشعب ، وكان الثانى من رؤسائه ، فقد شكا اليه أحد المصريين من سواد الشعب أن فرسه سبقت فرس محمد بن عمرو بن العاص والى مصر ، فأخذته العزة فمال بسوطه على المصرى يضربه ويقول له : خذها ، وأنا ابن الأكرمين.

ولما علم عمرو بذلك خشى أن يشكو المصرى إلى عمر فحبسه زمنا ، ولكن المصرى تمكن من الفرار من سجنه ، ذهب إلى الخيفة عمر يشكو اليه مالحق به ، واستدعى عمر عمراً وابنه من مصر ، ولما حضرا ، أمر عمر أن يقوم المصرى على مرأى ومسمع من الجميع وأن يضرب ابن عمرو ، فضربه حتى أثخنه ، ثم قال للمصرى أجلها فوق رأس عمرو فوالله لم يفعل ابنه ما فعل إلا اعتماداً على سلطة أبيه .

ثم التفت إلى المصرى ، وقال له : انصرف راشدا ، فان رابك ريب ، فاكتب إلى »(١).

٤ — وفى موطن العبادة ، نرى صباح مساء مظهراً من أروع مظاهر المساواة بين الناس وذلك فى أثناء صلاتهم ، وفى أثناء حجهم ، حيث يقف المسلم إلى جانب أخيه المسلم ، المنكب ملاصق للمنكب والقبلة واحدة ، والاتجاه واحد ، وقد توجهوا جميعا بقلوبهم إلى رب واحد ، لافرق بين غنى وفقير ، أو عظيم وحقير ، فالجميع « سواسية كأسنان المشط » .

٥ — وفى موطن القانون نجد نماذج لاحصر لها ، نسوق منها هذه الأمثلة ، كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان قد أسلم ، ولكنه عاد فارتد عن دينه

(١) سيرة عمر : ١٠٠

خوف العار والقصاص من اللطمة، وذلك أنه كان يطوف بالبيت الحرام ، فوطيء أعرابي ازاره الذي كان يجرر خلفه ، فما كان من جبلة إلا أن لطمه ، فذهب الأعرابي واشتكى إلى عمر بن الخطاب الذي كان خليفة المسلمين آنذاك ، فأحضر عمر جبلة ، وقال له : ساو خصمك ، فقال جبلة : كيف أساوي خصمي ، وهو سوقة ، وأنا ملك ؟ فقال له عمر : ان الإسلام قد سوى بينكما .. ، فقال أمهلني حتى الغد ، فلما كان الغد ارتدعن دينه ، وذهب إلى بلاد الروم(١) .

وكان أبوبكر الصديق يقوم في إحدى المرات بتوزيع العطاء على الناس بصورة متساوية ، فقيل له : ياخليفة رسول الله ، انك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، فمن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم ، فلوفضلت أهل السوابق والقدم ، والفضل بفضلهم ، فقال : أما ماذ كرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة ، والذين عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر ، وليس ثمنا لأعمالهم » .

نعم ، جاء الإسلام فوجد بقايامن حضارات أفلست وأتت عليها الشيخوخة ، وكان من هذه الحضارات الحضارة الرومانية التي كانت ترفع من شأن الإنسان المفكر ، وتضع من شأن الإنسان العامل بيديه في إحدى المزارع أو الحرف والصناعات وكانت هذه الفئة الثانية هي الطبقة العظمى من سواد الشعب ، فثمة سادة وثمة عبيد ، ولم يكتف الفلاسفة السابقين من الاغريق بهذا الوضع ، بل أرادوا أن يقروه ، وأن يجعلوه قانونا ، حتى بلغ الأمر بأرسطو أن صاغ نظرية تقسم الناس بحكم طبيعتهم وخلقتهم إلى أشراف وعبيد

---

(١) انظر : البلاذري : ١-١٦١ ، والمعارف لابن قتيبة : ٢١٧ ، ومروج الذهب للمسعودي : ٢-١٠٩

أما الأشراف فهم السادة ، وأما العبيد فهم العملة ، ويقلون فى مرتبتهم الإنسانية من الأشراف.

فلما جاء الإسلام لم يقر هذه الأوضاع فكما حرر الإنسان فى فكره وعقيدته حرره من عبوديته لنفسه ولغيره ، ومن عبوديته لسادته ، وهذه النزعة العادلة هى القيمة التى احتضنها الحكام والقضاء وطبقوها بين الناس .

وتلك هى الديمقراطية الصحيحة إذا تحدثنا بلغة العصر — قولا وفعلا ، أما هذه الديمقراطية الخادعة التى جعلها الغربيون صورة شوهاء لهم خيرها الشعوب المستضعفة وزرها ، فذلك ليس من الإسلام فى شىء .

ان هذه القيمة الإسلامية هى التى مكنت للقضاء وللحكام أن يسووا بين الخليفة وبين فرد من أفراد الرعية ، فقد اختصم الخليفة المأمون مع رجل من عامة الشعب إلى قاضى بغداد يحيى بن أكثم ، فدخل المأمون إلى مجلس يحيى ، وخلفه خادم يحمل طنفسة ليجلس عليها الخليفة ، فلم يرض القاضى أن يخص الخليفة بجلسة لايجلس مثلها خصمه ، وقال : يا أمير المؤمنين لاتأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه ، فدعا المأمون للرجل بطنفسة أخرى.

الباب الرابع

النزعات الفكرية

النزعة الانسانية

النزعة العلمية

النزعة العقلية

النزعة الانسانيـــة

إعداد النفوس :

من أهم ما يميز الفكر الإسلامى حفاظه على النزعة الإنسانية ، ومن ثم كانت هذه النزعة بمثابة مبدأ خاص من مبادىء الإسلام ، ومثل هذه المبادىء والنزعات يسبقها اعداد النفوس بغرس العقيدة المهيمنة على هذا المبدأ ، وذلك حتى تتهيأ النفوس لقبوله ، والامتثال له طواعية واختيارا ، والإصدار عنه ، وكأنه خلق من الأخلاق الطبيعية ، ونزعة فطرية ، وليس من قبيل الأخلاق المكتسبة .

فعندما أراد الله سبحانه اقرار هذا المبدأ الإنسانى ذى الطوابع الرحيمة ، فى الأرض ، قام بخلق الإنسان فى أحسن صورة ، قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم(١) » ، ثم قام بتكريم هذا الإنسان فى شخص أبينا آدم عليه السلام ، فأمر ملائكتـــه بالسجود له(٢) ، ثم جعله من بعـــد ذلك خليفة له فى أرضه(٣) ، ثم كرمه وفضله على كثير من خلقه ، ورزقه من الطيبات ، قال سبحانه : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا(٤) »

كل هذا يعطينا صورة صحيحة عن نظره الإسلام للإنسان أنى كان ،

---

(١) سورة التين ، الآية : ٤ .
(٢) انظر : الآية : ٤٠ من سورة البقرة .
(٣) انظر : الآية ٣٦ من سورة البقرة .
(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .

فلقد استهدف الأخذ بما توحى به القيم الروحية ، والمبادىء الربانية التى عاشت فى ضمير الأمة الإسلامية ، وذلك حينما قال محمد عليه السلام «كلكم لآدم» ، تلك القيم التى تكرم الفرد باعتباره انسانا ، دون نظر لدينه أولونه أولغته أو جنسه أو ماله أو حسبه ونسبه ، وتحمى الإنسانية بصفتها كائنا عضويا حيويا ينشد كمال ذاته ، من المضمون الروحى للنزعة الإنسانية تلك النزعة التى تعنى تحقيق العدالة الإنسانية فى جميع الميادين .

حقوق الإنسان :

ان النزعة الإنسانية تعد الهدف الأسمى لحقوق الإنسان ، تلك الحقوق التى تهدف اليها البشرية وقد تأثرت بها الدول جميعا عن ديننا ، بل نهلت كثير من الدول الحديثة من مواردنا ، — لأنها تمثل الطمأنينة التى تسعى اليها المجتمعات الناهضة للحصول عليها ، وحقوق الإنسان تمثل أكثر ما تتمثل فى الحرية(١) بكافة أبعادها ، وتعتمد المساواة (٢) فى كافة أشكالها من الحقوق والواجبات ، وتقوم على المؤاخاة والإيثار والاتحاد ، ولعل أول تشريع واقعى فرض المؤاخاة الإنسانية هو ذلك التشريع الذى أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حين آخى بين المهاجرين والانصار ، فى نظام ابتكره ، ولم يكن معهودا فى إحدى الأديان السابقة أو الشرائع الماضية ، وقد جعله الرسول بمثابة اخاء النسب والدم ، حتى امتدح الله سبحانه هذا المنهج ، وتلك الروح السامية ، فقال : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٣) » .

---

(١) انظر : صفحة ١٥٠ من الكتاب .
(٢) انظر : صفحة ١٨٤ من الكتاب .
(٣) سورة الحشر ، الآية : ٩ .

وقد حاط الإسلام هذه النزعة الأخوية بسياج من المحبة والمودة والتراحم، قال رسول الله : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيهما يحب لنفسه »(١)وقال : « رأس العقل بعد الدين: التودد إلى الناس ، واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر »(٢) ، وقال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى(٣)» ، وقال : « أفضل الفضائل : أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتصفح عمن ظلمك (٤)» ، وقال رجل من بنى سلمة يارسول الله : هل بقى على من بر أبوى شىء أبرهما بعد وفاتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما » .

ولايظنن ظان أن هذه النزعة مقصورة على صفوف المسلمين ، كلا ، بل تمتد لتشمل الإنسانية جمعاء ولتشمل الحيوان فى الرحمة به ، والإنسان الفاضل هو الذى ينمى عواطف الخير فى نفسه باستمرار حتى تصير طبيعة له ، وليس من الإنسانية الكاملة أن تشبع وأن يجوع غيرك ، وأن تكتسى ويعرى غيرك ، وأن تتعلم ويجهل غيرك ..، قال تعالى : « يا أيها الناس نا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »(٥) . وقال : «آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون : كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله »،(٦).

---

(١) رواه ابن حنبل والشيخان الترمذى والنسائى انظر: الجامع الصغير : ٢-٢٠٤ .
(٢) رواه البيهقى بأكثر من سبع روايات ، انظر الجامع الصغير : ٢-٢١ .
(٣) رواه مسلم وابن حنبل ، انظر الجامع الصغير : ٢-١٥٥ .
(٤) رواه ابن حنبل والطبرانى ، انظر الجامع الصغير : ١-٥٠ .
(٥) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .
(٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق إذ اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها ، فشرب وخرج ، فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، حتى رقى ، ثم سقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له » : سمع جلساء النبى هذه الحكاية ، وهذا الثواب ، فأرادوا أن يتأكدوا ، وقالوا : « يارسول الله : وان لنا فى البهائم لأجرا ؟ » أى هل لنا فى الرفق بالحيوان أجر؟ فقال النبى : « فى كل ذات كبد رطبة أجر »(١).

نلمس فى حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه تصوير قوى للنزعة الإنسانية ، نزعة العطف والشفقة والرحمة على كل ذى حياة : انسانا كان أو حيوانا أوطيرا ، لايقف الإنسان مبهورا يتنزىألما وحسرة ، ويسيل فؤاده لوعة وحزنا ، بل لابد أن يكون إيجابيا فعليه أن يبادر إلى العمل والإنقاذ ، ودفع الأذى واحلال الخير والسلامة والاطمئنان ولاتستصغرالعمل الذى تقوم به ، فالكلمة الطيبة صدقة ، والبسمة اللطيفة صدقة ، والتصدق ولو بشق تمرة يعد عملا من أعمال الخير ، « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى (٢).. » .

قال المستشرق الهولاندى رينهارت دوزى : إن العرب لم يحكموا بتعاليم فاسفية فقط ، بل بالفطرة والغريزة ، حتى حققوا بادىء ذى بدء مبادىء الثورة الفرنسية ، وهى : الحرية والمساواة والإخاء ، لقد كان البدوى يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض ، ويقول : لاأعرف مولى غير مولى العالم .. ، ان هذه المبادىء عند العرب هى أفضل مما عند الأوروبيين ،

---

(١) رواه مالك ، والشيخان .

(٢) انظر : صفوة صحيح البخارى : ١-٥ .

لأنهم يقولون ويفعلون ، أما نحن فنقول ولانفعل ، وربما كانت أخلاق الرب أسمى من أخلاقنا ، ونفوسهم أكبر من نفوسنا ، وهم أكثر ميلا إلى النزعة الإنسانية (١) » .

الإنسان والتعاون :

لقد أرسل الله محمدا عليه السلام للبشرية جمعاء ، قال سبحانه : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا (٢) » .

ومن هذا المبدأ ، قال رسول الله : « الخلق كلهم عباد الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله (٣)» ، أى أن أحب مخلوقاته إليه هو ذلكم الشخص الذى يتجرد من أنانيته ، ويتجرد من أهوائه ، ويعمل عملا نافعا لسائر المخلوقات دون نظر لأية اعتبارات يمكن أن تشده اليها ، وقد عقب الإمام الغزالى على هذه السمة الإنسانية بقوله : « ان الذى يقضى حوائج الناس من غير عناية لايكون رحيما ، والقادر على قضاء الحاجة وعلى النفع دون أن يقضيها لايكون رحيما ، وان رحمة الله التامة هى إفاضة الخير على المحتاجين ، والرحمة العامة هى التى تتناول المستحق وغير المستحق »(٤).

فالدين الإسلامى يرتكز على الناحية العامة الشاملة للإنسانية فى مبدأ النفع ، ومبدأ التعاون . ومبدأ الخير . قال تعالى : « وما أرسلناك ، إلا رحمة للعالمين » ، وقد اقتدى صحابة الرسول به فى الاهتداء بهديه ، والعمل

---

(١) انظر : الإسلام والحضارة العربية لكرو على : ١-١٤٦ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية : ١ .
(٣) رواه الطبرانى ، وأبويعلى ، انظر : الجامع الصغير ٢-١٢ .
(٤) انظر : الاحياء فى علوم الدين : ١-٢٥ .

بمبادئه ، فهؤلاء أهل عبد الله بن عمرو بن العاص قد ذبحوا شاة ، فقال لهم : هل أهديتم لجارنا اليهودى؟ قالوا : لا ، قال : ابعثوا اليه منها ، فانى سمعت رسول الله صلى الله وسلم ، يقول : مازال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه (١) » .

حرمة الإنسان :

لقد أحل الله الإنسان محلا رفيعا ، سواء أكان حيا أم ميتاً ، وسواء أكان طفلا أم شيخا ، وسواء أكان ذكراً أم أنثى ، قال الرسول عليه السلام : كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » ، (٢) وقال : « لاتجوز المثلة ، ولو فى الكلب العقور » ، وحينما أسرف أبوموسى الأشعرى فى التنكيل برجل شرب الخمر ، لم يكتف باقامة الحد عليه من الجلد ، بل سود وجهه ، وطاف به بين الناس ، ونهاهم عن أن يجالسوه ، حتى هم الرجل أن يقتل أبا موسى أو يلحق بأرض الشرك ، فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن سرى عن الرجل ، وخفف عن نفسه تلك المحنة ، وأمر أبا موسى أن يرد اليه كرامته أمام الناس ، ثم أمر له بعطاء (٣) ؛

ويظهر سمو الإسلام ، وتتضح فيه النزعة الإنسانية فى تلك التشريعات التى لم تغادر صغيرة ولاكبيرة بالنسبة للإنسان ، فى جميع مراحل حياته ، فالسقط الذى استهل صارخا ، والطفل واللقيط والصبى من السبى كل هؤلاء يحتم الإسلام تكريمهم ويلزمنا بالصلاة عليهم فى حالة موتهم ، وعلى المسلم أن يصلى على كل شخص مقتول فى حد أوفى حرب بغى ، وعلى من قتل

(١) رواه الشيخان وابن حنبل وأبو داود ، والترمذى ، انظر : الجامع الصغير : ٢-١٤٦
(٢) رواه أبوداود وابن ماجه ، انظر : الجامع الصغير : ٢-٩٢ .
(٣) انظر : سيرة عمر : ١١٤ .

نفسه ، وعلى من قتل غيره ، وعلى ولد الزنا ، وعلى أمه ، بل على كل من قال لا إله إلا الله(١).

الغرائز والعواطف:

لقد امتدت النزعة الإنسانية فى عرف الإسلام إلى مجال الغرائز والعواطف فهذا عمر ابن الخطاب يستجيب للوازع الغريزى فى الإنسان ، حتى لا يضل ، أو يرتكب منكرا ، ويرى أن ذلك من الحقوق الإنسانية الواجبة ، فقد كان يطوف ذات ليلة بالمدينة ، فسمع امرأة تنشد :

ألا طال هذا الليل ، واسود جانبه ... وأرقنى ألا حبيب ألاعبه
فوالله — لولا الله — لاشىء غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى ، والحياء يكفنى ... وإكرام بعلى ، أن تنال مراكبه

فلما كان من الغد استدعاها عمر ، وسألها : أين زوجك ؟ قالت : بعثت به إلى العراق ، فاستدعى نساء فسألهن عن المرأة ، كم مقدار ما تصبر عن زوجها ؟ فقلن له : شهرين ، ويقل صبرها فى ثلاثة شهر ، وينفد صبرها فى أربعة أشهر ، فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر فاذا مضت رجع الغازون ، وحل آخرون محلهم(٢) ، وهكذا يتناوبون الجهاد فى صورة دورات .

ولم تقتصر تشريعات عمر على دراسة الغرائز والطاقات الفطرية فى الإنسان ، بل تعداها إلى مجال العواطف والميول ، فكان يقول لأولياء أمور النساء « لاتنكحوا المرأة الرجل الذميم القبيح ، فانهن يحببن لأنفسهن ما تحبون

---

(١) انظر : المحلى لابن حزم : ٥-١٥٩ وما بعدها (ط - المنيرية بالقاهرة ، ١٣٤٩) ، وقارن بالأحياء للغزالى : ٢-٣١٨ (ط - الحلبى بالقاهرة ١٣٥٨) ، والرسالة للإمام الشافعى : ٤٢٨ (تحقيق شاكر) .
(٢) انظر : تفسير القرطبى : ٣-١٠٨ ، وسيرة عمر : ٧١ .

ما تحبون لأنفسكم » ، ونصوص السنة قد أقرت حق المرأة فى احترام انسانيتها ومشاعرها الخاصة — من قبل عمر — وقد اعتمد الرسول عليه السلام فى ذلك على قوله سبحانه : « ولا يحل لكل أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فان خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله ، فلا تتعدوها ، ومن يتعد حدود الله ، فأولئك هم الظالمون (١)» . وقد نزلت هذه الآية حينما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس أن يفارق زوجته لما كرهته ، وأصبحت إقامتها معه أمراً مستحيلا ، ورأى الرسول من الأفضل لها وله وللمجتمع أن ينفصلا ، ولعل الله سبحانه أن ييسر لكل منهما بعد ذلك حياته ، فجاءت زوجة ثابت وطلبت إلى رسول الله أن يفرق بينها وبينه ، على أن ترد اليه حديقة كان قد أعطاها إياها(٢) » وروى أنها كانت تبغضه أشد البغض ، وكان يحبها أشد الحب ، ففرق الرسول عليه السلام ، بينهما بطريق الخلع ، وكان ذلك أول خلع فى الإسلام (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٩ .
(٢) انظر : البخارى ، باب الخلع .
(٣) انظر : تفسير القرطبى : ٣-١٣٩ .

النزعة العلمية

فجر الحياة العلمية :

يذهب بعض الدارسين إلى أن العصر العباسي هو بداية عصر النهضة ، والعلم عند العرب ، وهم فى ذلك واهمون ، فلقد بدأت خيوط هذا الفجر المضىء بالعلم ، والمشع بالمعرفة ، منذ بداية الدعوة الإسلامية ، حين غرس — أصول هذه الثورة العلمية — محمد بن عبد الله عليه السلام .

فلو جئنا نستطلع كلمة (العلم — ومشتقاته) فى القرآن فقط ، فضلا عن الحديث النبوى لوجدنا أنها بلغت (سبعمائة وثمانية) مرة ، وليس معنى هذا أن القرآن كتاب علم ، كلا ، بل هو دستور أمة ، وقانون دولة ، ومعجزة رسالة ، وحياة بشرية ، وارشاد عقل ، فاذا ما أشار القرآن إشارات عابرة لجوانب علمية ، فانه يريد بذلك أن يأخذ بيد الإنسان ليريه من آيات ربه الكبرى ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »(١) . ان صلة الإنسان بالله ليست مقصورة على هذه الأنماط من العبادة ، ولكنها تسع الحياة كلها ، وتسع الكون بما فيه من سماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وماء ، وإنه سبحانه هو المهيمن على ذلك ، وكلما تقدمت البشرية خطوة فى تطورها الارتقائى وحضارتها الفكرية ، وجدت فى هذا الكتاب الكريم جديداً لم يكتشفه آباؤهم ، وصدق رسول الله ، حينما قال : « إن هذا القرآن لايخلق على كثرة الرد » ، بل هو جديد دائما ، صالح لكل زمان

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .

ومكان ، أينما قلبته ، وأمعنت النظر والفكر ، اكتشفت جديدا ، مما يدل على أنه معجزة الله الخالدة .

فهو يفتح أمامك الطريق ، لتبحث وتنظر وتفكر ، ومن شأن الحقيقة إنها تداعب خيال العلماء ، وكلما ظن أحدهم أنه أوشك أن يقطفها أفلتت من بين أصابعه فى اللحظة الأخيرة ، ولكنها تركت بين يديه سمات من طوابعها ، وصفات من خصائصها ، ليقف الإنسان على صدق قوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(١) » فيطلب المزيد : « وقل رب زدنى علما »(٢) .

والويل للبشرية إذا أخذها العجب والكبرياء ، وظنت أنها على شىء من العلم ، وأن كتاب الكون أصبح بين يديها ، تصرفه كيف تشاء ، فهؤلاء أبعد الناس عن الإيمان ، بالحقيقة ، والإيمان بالله ، وقد عناهم الله بقوله : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة ، وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلنا بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون ، فلما رأوا بأسنا ، قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون(٣) .

العلم والحكمة :

لانعرف ديناً من الأديان السماوية غير الدين الإسلامى ، جعل : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها » وجعل : العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وجعل : المعرفة شرطاً من شروط الإيمان .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .
(٢) سورة طه ، الآية : ١٤ .
(٣) سورة غافر ، الآية : ٨٢ – ٨٥ .

فهذا القديس (بولس — Paul [1]) أحد أعمدة المسيحية يتساءل : ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة [2]» ، ثم هذه الكنيسة فى العصور الوسطى تجعل المعرفة مقصورة على طبقة الكهنة ، أما غيرهم فلا .

أما فى الإسلامية : فنعلم أن محمداً النبى الأمى . بعث لينشر المعرفة والعلم والحكمة ، وليطهر الناس وينقذهم من وهدة الضلالة والجهل « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين»[3].

فالإسلام لايتنافى مع العقل . ولامع العلم ، فهو دين عقل ، ودين فكر ونظر ، ولايقف عند حد الأخذ والبحث ، بل أمر بالبذل والعطاء ، يوصى بالكشف والاختراع ، وتنمية الإدراك والتفكير ، ويوصى بالعلماء ، سواء أكان ذلك بالنسبة للفرد أم بالنسبة للمجتمع ، وسواء أكان ذلك عن الطريق الإيجابى أم عن الطريق السلبى ؟ فكل فرد ، وكل جيل يستطيع أن يضيف لبنة إلى التراث الإنسانى ، والبناء الحضارى ، هذا فى النطاق الإيجابى ، أما فى المجال السلبى . فيستطيع أن يكف عن الشر والتخريب والهدم ، وعمليات الإبادة الجماعية ، فى هذه الحروب والفتن ، يستطيع أن يكافح نفسه .

ومن ثم فان الإسلام يدعو إلى العلم الذى يحفظ البشرية ، ويخلع عليها سبل المحبة والخير . والتراحم ، و« ليست الحضارة الحديثة ومكاسبها الكبيرة فى كشف آفاق كثيرة من الطبيعة ، واستثمار هذه المكتشفات فى المخترعات النافعة إلا نتيجة مباشرة لهذا الاتجاه ، وإتماما للطريق التى سارت فيها الحضارة

---

(١) رومانى الأصل ، وكان يهودى العقيدة ، وشديد الوطأة على المسيحيين ، وقيل انه رأى أنه قد عمى بصره ، فكان ذلك سببا فى تركه لليهودية ، واعتناقه للمسيحية التى غدا من أعظم المبشرين بها .

(٢) انجيل متى .

(٣) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

الإسلامية فى مجال النظر إلى الطبيعة والبحث فيها ، والموجه لهذا التيار ، والفاتح لهذا الطريق ما تضمنه القرآن ، وأيدته السنة من موقف الإنسان أمام الكون، وتحديد صلاته به ، فى نطاق النظرة الإسلامية إلى الوجود[1] ».

منزلة العلماء :

« جعل الله للعلماء منزلة رفيعة ، وقدرهم حق قدرهم ، حتى إنه سبحانه وضعهم فى مرتبته : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ، وأولوا العلم قائما بالقسط[2]» .

وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم . والذين أوتوا العلم درجات[3]» ولم يسو بين العالم والجاهل ، قال سبحانه : « هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لايعلمون . إنما يتذكر أولو الألباب[4] ».

وبين مدى الصلة الوثيقة بين الله سبحانه وبين العلماء ، لأنهم أسبق الناس إلى فهم قدرته ، وكنه مخلوقاته : « إنما يخشى الله من عباده العلماء [5] » .

فاذا جئنا لأحاديث الرسول عليه السلام ، وجدناها تحض على طلب العلم ، قال صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو فى الصين[6]» لماذا ؟ لأن طلب العلم فريضة على المسلم[7] ، وإن ساعة يقضيها العالم فى (مخبره) ، والباحث بين كتبه تعد فى نظر الإسلام عبادة ، ترقى إلى مرتبة الجهاد فى سبيل الله أو تزيد ، ولذلك جعل الرسول مداد العلماء فى منزلة دم الشهداء ،

---

(١) العقيدة والعبادة لمحمد المبارك ٦٤١ (ط - دار الفكر بيروت ، ١٩٧٠) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .
(٣) سورة المجادلة ، الآية : ١١ .
(٤) سورة الزمر ، الآية : ٩ .
(٥) سورة فاطر ، الآية : ٢٨ .
(٦) رواه البيهقى وابن عدى ، انظر : الجامع : ١-٤٤
(٧) المصدر السابق .

فقال : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء » .

فى العصر الأموى : أخذت الدعوة إلى العلم سبيلها فى العصر الإسلامى بشطريه : فى صدر الإسلام ، وفى العصر الأموى ، فهذا خالد بن يزيد ابن معاوية — الذى يسمى حكيم آل مروان — يكتب لأبيه ، وكان قد سافر لطلب العلم ، ولاسيما الكيمياء ، يبشره بأنه قد حقق آمانيه من وراء رحلته العلمية ، فيقول :

أيا راكباً نحو الشآم عشية
يؤم دمشقا ، قف ، فاحمل كتابيا
وبلغ يزيداً حين يتلو رسالتى
وقل : خالدا ، قد نال ماكان راجيا
ألا قد ملكت (الشمس) و(البدر) عنوة
وحزتهما من بعد طول عنائيا

ويعنى بهذا البيت الأخير (صناعة الكيمياء) التى كانت تسود الأوساط العلمية ، وهى متأثرة بالأفكار القرآنية التى وردت عن (قارون) من أنه كان يقوم بتحويل المعادن الخسيسة كالنحاس والرصاص إلى الذهب والفضة وذكر صاحب كشف الظنون : أن له ثلاثة كتب فى هذا المجال هى : كتاب (السر البديع فى فك الرمز المنيع) و(فردوس الحكمة فى علم الكيمياء) و(مقالتا مريانوس الراهب) .

فى العصر العباسى : فتح الباب على مصراعيه فى العصر العباسى ، فوصل التطور العلمى إلى الذروة بالقياس إلى العصور السابقة ، فهذا العصر يعد بحق عصر النقل والترجمة ، والتأليف والابتكار ، حيث أقيمت من أجل ذلك الدواوين ، وبيوت الحكمة والمدارس ، واستقدم العلماء ، وتفرغ

كثير منهم للعلم ووقف حياته عليه . وأنفق عليهم الخلفاء والدولة عن طيب نفس ، وعظمت الترجمة والتلخيصات عن اليونانية والفارسية والقبطية والهندية والسريانية ، حتى إذا آذن الأمر بانتهاء دور الترجمة والتعريب ، كانت الحضارة الإسلامية قد أثمرت ، وآتت أكلها ، وملأت مسامع العالم المعمور آنـذاك .

لقد لمع المسلمون فى كل الميادين العلمية ، وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والأدباء والفقهاء يقومون بأدوارهم فى نهضة العرب الروحية ، والنفسية والأخلاقية ، كان العلماء فى كل الميادين يقومون بقسطهم من البحث والنقل والتجويد ، لم يدعو باباً إلا طرقوه ، إن لم يكونوا قد فتحوا فى العلم أبوابا جديدة(١) ، يقول العالم (كاجورى) : ان العقل ليدهش عند ما يرى ماعمله العرب فى الجبر وغيره » .

والواقع أن كثيراً من النظريات المتأخرة ، جاءت على ألسنة كثير من علماء العرب ، وذكروها فى مصنفاتهم ، كالتشـابه الواضح بين نظرية (أنشتاين) فى الجاذبية ، وآراء (الفارابى) فيها ، فهل كان هذا من توارد الخواطر ، أم أن القبس الذى شع من علوم العرب مهد الطريق أمام المتأخرين ، فالتقت خواطر (أنشتاين) بخواطر (الفارابى) ، مثلما التقت آراء (دانتى) فى الكوميديا الإلهية بآراء أبى العلاء المعرى ، فى رسالة الغفران ، ولسنا نملك إلا عظيم الدهشة ، وشديد الإكبار ، عندما نعلم أن القرآن الكريم قد تحدث عن تفتيت الذرة فى أكثر من موطن ، ويكفى أن نذكر قوله سبحانه : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا البحار سجرت ، أى اتقدت واشتعلت ، وذلك لا يكون إلا بتفجير نواتها الذرية(٢) .

---

(١) انظر : فضل العرب على الإنسانية للدكتور عزة مريدن (محاضرة نشرها المجلس الأعلى للعلوم ، القاهرة ١٩٦١) : ٥ .

(٢) انظر : تفسير جزء عم للإمام محمد عبده (سورة التكوير) .

مآثر المسلمين العلمية :

ان مآثر الحضارة الإسلامية واضح فى مختلف نواحى ثقافة اللاتين وحضارتهم ، فقد عمدوا إلى نقل الكثير من آثار العرب العلمية والأدبية والفنية ، وقلدوا الكثير من فنونهم وصناعتهم ، فكان مرجعهم فى علم الفلك على ما ترجم من تراث العرب العلمى للمجريطى والبتانى . وعلى ما نقل من تقاويمهم ، وكان مرجعهم فى الرياضيات على ما ترجم من مؤلفات الخوارزمى وابن أفلح وابن البنا الرياضى المشهور الذى ألف رسالة منهاجية فى الجبر سماها (التلخيص) .

وكان مرجعهم فى الطب والكيمياء والعقاقير على قانون ابن سينا وكليات ابن رشد وحاوى الرازى وجامع ابن البيطار ، ورسائل جابر بن حيان ، ومؤلفات آل زهر ، وكان مرجعهم فى الطبيعيات على ابن الهيثم والخازنى ، ونجد للفلسفة الإسلامية الأثر الكبير فى تفكيرهم . ففى الفلسفة الاجتماعية نجد أثر ابن خلدون واضع علم الاجتماع . وقواعد نقد التاريخ ، وفى الفلسفة الروحية نجد أثر ابن عربى وابن سبعين وابن رشد ، ولايتسع المجال هنا لنشرح هذه الناحية بالذات ، ولكن حسبنا أن الفلسفة اليونانية نفسها قد وصلت إلى أوروبا فى ذلك العصر بواسطة التراجم والمؤلفات العربية ، وان كثيراً من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت إلى اللاتينية حتى ان بعضها فقد أصله العربى ، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية ، وان أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على ألسنة الافرنج قد اتخذت صورة افرنجية مثال ابن سينا (Avicenna) ، وابن رشد (Averroes) ، والرازى (Rhazes) ، وكان لهم أثر فى الموسيقى إذ نقل اللاتين الكثير من مؤلفات العرب مثل كتب الفارابى فى هذا الصدد ، ولئن جاز أن ينكر أثر العرب فى الموسيقى الأوروبية فلابد من الاعتراف أن بعض الآلات الموسيقية التى شاع استعمالها فى أوروبا أخذت عن العرب . وبعضها مثل

العود لايزال يحمل نفس الاسم العربى فى جميع اللغات الأوروبية تقريبا .(The lute)

ونجد من أزجال الأندلسيين وموشحاتهم أثراً فى الشعر البروفنسالى ونجد لقصة ابن طفيل (حى بن يقظان) أثرا فى حكايات روبنصن كروزو ، ونجد لكليلة ودمنة أثراً فى أقاصيص لافونتين ، ونجد لرسالة أبى العلاء المعرى أثراً فى الكوميديا الإلهية لدانتى الإيطالى ، وهذه آثار الشريف الإدريسى أستاذ أوروبا بجغرافيته كما قال (جوتيه) ، وابن بطوطة برحلاته هو وابن الوزان المعروف بليون الافريقى ، قد شهد بفضلهم على الأوربيين ، وقد قال المستشرق (جب) فى كتابه (تراث الإسلام) : « أنه ليس من الغلو فى شىء أن يقول : انه لولا كتاب الف ليلة وليلة لما استطاع دانيل ديفو أن يؤلف قصة روبنصن كروزو » ولما استطاع سويفت أن يؤلف رحلات جلفر

هذا غير ماكان للعمارة العربية من الزخرفة والتزويق والحفر والتصنيع من آثار بارزة فى الصناعة الأوروبية .

الغزو الفكرى :

تآمر الغربيون ، وآزرتهم فئة ممن ثقفت الثقافات الغربية ، وقد فقدت إحساسها بقوميتها وعروبتها ، فصارت تشيد بمظاهر الحضارة الغربية الأجنبية ، وتحاول أن تطمس مآثر المسلمين ، وأن تحجب أسماءهم ، حتى لم يعد يرى أبناؤنا إلا الأسماء الأجنبية ، وكان ذلك أوضح ما يكون فى أوائل هذا القرن ، والبلاد العربية كلها تقريبا — عدا السعودية واليمن — كانت مطحونة بالاستعمار ، هو الذى يصرف أمرها .

تلك كانت ومازالت محاربة الاستعمار للعروبة والإسلام ، فهو يعمل على حجب حسنات الأمة العربية ، ويبث فى جوانبها الإحساس بمدى تقدم

الفكر الغربي ، ومدى الإحساس بالتخلف العربي لنظل مشدودين إلى عجلته ، وقد ملأنا الإحساس بالنقص ، فيسلبنا بذلك كل مقومات العلم الحقيقي ، والتقدم والحضارة ، ويقول الدكتور عبد الحليم منتصر وكثيرون غيره من أبناء الجيل الماضي : « لم تكن تطرق مسامعنا ونحن طلاب الا الأسماء الأجنبية ، أسماء : شارل ، ودالتن ونيوتن وداروين وأرشميدس .. وغيرهم ، وكأنها مؤامرة ، لحجب علماء الأحقاب الإسلامية الذين ظهروا ونبغوا خلال العصور الوسطى التي تقع بين العصرين : القديم والحديث ، من أمثال : ابن سينا ، وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والخوارزمي ، وابن النفيس والرازي .. وغيرهم من العلماء الذين يزدهي بهم العلم في كل عصر . ويحق لنا أن نفاخر بهم (١) » .

شهادات الأجانب :

لم نعدم نفراً من العلماء المنصفين الذين تغنوا بمآثر المسلمين العلمية ، وشهدوا بفضلهم ، وسبقهم العلمي ، بل أظهروا مدى تفوقهم ، ومحاولة كثير من الغربيين الإغارة على أفكارهم ومآثرهم وسرقتها ، ونسبتها لأنفسهم ، يقول جوستاف لوبون : « ان البحوث التي أجراها (رينو وفافييه) ، والتي سبقه اليها (كاسبري) وأندريه (وفيارو) أثبتت بوضوح أن البارود ذا القوة الدافعة باعتباره مادة متفجرة ، تعمل على دفع القذائف ، اختراع عربي أصيل لم يشارك العرب فيه أحد ، عرفوا كيف يخترعون ، ويستعملون القوة الناشئة عن البارود ، وباختصار فهم الذين اخترعوا الأسلحة النارية» (٢) .

ويقول كاربنسكي : إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وان البحوث الحديثة قد دلت على عظم ديننا

---

(١) انظر : تاريخ العلم : ٧٥ .

(٢) انظر : حضارة المسلمين .

للعلماء المسلمين ، الذين نشروا نور العلم ، بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى ، وان العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق ، بل زادوا عليها ، وقامت باضافات مهمة فى ميادين مختلفة » .

العرب والسيادة العلمية :

لقد عرف الغربيون المنصف منهم والحاقد فضل العلماء المسلمين ، حتى ان بعضهم ليتنبأ بأنهم سوف يعودون إلى سيرتهم الأولى فى سبقهم العلمى ، ويرى أن الظواهر مجمعة على ذلك ، ولكنه لايستطيع أن يكظم جماح حقده ، فيقول المنصف منهم وهو البروفسور هوكينج : « ان الشغف بالعلم ، والتعطش الدائم لارتياد مناهله ، صفات امتاز بها هؤلاء العرب ، وهى التى تمد عبقرياتهم بالقوة المبدعة الخلاقة ، يعشقون الحرية ويتطلعون دوما إلى المثل العليا ، بدون تعصب ولا تزمت . . ،

ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التى أصابت العرب ، وخدرت نفوسهم ، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة ، والشجاعة الفكرية الخابية سوف تنطلق من عقالها ، وتتحرر من أسرها ، ليعودو سريعا لاحتلال مكانتهم على الأرض .

والدليل على قولى : هو ماكان من انطلاقة العرب فى نهضتهم الأولى ، وما تركوه للأجيال من تراث علمى ، وآثار خالدة ، وهذا ما يزمعون فعله فى العصر الحاضر »(١) .

ووجد بين المنصفين من يلهج بالثناء على العرب ، بل تعدى مرحلة الثناء والمديح إلى مرحلة التخليد والإقرار العلمى ، أما مرحلة التخليد فقد

---

(١) مبادىء السياسة العالمية : ٣٥ .

وضحت فى هذا البناء الضخم الذى خصصته جامعة برنستون الأمريكية لمآثر الطبيب العربى أبى بكرالرازى .

وأما مرحلة الإقرار العلمى ، فقد عملت على اشاعة فضله ، ونشرتراثه، وذلك بأن أنشأت معهداً لتدريس العلوم العربية ، ونقل آثارها وكنوزها — التى مازالت مخطوطة ، وحبيسة طى الأضابير ، ودور الكتب فى جميع جهات العالم — إلى اللغة الإنجليزية .

ويقوم الحاقد منهم وهو البروفسور (آلبر شاملو) « لقد عاش العربى فى أرض قاحلة ، تلهب الشمس رمالها ، فاتخذ النجوم دليلا ، والعلم مرشدا وسبيلا ، واستطاع أن يجمع علم العالم ، فى أقل من مائة عام ، كما استطاع أن يفتح نصف العالم فى أقل من مائة عام أيضاً ، وترك لنا فى حمراء غرناطة ، آثار علمه وفنه ، آثار مجده وفخاره .

ان هذا العربى الذى أقعده الهوان بعض قرون قد استيقظ اليوم ، وأخذ يصرخ فى وجه العالم ، ها أنا ذا أعود إلى الحياة ، حياة العلم والنضال والحرية، ومن يدرى ؟ قد يعود اليوم الذى تصبح فيه بلاد الغرب مهددة بالعرب المسلمين ، فيهبطون عليها مرة ثانية ، ليحطموا العدو التقليدى المستعمر ، ولست أدعى النبوة . ولكن الاتجاهات والظواهر تدل على ذلك » .

ثم لا يملك هذا الباحث جماح حقده ، فتبدو البغضاء من فمه فيقول بنفس تمور بالكراهية . منددأ بالفرسان العربية التى احتلت من قبل أسبانيا (الأندلس) : « أيها الأوروبيون إنى أحذركم من هذه الأشباح القادمة التى تنتظر البعث ، لتنطلق من عقالها فتكتسحكم كما اكتسحتكم من قبل ، أسكتوها إلى الأبد .. ، ولكن هيهات أن تستطيعوا سبيلا إلى ذلك »[1].

---

(١) حمراء غرناطة : ١٢٥ .

وليس من شك اننا معشر العرب ، آهل أصالة وأثالة فى العالم ، لقد قدنا الإنسانية مرة نحو المجد والقوة والسيادة بفضل نفر صدقوا ما عاهدوا الله عليه من العلماء المسلمين ، الذين حملوا المشعل، وأضاءوا دياجير الجهل ..، ولعلنا من الناحية العلمية أغنى الأمم تراثاً ، وقد تعاقبت علينا حضارات تمثلناها ورعيناها ، وقمنا بذلك الواجب العلمى والإنسانى نحو البشرية كلها »(١).

ولئن سمح بعض المستشرقين لأنفسهم أن يتطاولوا إلى أفكار الحقائق العلمية ، فان الواقع التاريخى يكذبهم ، حيث أخذ التعصب بزمام أفئدتهم فأعماهم عن أبسط الحقائق ، فقالوا : ان العرب كانوا مجرد نقلة ، وليس بين تراثهم شىء من الإبداع والابتكار ، وان كثيراً من علمائهم الذين يفاخرون بهم فى مجالات الطب والعلوم والكيمياء لم يكونوا عربا أقحاحا ، أو بمعنى أدق لم يكونوا من أصول عربية .

ويقول الدكتور عزة مريدن : إن لنا من المنصفين العدول الذين لا يرون للحقيقة وجهين ، ما يسكت هؤلاء المتخرصين الأفاكين ، ونستمع إلى العالم (فيكته — Fichte) حيث يقرر : ان كل الذين يتكلمون بلغة واحدة فى مجتمع واحد، يؤلفون أمة واحدة ، لأنهم طرحوا جميع ما يفرق بينهم ، واستمسكوا بأهداب هذه الوحدة»(٢) ، فقد نظر هذا الباحث ولاشك إلى أن أصل القوميات ، وهو (اللغة) ، ونضيف إلى عامل اللغة ، عامل الدين، والمصالح المشتركة والتاريخ .

اللغة العربية والعلوم :

لقد حاول المستعمرون(٣) ، ومن سار فى ركبهم أن يتهم اللغة العربية بالقصور عن مجاراة التطور العلمى والتكنولوجى ، وأنها لا ترقى إلى أن

---

(١) انظر : تاريخ العلم لعبد الحليم منتصر : ٨٢ (بتصرف) .
(٢) اقتبسه فى محاضرته (فضل العرب على الإنسانية : ١٣).
(٣) انظر : كتابنا النقد الأدبى الحديث : ١٥٧ (ط دار الفكر ١٩٧١) .

تكون لغة تأليف علمى — وهى دعوى باطلة ، قصدوا من ورائها إماتة اللغة العربية ، حتى فى ذهن أبنائها ، وانطلق الدارسون العرب ، والأدباء(١) والشعراء فى جميع البقاع يدافعون عنها ، قال حافظ ابراهيم الشاعر المصري على لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت من آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء .. لمخترعات (٢)

وقال المختار السوسى :

بأى خطاب أم بأى عظات
أوجه وجه الشعب شطر لغاتى
تركنا بها كنزا نفيسا ، فأقبلت
على غيرها الأفكار مبتدرات
تمد أكفنا — قطع الله — راحها —
إلى غيرها من اللغى السمجات
ونترك منها روضة تخلب النهى
بطلعتها المخضلة الزهرات(٣)

وفات هؤلاء الشعراء أن اللغة العربية قد مرت بنفس التجربة من قبل ، وأنها وسعت جميع المسميات العلمية التى مازالت المعاجم الأجنبية نفسها محتفظة بها حتى اليوم(٤) ، وأنها كانت لغة التدريس وقد أدرك أبناء أوروبا

(١) انظر : كتاب التعاشيب لعبد الله كنون : ١٢٥ (ط — المهدية بتطوان ١٣٤٢ هـ) .
(٢) ديوان حافظ : ٥٠ .
(٣) الأدب العربى فى المغرب للقباج : ٢٥ (ط) — الوطنية — الرباط ١٩٢٩) .
(٤) مثل معجم اكسفورد ، وقارن بكتابينا (معالم الحضارة الإسلامية) و (تطور الفكر العلمى) .

فى العصور الوسطى فضل المعاهد الإسلامية ، وبخاصة جامعة القرويين بالمغرب الأقصى ، وجامعة قرطبة بالأندلس ، وبالرم فى صقلية[1] ، فقد كانت هذه الجامعات كعبة القصاد من جميع أنحاء العالم ، وكان من أبرز هؤلاء الطلاب (البابا سلفستر الثانى) الذى قصد الأندلس ، ثم جامعة القرويين بفاس فى المغرب الأقصى . وقد درس فى هذه الجامعة الأرقام العربية ، ثم قام بنقلها إلى أوروبا للمرة الأولى ، وهى التى ما تزال مستعملة حتى اليوم ، وان قبول طالب مسيحى فى هذه الجامعة الإسلامية ، ليعطينا فكرة عن روح التسامح الذى كان يشيع فى الأوساط الإسلامية[2] .

وحينما سقط الفردوس المفقود فى أيدى الفرنجة ، كان أساقفة طليطلة يجمعون العلماء المسلمين فى قصر الزهراء ، ويطلبون منهم ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية ، لتدريسها والإفادة منها ، بل أكثر من ذلك غدت الكنائس ، وضفاف البحر المتوسط قلاعا للغة العربية ، لأنها غدت اللغة التجارية والعلمية ، وغدا الرهبان يرتلون بها الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) فى قلب معابدهم ، وهجروا اللاتينية ، وأخذوا يكتبون بالعربية[3] .

وقد جاء فى مقدمة أحد كتب الكيمياء اللاتينية المنقولة عن العربية ، وكبير الأساقفة يتحدث عن جهود المسلمين فى هذا الميدان : « انكم يا معشر اللاتينيين لا تعرفون بعد ما هى الكيمياء ، ولاما تراكيبها وأصولها ، وسترون ذلك مشروحا فى هذا الكتاب الذى ننقله عن العربية » .

هل يعلم شبابنا أن اللغة العربية كانت فى هذه العصور الوسيطة هى اللغة العلمية ، وأنها كانت تحتكر المؤلفات العلمية ، فضلا عن الأدبية والفنية ،

---

(١) انظر : كتابنا الأدب المغربى : ٧٥ (ط – دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٠) .
(٢) المرجع السابق ٧٥ .
(٣) انظر : بلاغة العرب فى الأندلس لاحمد ضيف : ١٣ وقارن بـ :
Dozy : Hist. A des Arabes en Espane. T.2 p. 103.

والدينية ، فلا تكاد تنشر إلا بهـا . نعم ، لقا كانت العربية يوما ما ، هى اللغة الدولية فى هذا الميدن(١) ، ويقول جورج سارتون: لقد حقق المسلمون . عباقرة الشرق ، أعظم المآثر فى القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة ، وأكثرها أصالة ، وأغزرها مادة باللغة العربية ، وكانت من منتصف القرن ، الثامن ، حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى ، حتى لقد كان ينبغى لأى كان ، إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحداث صورها ، أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها »(٢).

وقد ردد هذه المقولة من قبله روجر بيكون الفيلسوف الإنجليزى(٣) ، حيث كان يقول : أعجب لمن يريد أن يبحث فى الفلسفة . وهو لايعرف اللغة العربية ، وهذا ليونارد (٤) : الذى قام بنقل كتب الجبر والطبيعة ، وروجيه الأول حاكم صقلية النورماندى الذى أمر أن تكون كتب أبى عبد الله الإدريسى الجغرافى العربى(٥) هى المرجع العلمى لأبحاثهم ، وفردريك الثانى ملك الأسبان الذى جند نخبة من علماء بلاده لدراسة علوم العرب ، والقيام بترجمتها . وقد خصص فى قصره جناحا لخيرة تلاميذ ابن رشد ، كى يقوموا بتعليم الفلسفة ودروس النبات والحيوان .

والحقيقة أن اللغة العربية كانت وما تزال أقدر اللغات على الأداء ، وأكثرها اتساعا للاشتقاق والنحت والتصريف ، وأغناها بالمفردات ، والصيغ والأوزان (٦)، ولايضير الفكر الإسلامى أن يكون المسلمون قد

---

(١) انظر : تاريخ العلم لعبد الحليم منتصر : ٨٢ .

(٢) انظر : معالم الحضارة الإسلامية للمؤلف : ٣-٢٤٠ .

(٣) توفى سنة ١٢٩٤ ميلادية .

(٤) انظر: ترجمته فى الموسوعة العربية : ١٦٠٣ .

(٥) انظر : ترجمته فى كتابنا معالم الحضارة الإسلامية : ٣ - ٣٣١ .

(٦) انظر : فقه اللغة لوافى ، ولمحمد المبارك ، وللصالحى .

ما رسوا التدريس في العصور الوسطى باللغة العربية . أو باللغات الأوربية ، فهم في كلتا الحالتين هما السادة المعلمون . فان درسوا باللغة العربية ففي ذلك صفعة للشعوبيين . القائلين بقصورها . وأنها عاجزة عن مسايرة ركب النهضة العلمية

وان درسوا باللاتينية أوبغيرها من اللغات فذلك فخر لهم ، ودليل على طول باعهم . وتعدد اللغات التي يتكلمون بها . بل نرى ذلك أدعى لأن نتعلم اللغات الأوروبية المعاصرة ، سواء أكانت الإنجليزية أم الفرنسية أم الألمانية أم الروسية . فان ذلك يجعل أبناءنا أقدر على متابعة الفكر العلمي في مختلف البلدان الناهضة .

وعلى حد تعبير الدكتور عزة مريدن : والى أن يعيد التاريخ نفسه ، وتصبح لغتنا الجميلة هي لغة العلم والتعليم ، كما كان عليـه الحال في عصرنا الذهبي ، لابد لطلابنا من أن يكونوا مثقفين بثقافتين : باتقانهم اللغات الأجنبية لأنها بمثابة نوافذ يطلون منها على الفكر الأجنبي . ويقتبسون منه ما يوائم نهضتنا ، وبضرورة اطلاعهم على تاريخنا العلمي . ليبنوا عليه . وليكملوا الشوط .

ويجب أن يدركوا أن الغربيين الذين أخذوا العلوم عنا في الماضي قد تعلموا لغتنا لترجمة الكتب والمصنفات العلمية . ولم يجدوا في ذلك غضاضة بل كانوا يفاخرون بذلك . ثم تفرقوا علينا ، وأخذوا يبيعون لنا بضاعتنا بأثمان باهظة ، فما بالنا نتردد اليوم في سلوك هذا المسلك القويم ، أو نعيب على بعض كلياتنا أنها تدرس بعض المواد باللغات الأجنبية . فلندرس باللغات الأجنبية إلى أن يشتد ساعدنا ، ثم ننتقل إلى التدريس بلغتنا (١) .

---

(١) انظر : محاضراته : فضل العرب : ٢٥ .

النزعة العقليـــــة

لقد أطلق الإسلام العقل من أسر الأغلال ، وأعطاه القياد ، لينظر ويتفكر ويتدبر بعيداً عن سطوة العادات والتقاليد والأهواء والميول ، وشرفه الله سبحانه بالخطاب ، وجعله مناط التكليف.

لقد حرر الإسلام العقل من الأغلال والقيود ، فلا سيطرة للآباء والقساوسة والكنائس . أما الأشخاص الذين كانوا يقولون : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا فقد هز كيانهم علهم يرشدون ، وقال : « أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ، ولايهتدون » .

وأما الكنيسة فقد ألجمت العقول ، وجعلت لنفسها القياد ، وفصلت بين السلطة الزمنية ، والسلطة الروحية ، نعم ، ألغت المسيحية الكاثوليكية العقل والتفكير ، وجعلت السلطة الدينية فى يد البابا ، فهو الذى يعطى ويمنع ، وهو الذى يمنح المغفرة ، ويرفع الخطيئة ، ويدخل فى رحمة الله من يشاء بغير حساب ، وقصرت حق تفسير (الكتاب المقدس) على البابا ، وأعضاء مجلسه من الطبقة الكهنوتية ، وجعلت (عقيدة التثليث) عقيدة أصيلة فى المسيحية ، وأطلقت الحبل على غاربه ، ففتحت أبواب (صكوك الغفران) و (كراسى الاعتراف بالخطيئة) ، وجدت عقيدة التثليث فى (الأب والابن وروح القدس) .

حتى ثار عليها القس الألمانى (مارتن لوثر – Luther(١)) ، وكافح

---

(١) عاش فى الفترة من ١٤٣٨–إلى ١٥٤٦ ، انظر ترجمته فى الموسوعة العربية : ١٥٧١.

تعاليم الكنيسة الكاثولوكية ، وأسماها تعاليم الشيطان، وحارب صكوك الغفران ، وعقيدة التثليث ، وسلطة البابا ، وطالب بحرية العقل فى البحث ، الأمر الذى هز أركان الكنيسة ، فسارعت إلى تجريده من كل حقوقه ، وحكمت باعدامه ، ولكنه ترك دويا فى الأسماع ، وجعل الناس يتساءلون : لماذا لا نفكر ؟ لماذا نهمل عقولنا ؟

وتحامل الإسلام على الذين يعطلون عقولهم ، ويهملون استخدام تفكيرهم ، وانثنى باللائمة عليهم . فقال سبحانه : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون(١) » وقال : « وكاين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ، وهم عنها معرضون »(٢) ، وقال : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمى ، فهم لايعقلون(٣)».

وطالب كل مفكر بأن يقدم بين يدى حديثه الدليل والبرهان ، وذلك تقديراً للأدلة ، واظهاراً لشرف العقل ، وأن الإنسان ليس مسلوب الإرادة ، ومسلوب الشخصية ، فهو سبحانه قد شرف العقل بالخطاب ، وجعله مناط المسئولية ، كى ينظر ويتدبر ، ويعمل بعيداً عن سطوة العادات والتقاليد والأهواء والميول ، قال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض ،واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض من بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»(٤) ، ودعا محمداً بقوله : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر(٥) ».

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .
(٢) سورة يوسف ، الآية : ١٠٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧١ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ١٦٤ .
(٥) سورة الغاشية ، الآية : ٢٢ .

فالإسلام لم يحجر على العقل ، ولا على التفكير ، ولم يحبس ضياء العقول ، بل تركها تعمل ، ولكنه رسم لها طريق الهداية ، وأرشدها إلى حدها الذى يجب أن تتعرف عليه ، وعرفها قلة علمها وخبرتها مهما بلغت من السعة والإدراك ، فدعا إلى الاستزادة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(١) » ، وقال : « وقل رب زدنى علما(٢) » .

وقد تأثر المسلمون أيما تأثر بهذا المنهج العقلى فى كل أمورهم ، حتى الأمور الدينية ، فلم يأخذوها اعتباطاً ، بل وضعوا لها أقيسة منطقية ، وحدوداً عقلية ، مما ورد مجملا فى كتاب الله وسنة رسوله ، وهم فى هذا يطرحون الروايات التى تميل إلى الخرافة ، وتجانب التفكير المنطقى.

وحاولوا التوفيق بين العقل والدين ، فما وافق الفطرة ، والعقل السليم أخذوه ، وما خالف العقل نبذوه ، واعتمدوا القرآن الكريم دستوراً يستمدون منه مدداً ، فما وافق القرآن عملوا به ، وما خالف القرآن تركوه ، « لأن العقل الإنسانى لم يدرك بعد شيئا من حقائق العناصر المبسطة ، وكلما أوغل فى الجرى وراء حقيقتها انقلبت أمامه إلى مركبات فيتضاعف جهله بها ، وبعد أن كان أمام عنصر واحد يجد فى البحث عن حقيقته يصبح أمام عنصرين أو أكثر عليه أن يبحث عن حقائقها من جديد .

وقل مثل ذلك فى ماهيته القوى الكونية التى تبدو فى الحياة واضحة كل الوضوح بآثارها ، مجهولة كل الجهل بحقيقتها كالكهرباء والمغاطيسية والأثير والجاذبية .. ، إلى غير ذلك من الأسماء والألفاظ والفروض ، والمصطلحات التى اخترعها الفكر الإنسانى ليستر بها حقيقة جهله(٣) » .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٩٥ .
(٢) سورة طه ، الآية : ١١٤ .
(٣) انظر : مقالا للأستاذ حسن البنا بعنوان : الله فى العقيدة الإسلامية ، مجلة الشهاب ، العدد : ٢ ، ١٤ ديسمبر ١٩٤٧ .

ومن الفلاسفة والعلماء المسلمين الذين كانوا يقدسون العقل أبوبكر محمد الرازى (٣٢٠ هـ) قال : « ان البارى — عز اسمه — إنما أعطانا العقل ، وحبانا به ، لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية مافى جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وإنه أعظم نعم الله عندنا ، وأنفع الأشياء لنا وأجداها علينا ، وبالعقل أدركنا جميع ما ينفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل إلى بغيتنا ومرادنا .

وإذا كان هذا مقداره ومحله وخطره ومقامه ، فحقيق علينا أن لانحطه عن رتبته ، ولاننزله عن درجته ولانجعله — وهو الحاكم — محكوما عليه — ولاوهو الزمام — مزموماً ، ولا — وهو المتبوع — تابعا — بل نرجع فى الأمور اليه ونعتبرها به ، ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على امضائه ، ونوقفها على ايقافه(١) » .

وابن سينا الذى يرفع من قدر العقل يرى فيه أنه أعلى قوى النفس ، ومن ثم نادى بسلطانه ، وتنصيبه مهيمناً على التفكير والسلوك ، وعلى الروح ، فهو الرائد الذى يصل بالإنسان إلى ملكوت الله .

وهذه النزعة العقلية عند ابن سينا دعته إلى مناقشة آراء أفلاطون وأرسطو وجمهرة كبيرة من فلاسفة اليونان ، وهجن كثيراً من آرائهم بعد أن عرضها على العقل ، فلم يقبلها أو يؤمن بها ، وقال معقباً : ان الفلاسفة كبروا أوصغروا يصيبون ويخطئون كسائر الناس ، وليسوا معصومين من الذلل أو بعيدين عن الخطأ .

وابن سينا بهذا يبرهن على شجاعة أدبية ، واعتز ز بالرأى الذى مرده إلى العقل ، كما يبرهن على هذه النزعة الاستقلالية التى يتمتع بها العلماء المسلمون فى ابداء آرائهم ، وميلهم إلى التحرر العقلى ، فهم يتقبلون الآراء جميعها

(١) انظر : الطب الروحانى : ٢٥ .

دون تعصب ، ويعرضونها على عقولهم ، ولايتقيدون فيها بآراء من سبقهم ، بل يدققون النظر ، ويعملون الفكر ، ويزنونها بميزان العقل والمنطق . فان أوصلتهم هذه الأدوات ، إلى حقيقة هذه الآراء ، أخذوا بها ، واحترموها ، وإلا أعرضوا عنها ورفضوها .

وقرين الرازى وابن سينا فى احترام العقل وتقديسه الفيلسوف الشهير ابن رشد (٥٩٥ هـ) الذى جمع بين الشريعة والفلسفة فى قرن واحد ، واعتمد فى هذا الجمع على النظر العقلى ، وسلك فى تفسيره للأمور الغيبية والمعجزات والنبوات طريقا يطابق العقل .

وعندما تتلمذ بيكون فى الأندلس ، ونهل من المعرفة الإسلامية ، تأثر أيما تأثر ، بفكر ابن رشد الذى يعتمد العقل ، وقرر ذلك حينما قال : ابن رشد فيلسوف متعمق ، قام بتصحيح كثير من أخطاء الفكر الإنسانى ، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة جبارة ، لايستغنى عنها بسواها ، وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معلوما لأحد ، وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه » .

ولقد اعتنقت أوروبا فلسفة ابن رشد بكاملها ، ودرستها وأتت بثمارها المرجوة ، لأنها أطلقت العقل المسيحى من عقاله الذى سجنته فيه الكنيسة ، وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصراعيها ، ومن ثم نشأ مذهب (الرشدية) القائم على الأخذ بالعقل ، والاعتماد عليه فى البحث والمناقشة والتفسير (١) .

ومن بين الفرق الإسلامية التى جعلت العقل دستوراً لها ، وأساساً لبحوثها ، فرقة المعتزلة ، وكان ذلك فى القرن التاسع الميلادى ، وما بعده ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا غارقة فى الجهل والظلام .

---

(١) انظر : فلسفة ابن رشد لمحمود قاسم ، ٢٥ .

فقد اجتنبت هذه الفرقة التقليد . وكان رائد أفرادها الوصول إلى الحقيقة ، دون اعتبار لقائلها ، حتى غدا لديهم (ذوق علمى) يشبه أن يكون قائدهم ، وكان أساس هذا الذوق الإحساس بقدرة العقل ، ويستطيع أى فرد لديه هذا الذوق ، أن يدرك فى سهولة ويسر ، أى الطرق أفضل ، وأيها أكثر أهمية ، وأنه جدير بالاتباع .

وفى أثناء نضالها اتخذت القرآن إماما ، والعقل هاديا ، وكانوا يقولون : « المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بالنظر » ، ولذلك كان منهجهم التفكير . ومقارعة الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، ولا يمكن تحديد القضايا ، ووزن الأمور إلا بالنتائج التى يتوصل اليها ، وقد أربو على الغاية فى استنادهم إلى العلوم العقلية ، وعلم الكلام والجدل أثناء مقارعة الخصوم ، وكان طريقهم فى اختيار الكلمات ، وتكوين الجمل ، عند الكتابة ، وفلسفة اللغة وفقهها واشتقاقها ، أبعد الحدود ، حتى غدت تلقائية إلى حد كبير ، نتيجة الذوق الذى اكتسبوه بالمران على اختيار الكلمات وتنسيقها ، واختيار الموضوعات المثمرة والتعرف على اتجاهات الخصم فى الحدس ، والفروض ووضع خطة فى العمل . فى الوقت الذى لا يوجد فيه مثل هذا الاتجاه الإطلاق ه

الباب الخامس

الأخـــــــــلاقيات

الدين والأخلاقيات

آداب الزيارة

آداب الاجتماع

آداب النصيحة

آداب الاتحاد

آداب الحلم

الأخلاقيــات

الدين والأخلاقيات :

مما لاشك فيه أن المبادىء الدينية ، والقيم الروحية تؤثر فى وجدان الأفراد ، وتترك مسحتها الطاهرة ، وتعاليمها السامية فى سلوكهم ، بل أكثر من ذلك تصوغ جانبا من أخلاقياتهم ، فهى تنأى بهم عن المهاوى والرذائل ، لترتفع بهم إلى عالم المثل ، والحياة الفاصلة، فتعلمهم السماحة والصفاء والاتحاد والحلم والنصيحة والمحبة .

بين الإسلام والمسيحية :

عندما جاء الإسلام أقام جميع دعائمه فى العبادات والمعاملات على أسس من الدين ، قال سبحانه : « ان الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » : قال عثمان بن مظعون : ما أسلمت ابتداء إلا حياء من رسول الله ، لكثرة ما يعرض على من الإسلام ، دون أن يستقر فى قلبي ، حتى نزل قول الله : (إن الله يأمر بالعدل ..) فحينئذ استقر الإيمان فى قلبى ، وأحببت محمدا عليه السلام .. لأنه لولم يكن الإسلام بين الناس دينا ، لكفاه فخراً أن يكون خلقاً محموداً .

فالإسلام كما نرى يدعو إلى التحلى بالفضائل الخلقية التى ترفع من شأن النفس البشرية ، وتوجهها التوجيه الصحيح الذى يسمو بها إلى أعلى درجات الصفاء الروحانى ، ولقد كان فى سمو هذه التعاليم ، وشمولها لآداب وأخلاق وفضائل ، يترتب على اتباعها رقى الفكر الإنسانى ، وتطهير النفس ،

وتهذيب السلوك ، وتقويم الأخلاق ، والنهوض بالمجتمع البشرى من الوجهتين المادية والروحية .

وقد عنى الإسلام بالأخلاقيات التى توجب على الإنسان أن يكون خيراً فى هذه الحياة ، فالعدل ، والإحسان ، وصلة الأرحام ، واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والابتعاد عن المنكر والظلم ، كل هذا يدفع بالإنسانية إلى الخير ، ويؤدى بها إلى أن تسير فى الطريق الصحيح ، ويضمن لها الاستقرار فى حياتها ، والسعادة فى دنياها وأخراها .

وكانت المسيحية الصحيحة تسلك هذا السلوك ، وتترسم هذا المنهج ، ولكن أوروبا أخذت تبتعد عن هذا السلوك القويم ، وأخذ سلطان الدين يتضاءل ، ليس فى الأوساط الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية فقط ، ولكنه تضاءل وانكمش فى صدور الناس ، حيث مالو إلى فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .. » وقبضت هذه الفلسفات بقبضة من حديد على فكرهم المعاصر ، واستوحوا الحضارة الرومانية منذ أوائل عصر النهضة فى أوروبا ، وكلا المنهجين وثنى النزعة ، فكيف يترك قيما خالدة ، أو أصولا محمودة ، ومن ثم أخذت تشيع فى هذا المجتمع أفكار مبعثها المادة والشهوة .

ففى عالم السياسة أخذوا بنظرية (مكيافيللى) التى تقوم على أساس : أن الغاية تبرر الوسيلة ، حتى ولوكانت هذه الوسيلة غير مشروعة ، ومن ثم وطأوا الأخلاقيات ، ووصموها بأول وصمة فى جبينها .

وفى عالم الاقتصاد : جنحو إلى الربا ، والاستغلال غير المشروع ، والربح الفاحش ، ونهبوا خيرات الشعوب الضعيفة ، وجثموا على صدورها ، وامتصوا ماء الحياة فيها ، ليبنوا على ذلك سعادتهم واقتصادهم ، وزيفوا الحقائق أمام الناس . وأدخلوا فى روعهم : أن تلك هى قوانين الاقتصاد .

وثالثة الأثافى : العلاقات الأسرية ، فلقد انفصلت تماما عن قواعد الأخلاق

وصارت إلى علاقات جسدية ، ولذائذ شهوانية تحكمها الشهوة ، الجنسية وتبررها الدوافع البيولوجية التي أذاعوها بين المجتمعات .

مصادر البلاء :

ابتليت أوروبا في نهضتها الحديثة بثلاثة أشخاص من كبار اليهودية ، ورؤسها المفكرة ، ولم تسلم البشرية في غير أوروبا من لهيب هذا الثالوث الذي الغى الكيان (الإنساني) والكيان(الأخلاقي) والكيان (الديني) ، وحكم المادة والشهوة .

وكان رأس الزاوية الأولى هذا الفيلسوف الاقتصادي الألماني الأصل (كارل ماركس)(1) الذي دعا إلى اغفال الجانب الروحي في حياة الناس ، بل حاول هدمه ومصادرته ، ونظر إلى الإنسان من جانبه المادي وحده ، وشرع يفسر التاريخ ، ولاسيما التاريخ الاقتصادي على هذا الأساس . حتى حتى وصل إلى نظرياته القائلة : « بأن الدين مخدر(2) — وأن العلم هو الواقع) ولاشيء غيره ، وأن كل شيء يحمل بين طياته (مبدأ النقيض) .

وكان رأس الزاوية الثانية العالم النفسي النمساوي (سيجموند فرويد) الذي فسر السلوك البشري بأجمعه على أساس حيواني جنسي بحت ، نعم ، لقد فسر الإنسان من خلال دوافع الغريزة الجنسية ، وهبط بهذه الدوافع إلى الدركات السفلى في الإنسان ، حتى كأنها والحيوان سواء (حتى جعل علاقة الطفل بأمه علاقة جنسية يطلق عليها (عشق الأم) ، وجعل الطفل يكره أباه ، لأنه يحول بينه وبين أمه ، فيما سماه بـ (عقدة أوديب) — بل تمادى هذا اليهودي : ليجعل الدين والأخلاق والحضارة الإنسانية كلها نابعة من

---

(1) انظر : ترجمته في الموسوعة العربية : ١٦١٥ .

(2) انظر : ترجمته في المرجع السابق : ١٢٩٧ .

هذه العقدة المستقذرة[1] » .

وكان رأس الزاوية الثالثة العالم الاجتماعى الفرنسى (إميل دوركايم[2]) الذى ينكر انكارا قاطعاً بأنه ليس ثمة أخلاقيات فى أصل الفطرة الإنسانية ، وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك شيء اسمه الأخلاق ، ولاوجود لها فى ذاتها ، وإنما هى أمور نسبية .

وهذه النظرات الشائهة المنحرفة قد تولدت فى أذهان هذا الصنف من الناس نتيجة لرد الفعل الذى أصيب به الغربيون من كراهية اللاهوت فى العصور الوسطى ، — ذلك المبدأ الذى افتعله الكهنة فى الديانة المسيحية لأنه وقف حجر عثرة أمام الفكر الواعى ، وحرية التفكير .

ولقد انبثقت آنذاك فكرة تدعو إلى (العلمانية) التى تعنى « عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد ، وتعنى أن العقيدة الدينية ، والهدى السماوى ، وما يتبع ذلك من اتباع الدين وطاعة الله ، والوقوف عند حدود شرعه ، لايجب الالتزام بها إلا فى حياة الأفراد الشخصية ، أما ما عدا ذلك من شئون العالم فى حياة الناس ، فانه يجب أن يعالج على أساس المادية البحتة ، وفق رغبات البشر ، ووجهات نظرهم وميولهم دون مراعاة الحياة . » .

وعلى هذه القاعدة أرست المدنية الحديثة وعلماؤها قواعدها ، وأقامت نظم حياتها . بكافة العلاقات الإنسانية فى صلة الإنسان بأخيه ، متحررة من السلطة الإلهية والتشريعية فى ميادين الحياة كلها : الاجتماعية والثقافية ، والاقتصادية والقانونية والسياسية ، وشئون الحكم والإدارة والعلاقات الدولية ، فكل شأن من شئون الحياة البشرية التى لاحصر لها ، إنما يعتمد

---

(١) انظر : النظم الإسلامية لمحمد العربى : ٤٢ (ط — كونستاس ، القاهرة ، ١٩٧٠) .

(٢) انظر : ترجمته فى الموسوعة العربية ١١٦٠ .

يعتمد على معارف الإنسانية المكتسبة ، ويكون وفق رغباته الخاصة ، ولا ينبغى السؤال بعد ذلك عما إذا كان الله قد شرع للإنسانية فى هذا السبيل شيئاً من المبادىء والأسس أم لا ؟ بل أصبح مثل هذا السؤال — فى نظرهم — رجعية وتخلفا(١) » .

التفسير المادى :

نلاحظ أن هؤلاء المفكرين الثلاثة أن فى عالم الاقتصاد والتاريخ ، أو فى عالم السلوك البشرى ، أوفى عالم الاجتماع وفلسفة التاريخ والعمران ، قد ارتبط اتجاههم وتفكيرهم بالتفسير المادى ، الذى نلمس أن الإسلام عندما جاء من قبل ذلك بألف عام أوأكثر ، كان على إثر طغيان موجة الإلحاد ، وإنكار ما عدا المادة فى المعرفة ، ولقد أوقفنا القرآن الكريم على مثل هذا السلوك المعوج من خلال موقف الجاحدين بالشريعة الملحدين بالدين .

وكان موقف هؤلاء الجاحدين المفكرين أساسه أن طريق المعرفة فى زعمهم هو الحس وحده ، ولا تقديم أو اعتماد لسواه ، قال سبحانه : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ، هيهات ، هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين ، إن هو(٢) إلا رجل افترى على الله كذبا(٣) ، وما نحن بمؤمنين(٤) » .

ثم يأبى القدر إلا أن نبتلى كرة ثانية فى العصر الحديث بمثل هذا التفسير المتهافت الذى ينسب كل شىء ويعزوه إلى أحداث متعاقبة فى حركة التاريخ البشرى ، ونسى هذا الصنف من الناس أو تناسى « مشاعر الإنسان وأحاسيسه

---

(١) الإسلام والمدنية الحديثة لأبى الأعلى المودودى : ١٢ — ١٣ .
(٢) يعنون رسول الله عليه السلام .
(٣) لماذا كان كاذبا فى زعمهم ، لأنه خالف معتقداتهم الحسية المادية .
(٤) سورة (المؤمنون) ، الآية : ٣٥ — ٣٨ .

وحاجاته المتعددة ، أن منها المادى ومنها الروحى ، وكل تفسير يحصى هذا الإنسان ودوافعه فى إطار واحد ، أولا يدرك كل مقدمات النفس البشرية روحية كانت أم فكرية أم حيوية ، ومقومات الحياة البشرية معنوية كانت أم مادية يكون تفسيراً خاطئاً[(1)] » .

ومن هنا كان الرسول عليه السلام يكرر التوجيه ، بأن نعطى كل ذى حق حقه « ان لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه[(2)] ».

ونحن لاننكر وجود مثل هذه الجوانب الجزئية للإنسان ، ومن يقف عند واحد منها كهؤلاء المفكرين ، يكون على حد تعبير الشاعر العربى القديم قد أدرك شيئا وغابت عنه أشياء .

ان تحديد الإنسان بالمادة ، والنظر اليه من خلالها فقط هوفى الحقيقة فسخ ، وانكار لإنسانيته ، ولتكريم هذه الإنسانية فيه ، ولقد نزل الله بمستوى الكفار إلى هذا المسخ ، وهذا الانحطاط الفكرى ، لأنهم قصروا أنفسهم على المادة « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم[(3)] » .

« ولكن أصحاب التفسير المادى للتاريخ لايرون إلا فى حدود مبادئهم ، وتعتبر تفسيراتهم وشروحهم صدى وتأكيدا لهذه المبادىء ، وكذلك تصرفاتهم .

فهم مصابون بعمى الأفكار والأرواح ، ولذلك نراهم فرضوا مبادئهم بالقوة على الشعوب ، الأمر الذى يبرأ منه الإسلام ، لأنهم ألغوا جوانب الإنسان ، واعتباراته الأخرى النفسية والروحية والعقلية ، أو أن الغاءها

---

(١) انظر : نظرات فى دراسة التاريخ لعبد الرحمن الحجى : ١٦٤ (ط - دار الرشاد ببيروت ١٩٦٩) .

(٢) رواه البخارى.

(٣) سورة محمد ، الآية : ١٢ .

فى صالحهم ماداموا ودامت مبادئهم لاتفهم غير المنطق المادى ، فقبول المبادىء مسألة مادية لايحافظ عليها إلا بقوة الدبابة ، وإن هاب السلاح ، ولوخلوا بين الناس وبين هذه المبادىء لدفنت مع أصحابها(١) » .

وعلى حد تعبير الأستاذ سيد قطب : « لكى يفهم الإنسان التاريخ ، أو بمعنى أدق الحادثة أياً كانت ، ويفسرها ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغى أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعا . وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ، ويستجيب لوقوعها فى مداركه ، ولايرفض شيئا من استجاباته لها إلا بعد تمحيص ونقد .

فأما إذا كان يتلقاها بادىء ذى بدء ، وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس عن عمد أو عن غير عمد — فان هذا التعطيل المتعمد أوغير المتعمد ، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية ، أى أنه يحرمه عنصراً من عناصرإدراكها وفهمها على الوجه الكامل ، ومن ثم يجعل تفسيره لها تفسيرا مخطئا أوناقصا »

والحقيقة ان ارتباط الإسلام بالتفسير المادى للتاريخ يلغى عنه صفة السماء ، وطبيعة الربوبية ، ومن ثم يمكن أن يقال : بأن الإسلام أو التشريع الإسلامى لم يرتبط بهذا التفسير الأجوف ، لأن ثمة يدا عليا هى يد الله العليم الخبير هى التى صاغته بحسب علمها وقدرتها ، فعلم الله شامل دقيق ، لايفوته شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو الذى خلق هذه النفس الإنسانية وسواها وخالق الشىء أدرى به « فهو يعلم علم اليقين ما يصلحها وما يصلح لها من النظم والقواعد والتوجيهات ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، وقال : « ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

---

(١) نظرات فى دراسة التاريخ : ٦٤ — ٦٥ .

فالله سبحانه لاتفوته صغيرة ولاكبيرة فى نفس الإنسان لايحيط بها علمه إحاطة اليقين ، ولا يغيب عنه شيء من خفايا مسالكها ودروبها ومنحنياتها ، فاذا وضع لها منهج حياتها كله — ومن بينه منهج أخلاقها — فهو الأعلم بها وبمقتضيات توجيهها ، وهو الأخبر بها من هؤلاء القوم الذى اجتهدوا تحت دوافع مادية بحته ، أو مآرب استعمارية .

وحين لايأخذ الإنسان منهجه الأخلاقى من الله العليم الخبير ، فمن يأخذه ؟ انه سيأخذه ولاشك من الطبيعة ، أومن الإنسان ، ومن أى بنى الإنسان سيأخذ ؟ من الفلاسفة باعتبارهم من أصحاب العقول الكبيرة ؟ ان هؤلاء قد ضلوا وأضلوا كثيراً ، وتضاربت أقوالهم ، فبأى مذاهبهم نأخذ ؟ وأيهم نتركها ؟

هل نأخذ بقول الفيلسوف (الرواقى) الذى قال : ان السرقة وما شابهها ليست جريمة إلا إذا ضبطها الناس ، فاذا لم تضبط فهى فضيلة ؟ هل نأخذ بقول (نيتشه) : من أن الفضيلة هى القوة اطلاقا ، ولوكانت على غير حق ولابينة ، ولوكانت طغيانا واستعبادا للناس ؟ هل نأخذ بقول (بوذا) ان الفضيلة هى التسامح ولو للمعتدين ؟

وإذا تركنا الفلاسفة، فمن نأخذ من الناس هل نأخذ مثل ماركس—وفرويد— ودوركايم الذين عاشوا لشهواتهم ومآربهم ولأحاسيسهم المادية ؟

اننا إذاً نجرد عقولنا من التفكير ، ونلغى شخصيتنا ، ونصير إمعات وجهاد لا رأى ولاقيمة لنا مع أن الله سبحانه جعل المسلمين أوصياء على هذه البشرية القاصرة ، فما بالنا نسلم القياد لغيرنا ونسير وراء كل ناعق . حتى ولوكان على غير هدى .

وإلا فانى أريد أن أسأل مع الدكتور عبد الرحمن الجمى هؤلاء الوم ومن سار على منوالهم : « ما هو التفسير المادى أو الدافع الاقتصادى أو

الجنسى أو الاجتماعى وراء هذه الصورة الرائعة فى فتح المدائن وغيرها من مثات الصور فى : بدر فى الخندق فى اليرموك فى اجنادين فى حطين فى جبل طارق — حيث عبر المسلمون إلى بلدة المدائن نهر دجلة فى وقت فيضانه ، الأمر الذى يخافه السباحون الماهرون ، ولايخلو الأمر — بالنسبة لهم — من مغامرة قد تكون خاسرة ، فكيف بهذه الصورة الرائعة التى يقدمها لناعمق الإيمان ، وصحة العقيدة عند المسلمين ، ولم يكونوا قد مارسوا أفانين السباحة ، وماكانت لهم بها خبرة من قبل(١).

وها هى ذى الصورة التاريخية الرائعة التى تواترت الروايات على سردها : « لما أراد المسلمون بقيادة سعد بن أبى وقاص ، عبور دجله إلى المدائن ، تعــذر حصولهم على سفن ، وكانت دجــلة قد زادت زيادة عظيمة واسود ماؤها . ورمت بالزبد من كثرة الماء بهــا ، فندب سعد المسلمين وعزم على عبور النهر على ظهور الجياد ، فأجابوه جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، فانتدب ستمائة فارس ، وأقر عليهم عاصم بن عمرو ، فوقفوا على حافة النهر ، ثم كانت الطليعة الأولى ستين فارسا ، وابتدأ العبور بتلاوة قوله تعالى : (وماكان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا(٢)»

ثم لحق بقية الستمائة ، وتبعهم سعد بباقى الجند موجها لهم أن يقولوا عند دخول الماء : (نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولاقوة إلا بالله العلى العظيم » ، ثم اقتحم بفرسه دجلة ، واقتحم الناس لم يتخلف منهم أحد ، فساروا فى النهر كأنما يسيرون على وجه الأرض ، حتى ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان والرجالة .

وكان المسلمون يتحدثون على وجه الماء ، كما يتحدثون على وجه

---

(١) انظر : نظرات فى دراسة التاريخ : ٦٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٥ .

الأرض ، وذلك لما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده ؛ وعبروا النهر دون أن يفقدوا أحداً أو متاعا ، غير قدح من خشب(١) .

وكان سعد حين العبور يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزمن الله عدوه ان لم يكن فى الجيش بغى ، أو ذنوب تغلب الحسنات(٢) » .

وكان الفرس يقفون فى الجانب الآخر من النهر ، فلما روا المسلمين يطفون على وجه الماء ، قالوا : ديوانا ، ديوانا ، أى : مجانين ، مجانين ، ثم قال الفرس : والله ما تقاتلون إنسان بل تقاتلون جناً (٣) » .

لقد كان المسلمون بشرا من نوع جديد لم يألفه الناس ، لقد تخرجوا فى مدرسة الإسلام ، وتحت لواء القرآن ، وأستاذية محمد عليه السلام ، فلقد قامت فى هذه المدرسة تربية نموذجية على أساس فلسفة حية متماسكة لم تغادر صغيرة ولاكبيرة ، إذ وضعها الحكيم العليم ، بذلك القلم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه(٤) .. تلك هى تربية الخالق سبحانه التى أخذت تعيد إلى الحياة ما تحجر من فضائلها وتعطل من عواطفها « تحمل نوراً تستبين به ما بين يديها وما خلفها ، وتهبها شعورا تدرك به القهر الواقع عليها من سادتها ، فهى لا ترى فى هذه المرة جيوشا تنساح فى بلادها ، وتهين مقدساتها ،

---

(١) ابن كثير : ٧ - ٦٥ .

(٢) الطبرى : ٤-١٢ .

(٣) انظر : البداية والنهاية لابن كثير : ٧-٦٤ ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير : ٢ - ٥١١ ، وتاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٤-٨ .

(٤) انظر بحثاً لنا بعنوان فى أصول التربية الإسلامية بمجلة صوت المربى بليبيا ، العدد ٣ مارس ١٩٥٥ ص ١١ .

وتنتهك حرماتها ، ولاقادة يجعلون شيوخها جزرا للقشاعم والسباع فى ساحتها . وخولا اذلاء أمام عينها ، ولكنها ترى اخوانا يأتون لنجدتها .

وقد أركت هى ذلك فشرعت تستدعيهم لتحريرها ، ولم يؤثر مثل ذلك عن الأمم من قبل ، وما إن استقر بالمسلمين المقام فى بلادها حتى شرعوا يقيمون العدالة فى موطنها ، والتربية فى أماكنها ويستنون بسنة الانصاف فى معاملتها ، والأخلاق فى مناهجها » .

ان هذه المؤثرات المادية ، وغيرها من تلك التفسيرات العجيبة للأخلاق والسلوك والقيم ، «كان لابد أن تقع مادام الناس قد مدا أبصارهم وأفكارهم فى منهج حياتهم إلى غير الله ، وإلى غير كتبه ووحيه ورسله ، وانطلقوا يقيمونه على غير قاعدة الإيمان بالله ، والإسلام هو العاصم للبشرية من هذه الانحرافات كلها ، وطريقته التى يعصم بها الناس من الانحراف هى إقامة الحياة كلها — ومن بينها الأخلاق — على قاعدة الإيمان بالله ، والأخذ عن الله فى منهج المادة ، ومنهج الروح ، منهج الحياة ، ومنهج الأخلاق » .

ان هذه التفسيرات المادية البحتة لاترقى بالإنسان إلى سعادته فى دنيا وفى الآخرة ، ولاتستطيع أن تقدم لنا تفسيراً يعلل لنا انطلاق المسلمين فى أثناء حمل دينهم ونشره فى جنبات الأرض ، بماذا تفسر هذه المادية الجامدة موقف جعفر بن أبى طالب المعروف فى التاريخ الإسلامى باسم جعفر الطيار ، وذلك حين هاجر بدينه هو وجماعة من المسلمين فى أوائل عهد الدعوة الإسلامية إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين ، وأرسلت قريش فى طلبهم إلى النجاشى كى يعيد المسلمين اليهم
دينهم ، فقال جعفر : أيها الملك : إنا كنا قوما أهل جاهلية
ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار . ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ،

ونخلع ماكنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. »(١) .

أولا آداب الزيارة :

ان الدين الإسلامي يعد صفحة من صفحات الأخلاق الكريمة ، والمبادىء الحميدة ، والقوانين العادلة ، والقيم الفاضلة ، فيها صلاح للفرد وللأسرة وللمجتمع ، وقد تناول الله آدابا وأخلاقا كثيرة توضح علاقات الناس مع بعض ، وهذه الآداب والأخلاقيات قد تكون ايجابية كالصدق ، والأمانة ، والحلم ، وقد تكون سلبية : لعدم التجسس ، والغيبة ، والسخرية .. وسنتناول شيئا من هذه وتلك ، فقد بين الله أن للبيوت حرمة ، ولدخولها آدابا لابد من التزامها ومراعاتها ، قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ، لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ، حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم (٢)» .

من المناهج العالمية التي رسمها الإسلام (آداب الزيارة) حتى تكون المخالطة على أساس أدبي كريم ، فقد نهى الله المسلمين عن دخول بيوت ليست لهم إلا إذا استأذن طالب الدخول ، وأذن له بالفعل، وطريقة الأذن أن يقف المستأذن على الباب دون أن ينظر إلى ما بداخله ، حتى لايطلع على عوارات الناس ، أويطلع على أحوال لايحب أهلها أن يراهم عليها أحد ، حتى ولوكان والدا أو ولد .

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام : ٣٣١ ، ٣٣٦، والكامل لابن الأثير : ٢-٨٠ .
(٢) سورة النور ، الآية : ٢٧ ، ٢٨ .

ومن ثم يجب أن يقوم الشخص الزائر بطرق الباب ودقه ، أو بالتصفيق، أو بالنداء على رب الدار وصاحبها ، فاذا لم يؤذن له ، فليستأذن مرة ثانية وثالثة ، فان لم يجبه أحد فلينصرف . قال رجل لرسول الله . أنا أخدم أمى ، فهل أستأذن كلما دخلت عليها ؟قال النبى : نعم ، أتحب أن تراها عريانة » .

وإذا لم يكن فى البيوت أحد فلايصح أن يقتحم البيت وتنتهك حرمته ، ويدخل فيه ، فقد تكون ثمة أمور يكره رب الدار أن تقع أعين الناس عليها ، كما أن البيت ليس معدا فى كل وقت لاستقبال الزوار فقد يكون الوقت مناسب للزيارة ، وليس هناك إثم فى دخول بيوت غير مسكونة فيها استمتاع لكم كالاستكنان من الحر والبرد ، وايواء الأمتعة ، أو أماكن عامة : كالحوانيت والمقاهى والفنادق ، وقد سأل أبوبكر رضى الله عنه رسول الله فى ذلك ، فقال يارسول الله : أفرأيت الحانات والمساكن فى الطريق ليس فيها مساكن ، فنزل قول الله « وليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وماتكتمون»(١) فهو لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولافى السماء من أعمالكم .

ثانيا : آداب الاجتماع (٢):

ان المجتمع البشرى فى حاجة إلى أن يلتزم الناس نوعا من الأخلاق الاجتماعية النبيلة ، التى تشيع روح المحبة والألفة والمساواة بينهم ، وأن يتجنبوا كل ما يؤدى إلى الشقاق والفرقة ، والدين الإسلامى يرسم للناس وبعض ما يجب عليهم أن يلتزموه من الأخلاق ، والصفات الكريمة ، حتى يعيشوا سعداء :

---

(١) سورة النور ، الآية : ٢٩ .

(١) انظر : كتابنا التربية الدينية : ١-٥٠ .

١ ــ الرجل الأصم : ان ثابت بن قيس الصحابي كان في أذنه صمم ، فاذا ذهب إلى مجالس النبي أوسع له الناس ، حتى يجلس بجانبه ليسمع حديثه ، وأقبل ذات يوم على مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن انعقد المجلس، وازدحم بالناس فتخطى الرقاب ليجلس بجانب النبي على عادته ، وهو يقول تفسحوا ، حتى انتهى إلى النبي عليه السلام ، وبينهما رجل واحد ، فقال له تفسح . فقال له الرجل : قد وجدت مجلساً فاجلس . فجلس مغضبا ، ثم قال : من هذا ؟ قالوا : فلان ، فقال ثابت : « ابن فلانة » يعيره بأم له في الجاهلية ، فاستحيا الرجل ، فنزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » وقال عليه السلام : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »(١) .

٢ ــ لسان كلب : إن أم سلمة إحدى زوجات الرسول عليه السلام ، كانت يوما تعمل في البيت فربطت خصرها بثوب أبيض ، وتركت طرفي الثوب من خلفها يجران على الأرض فرآتها عائشة وحفصة ، فعاباها، وقالت عائشة لحفصة : انظري ما تجر خلفها ، كأنه لسان كلب أبيض ، فنهى الله عن سخرية النساء بالنساء ، وقال « ولانساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن »

٣ ــ اللمز والنبز : كان بنو سلمة قبل الإسلام يسمون الرجل منهم باسمه العادى . وباسم آخر . أو باسمين آخرين ، وحدث أن قدم عليهم الرسول ذات يوم بعد اسلامهم ، وكان ينادى الرجل منهم باسمه العادى : يا فلان ، فيقولون : مه يارسول الله ، إنه يغضب من هذا الاسم ، قال سبحانه : « ولاتلمزوا أنفسكم » أى لايعب بعضكم بعضا، ومن عاب غيره ،

---

(١) انظر : تفسير القرطبى وابن كثير .
(٢) انظر : المرجع السابق .

فكأنه عاب نفسه « ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » . أى لايدع بعضكم بعضا بلقب يكرهه .

٤ — خضرة اللحم : كان من عادة الرسول عليه السلام إذا سافر أن يلحق رجلا فقيراً برجلين غنيين يخدمهما ، ويحملانه ، وفى سفرمن أسفاره ألحق سلمان الفارسى برجلين يخدمهما ، وذات يوم لم يهيء سلمان لهما طعاما ، فلما عادا إلى منزلهما ولم يجدا طعاما ، أرسلا سلمان إلى النبى عليه السلام يلتمس لهما طعاما عنده ، فأحال النبى على أسامة بن زيد خازنه ، فقال له أسامة : ما عندى شيء فرجع سلمان اليهما وأخبرهما ، فقالا : قد كان عنده ولكنه بخل.

ثم أرسلا سلمان إلى عدد من الصحابة ، ولكنه لم يجد عندهم شيئا ، فقالا : لوبعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها — وسميحة بئر بالمدينة غزيرة الماء — ثم خرجا يتجسسان : هل عند أسامة شيء ، ولكنه بخل به ، فرآهما النبى ، فقال لهما : ما لى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما ؟

فقالا : يا نبى الله ، والله ما أكل
ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأس
الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، ولاتجسس
أتحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ..»(١) وقد سأل رجل رسول الله : ما الغيبة ؟ فقال : أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع » ، وقال : لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم » .

---

(١) انظر المرجع نفسه .

ثالثا : النصيحة :

فى الإسلام صفات وقواعد عامة ، يهتم بها الإسلام اهتماما كبيرا ، إذ هى الأصول الأخلاقية العامة لصلاح المجتمع ، ومنها : البر ، والأمانة ، والنصيحة وهذه الأخلاقيات تتخذ أشكالا متعددة بحسب كل موقف ، ولكنها على كل حال واجبة الالتزام ، ولابد من ممارستها كأنها عقيدة ، بل يصل بعضها أحيانا حداً بلغ فيه من السمو والرفعة أن يكون مساويا للدين ، ومن ذلك النصيحة ، قال رسول الله : « الدين النصيحة ، قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم »(١).

فالنصيحة كلمة جامعة تعبر عن إرادة الخير للمنصوح له باخلاص ونقاء ، ومعنى أن (الدين النصيحة) أى أن عماد الدين قوامه النصيحة ، ولما كانت النصيحة ذات منزلة سامية ، وآثار عالية، فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدين فيها ، وجعلها بذلك كأنها قد شملت الدين كله ، لأنها جامعة للخير كله .

والنصيحة وان كان معناها العام ، كما ذكرنا آنفا — إلا أنها تختلف باختلاف من توجه اليهم ، ولذلك سأل الصحابة النبى توضيح ذلك ، فقالوا : لمن تكون هذه النصيحة التى أخبرتنا عن عظم قدرها ، وجلال شأنها ؟ فقال رسول الله :

ان النصيحة تكون لله ، ومعناها الإيمان به ، ونفى الشرك عنه ، وترك الألحاد فى صفاته ، ووصفه بأوصاف الكمال ، وتنزيهه عن النقائص ، وطاعة أمره ، واجتناب نهيه ، والاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، وموالاة من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، وغير ذلك مما يجب له ، وجميع هذه

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

الأشياء فى الحقيقة ترجع مصلحتها إلى العبد ، إذ هى نصيحة لنفسه ، وكسب خيرها .

والنصيحة لكتاب الله تكون بالاعتراف به اعترافا كاملا ، وأنه كلامه سبحانه ، المنزل على قلب رسوله محمد ، ليكون دستورا للناس كافة ، وأنه معجز بلفظه ومعناه ، وما حرمه فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وأنه جاء هدى للعالمين ليخرجهم من ظلمات الشرك والوثنية والجهالة إلى نور الإيمان ، وأنه منظم لحياة البشر ومعادهم .

والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم تصديقه فى كل ما جاء به عن ربه ، ومن أنه رسول الله حقاً وصدقا ، وأن طاعته واجبة فى أوامره ونصرته حيا وميتا ، وإعظام حقه ، واحياء سنته ، والتلطف فى تعليمها وتعلمها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبته ، ومحبة أهل بيته وأصحـــابه .

والنصيحة للأئمة تقوم على السير على منهجهم ومعاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه وتذكيرهم برفق ، ورد
وتأييدهم فى واجبهم نحو احقاق الحق ،
إليهم ، وقبول ما رواه علماؤهم ، واحسان الظن بهم

وأما نصيحة العامة فارشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم ، وكف الأذى عنهم ، وتعليمهم ما جهلوا وإعانتهم على البر والتقوى ، وستر عوراتهم ، والشفقة عليهم ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، قال رسول الله : ان الله تبارك وتعالى يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط

لكم قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال(١) » .

ومن أروع أمثلة نصيحة المسلم لأخيه المسلم ، هذا الذى رواه الحافظ الطبرانى ، قال : ان جرير بن عبد الله أمر مولاه أن يشترى له فرسا ، فاشتراه له بثلاثمائة ، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس . ان فرسك خير من ثلاثمائة : أتبيعنيه بأربعمائة ؟ قال : ذلك اليك يا أبا عبد الله . قال : فرسك خير من ذلك ، ثم لم يزل يزيد مائة فمائة ، وصاحبه يرضى وجرير يقول : فرسك خير ، إلى أن بلغ ثمانمائة فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : انى بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم(٢) » .

ونلحظ فى أثناء سردنا لحديث الرسول عليه السلام أن الحديث قد ذكر الأمرين الأخيرين وهما : الأئمة والعامة دون أن يكرر اللام على العامة ، وذلك دليل على أنهما متصلان ببعضهما اتصالا قوياً ، فلا إمام دون عامة ، ولاعامة دون إمام .

ونصيحة المسلمين واجبة على قدر الطاقة البشرية ما دام هناك أمل فى قبولها — والمسلم لاييأس — ولايخشى فى سبيلها أى أذى لايحتمل ، فان خشى ذلك فهو فى حل من تركها إلى أن مناسبتها ، وقيل لايكون الرجل ناصحا لله ولرسوله وللمسلمين إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه ، واجتهد ليعرف ما يجب عليه وعلى غيره ؛

قال ابن بطال : فى هذا الحديث تسمى النصحة : دينا وإسلاما ، وأن الدين يقع على الفعل ، كما يقع على القول ، وكثيراً ماكانت مبايعة الرسول

---

(١) رواه مسلم وابن حنبل ، انظر : الجامع الصغير : ١-٧٦ .
(٢) المرجع السابق .

للمؤمنين تشملها ، وعن جرير بن عبد الله قال : بايعت رســـول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم[1]»، فجعل النصيحة للمسلمين شرطا في الدين يبايع عليها كالصلاة والزكاة ، ولذلك قرنها بهما .

ولقد عضد البخارى هذا الحديث بالآية الكريمة « ليس على الضعفاء ، ولاعلى المرضى ، ولاعلى الذين لايجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم[2]» ، والآية تتكلم عن المعذرين من الأعراب . والذين رضوا أن يكونوا مع الخوالف القاعدين عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رفعت الإثم عن الضعفاء والمرضى والمعدمين بشرط أن ينصحوا لله ولرسوله بالإيمان بهما . وطاعتهما فى السر والعلن وتوليهما . والحب والبغض فيهما . كما يفعل الموالى الناصح بصاحبه ، وكل ذلك يدل على قيمة النصيحة فى الإسلام . فالنصيحة والإخلاص فى بذلها زالت العداوة من الصدور . وحلت محلها المحبة والألفة ، وقوى الاعتصام بحبل الله . واتحدت كلمتهم . فصاروا كالجسم الواحد فى توادهم ، وتراحمهم ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وبالنصيحة المخلصة استطاعت القلة المؤمنة التى التفت من حول رسول الله وخلفائه الكرام من بعده أن تنتصر وأن تسود ، وأن تنشر الإسلام إلى أبعاد كبيرة فى طول المعمورة وعرضها .

وبالنصيحة لكتاب الله وسنة رسوله أقبل عليهما المسلمون يبذلون الجهد فى تدوينهما وشرحهما . والاستنباط منهما أقصى ما عرفته الأمم من ثقافة ومعرفة وتبصير بالحق . وطرائق الخير .

---

(١) انظر : شرح البخارى للكرمانى :

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٩١ .

رابعا : الاتحاد :

تقوم الحياة كلها على الاتحاد ، وإذا رجعنا إلى التاريخ نستفتيه نجد أن الشعوب والمجتمعات القديمة كانت تسود باتحادها وتضعف بفرقتها وتفككها ، ففى الاتحاد منعة وعزة ، والعرب أحوج ما يكونون إلى التعاون والاتحاد لتحرير الوطن العربى ، واستغلال خيراته ، وقضية مثل قضية فلسطين اليوم تحتاج إلى التعاون والاتحاد ، بل كل القضايا الإسلامية المصيرية كالاقتصاد والثقافة والآداب والتعليم والتاريخ — تحتاج إلى الاتحاد وبغير الاتحاد يصعب حل هذه المشكلات ، فالعدو اليهودى قبالتهم إحدى البلدان الإسلامية ، وها هو ذا فاغر فاه ليلتهم ثانية وثالثة ، ولكن إذا تضافرت الجهود كان الله معهم وكان النصر حليفهم ، قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا(١) » .

ففى هذه الآية يحض الله سبحانه المؤمنين على الاستمساك بتعاليم الدين ، وأن يكونوا يداً واحدة متآلفين متعاونين ، ويحذر الله من الفرقة ، وتجنب عوامل الاختلاف ، وبواعث النزاع والشقاق ، وكل ما يؤدى إلى العداوة والبغضاء ، ويجب على المؤمنين أن يتذكروا فضل الله عليهم إذا كانوا أعداء متقاطعين متدابرين فألف بينهم ، ثم حض على ألا ننسى هذا الفضل الذى أكرمنا الله به حين هدانا إلى الإسلام ، وحين أخرج الله الناس من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإيمان والهداية ، وربط بين القلوب ، وألف بين النفوس كان يهيء الأرض لتفاصيل الشريعة ، ويهيء النفوس للوحدة العالمية « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، فأصبحوا بنعمته اخوانا(٢) » .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣ .

ونلاحظ أن (حق الإخوة) من المبادىء الأساسية التى تتفرع عنها مبادىء أخرى، وتبنى عليها فروع كثيرة وكان ذلك سر اهتمام الرسول عليه السلام ببث روح التضامن والتعاون فالتساوى بين الناس ، والعدالة ، والوحدة ، والاتحاد ، والتقارب ، والرحمة ، والمحبة بين البشر — وغيرها كثير — نتائج عن هذا المبدأ الإسلامي العظيم ، وفى ظل الإسلام ، تشرف وتسمو هذه الفضائل كلها . بتوجيه النفس الإنسانية إلى الأخلاقيات .

ومن هذه القاعدة انطلق الرسول عليه السلام يشيد البناء الجديد ، ويغرس أصول الفكر الجديد ، فهو فكر غريب على الأرض وعلى الأذهان والعقول ، ولابد أن يؤصل له فى المجتمع ، وأن تتملأ به الصدور ، والأفئدة، فيقول : « يد الله مع الجماعة ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية(١)» ويقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا(٢).

بهذا الدعم العملى ، وبهذا الأسلوب النبوى تمت ركائز الإسلام ، وتمت أخلاقياته ، وأوجد له شعائر واحدة ، توحد القلوب ، والهدف وتسبك النفوس فى قالب واحد ، فصلاة الجماعة ، والاتجاه لقبلة واحدة ، وصوم شهر واحد ، وعبادة إله واحد كل هذا خطوات عملية نحو التعلق بالخلق الجماعى ، وبالسيرة الجماعية ، وصدق الله ، حيث قال : « ان هذه أمتكم أمة واحدة(٣) » .

خامسا الحلم :

ان عناية الإنسان بتنمية جسمه ، وتقوية عضلاته ، غاية مرغوبة حض عليها الإسلام ، « فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»

---

(١) رواه الترمذى ، انظر الجامع : ٢-٢٠٥ .
(٢) رواه الشيخان ، الجامع : ٢-١٨٤ .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ٥٢ .

وتقوية الجسم غاية يهدف اليها المربون منذ القدم ، حتى اليوم ، فيعملون على شغل أوقات فراغ الشباب بشتى أنواع الرياضة ، لتصريف الطاقة البشرية ، ولبناء الجسم بناء سليما ، وبذلك يشب الفرد قوى التكوين متين العضلات ، فارع القامة ، سباقا فى جميع ميادين الحياة ، ومن ثم يميل اليه الناس ، ويعجبون بقوته ونظرته وقدرته على الغلبة والسبق .

وهذا شيء محمود ، ولكن ثمة قوة ، وراء هذه القوة ، وغاية وراء هذه الغاية فى نظر الإسلام ، وهى قوة الإرادة والحلم ، وتربية النفس ، وتربية العزيمة ، بحيث يستطيع الإنسان أن يتحكم فى نفسه ، وأن يسيطر على رغباته ، ويكبح جماح شهواته إذا ما نزغه الشيطان ، أوحفزته الحمية الجاهلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب(١) » .

فالدين الإسلامى يجعل من أسس أخلاقياته أن يكون أبناؤه أقوياء فى جسومهم وعقولهم ، أقوياء فى إرادتهم وسيطرتهم على أنفسهم ، فان القوة الجسمية إذا لم تسيطر عليها قوة الإرادة ، وتوجهها توجيها حسنا كانت خطرا على النفس ، وعلى الغير ، إذ أن الغضب رذيلة مذمومة بما يصحبه من انفعال ، وما يطرأ على الإنسان من حمية ، وبما يقترن به من تصرفات طائشة متهورة ، تؤدى إلى عواقب سيئة وخمية .

ومن ثم دعا الإسلام إلى الحلم ، وكبح جماح النفس ، فهذا الشخص الذى جاء إلى رسول الله يسأله الوصية ، وقال : أوصنى يا رسول الله ، فقال : لاتغضب ، فكرر السؤال ثلاث مرات ، وكرر الرسول الجواب نفسه(٢) » هذه الإجابة كانت عين الحكمة والصواب ، ودراسة من الرسول وتعرفا لشخصيات المجتمع الإسلامى من حيث أخلاقهم وطباعهم وإيمانهم ، وما هم

(١) رواه الشيخان وابن حنبل ، انظر الجامع الصغير : ٢-١٣٥ .
(٢) رواه الديلمى ، وأبو شيبه ، انظر : الجامع الصغير : ٢-١٥٩ .

فى أشد الحاجة اليه . ليستقيم أمرهم . ومن هذه المعرفة : الحض على التغلب على شهوة الغضب ، والسيطرة على الانفعال ، وتغليب جانب الحلم ففى ذلك اتقاء للشرور ، سواء أكانت شروراً فردية أم مجتمعية ، أم عالمية، فهذه البيوت الخربة أساسها كلمة طائشة حدثت بين الزوج والزوجة . وهذه القضايا التى يئن منها القضاء مبعثها كلمة طائشة حدثت بين فردين أو أسرتين ، وهذه الحروب المهلكة المدمرة أساسها عدم السيطرة على الإرادة وعدم تغليب جانب الحلم على جانب الأهواء والشهوات .

ولكن ليس من الحلم المحمود أن يتبلد الإنسان ، أو تتبلد الدولة ، الدولة ، فتحتمل الذلة والمهانة والطعن ، فى الدين أو العرض أو الوطن ، من غير أن يغضب هذا أو تلك لدينه ووطنه وشرفه ، فان هذا منهى عنه كالنهى عن التهور والاندفاع وراء الغضب لصغائر الأمور .

يغضب الإنسان إذا اعتدى انسان أو جماعة على وطنه أو شرفه أوماله ، فيهب للدفاع عن ذلك بنفسه ، ليعيش عزيزاً كريما آمنا مطمئناً كما يريد الله ، وتريد الشرائع الفاضلة ، غير أن بعض الناس إذا اشتد غضبهم ركبوا رءوسهم ، وتعرفوا تصرفات شاذة لايرضونها إذا عادوا إلى رشدهم ، وحكموا عقولهم ، وقد تكون لذلك أضرار بالغة لاتتناسب مع ما قصدوا من دفع أذى أوجلب منفعة .

وكثيراً ما نسمع أن كلمة واحدة كانت سببا فى شجار عنيف بين أسرتين أريقت فيه الدماء ، وأزهقت فيه الأرواح ، ولوأن الناس لاذوا بالحلم ، واعتصموا بالصبر ، ولجأوا إلى القانون والعقل ، واستنجدوا بالأناة وحسن الإرادة لكسبوا خصومهم ، وتجنبوا أضرار حمقهم ، وأذى سفههم ، وتقص لنا أحاديث الرسول عليه السلام ، وسير الصحابة طرفا من ذلك ، فلقد قدم رجل على النبي يطالبه بدين ، وأغلظ فى الكلام ، حتى غضب الحاضرون ، وهم عمر بايذائه ، فقال الرسول عليه السلام : « مه ياعمر »

أى كف وارجع عما تريد «كنت أحوج إلى أن تأمرنى بحسن الأداء ، وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر » .

وهذا رجل آخر يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فيجذبه من طوق ثوبه ، حتى جرح عنقه ، وقال له : اعطنى من مال الله الذى عندك ، فإنك لاتعطينى من مالك ولامال أبيك ، فقال النبى : المال مال الله ، ويقاد منك يا أعرابى : فقال : لا ، لأنك لاتجازى على السيئة بالسيئة ، فأعطاه النبى ماأراد » .

وقال رجل لعمر بن الخطاب : انك لاتقضى بالعدل ، ولاتعطى الجزل ، فتغير عمر ، وظهر ذلك على وجهه ، فقال له أحد الحاضرين : أمير المؤمنين ، ألم نسمع قول الله سبحانه « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » فقال عمر : صدقت فكأنما كانت نار فأطفئت[1] » .

عرف المسلمون الأوائل تلك الأخلاقيات الرفيعة ، فتجملوا بها ، واعتنقوها ، تجملوا بالحلم حين يحسن الحلم وحين يكون فضيلة ، وغضبوا حين يحسن الغضب وحين يكون فضيلة ، فصانوا ألسنتهم وأيديهم عن فعلة السوء ، وعن كلمة الشر ، وعن روح الانتقام ، فدانت لهم الرقاب وخضعت لهم الأمم ، واستمالوا أعداءهم ، واطمأنت لحكمهم الأمم المفتوحة .

نعم ، إن أقوياء الإرادة هم الذين يستطيعون التغلب على مصاعب الحياة ، ويشقون طريقهم فيها بنجاح ، وهم عماد الأمم الراقية فى مواقفها الشديدة التى تحتاج إلى الثبات ، ورباطة الجأش ، ثم ان النفس أمارة بالسوء ، وطاعتها دائما تجر إلى العواقب الوخيمة ، وفى ضبط النفس ، وكبح جماح الهوى من الاسترسال فى الغضب تمرين على أن تكون النفس خيرة بعيدة عن المهالك ، وخير من هذا أن يعفو الإنسان إذا قدر ، فالعفو عند المقدرة فضيلة من شيم النفوس الحرة ، وقد أثنى الله عن العافين عن الناس ، وأعد لهم المثوبة ، قال سبحانه : « ولمن صبر وغفر ، ان ذلك لمن عزم الأمور[2] » وقال : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين[3] » .

---

(١) سيرة عمر : ٢٥ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ٤٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٤ .

فهرس

صفحة

صفحة

الحج

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

رقم الايداع ٣٧٨٤ / ١٩٧٧

دار نافع للطباعة ت ٩٠٠١١٨